١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م

الدولة الفاطمية

قيامها ببلاد المغرب وانتقالها الى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري مع عناية خاصة بالجيش

الدكتور
عبد الله محمد جمال الدين
كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

دار الثقافة

الدولة الفاطمية

قيامها ببلاد المغرب وانتقالها الى مصر
إلى نهاية القرن الرابع الهجرى
مع عناية خاصة بالجيش

الدكتور
عبد الله محمد جمال الدين
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

دار الثقافة والنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهرانى - الفجالة
القاهرة ت/ ٩٠٤٦٩٦

إهـــداء

الى امى

بين الخالدات فى النعيم المقيم

فلولاها ما خططت حرفا ولا كتبت ســطرا

عبد الله جمال الدين

الجيــوش عصب الأمم ، وســاعدها المتين ، وأداتها القوية ، بها تحقق الدول غايتها ، وتصــل الى أهدافها ومقاصدها ، وتؤكد وجودها ، وتحمى كيانها • وبدون جيش قوى تعتبر الــدولة بنيانا متداعيا ، وكيانا هزيلا متهاويا ، وبمقدار ما تملك من قوى عسكرية ، وما توفر لنفسها من عدد وعتاد حربى ، بمقدار ما تفرض هيبتها على الآخرين ، وتنتزع احترامهم ، وتنال تقديرهم واكبارهم •

ولقد شهدت العصور الوسطى دولة من أقوى الدول وأزهاها ، وعاش الناس فى ظلها أياما موفورة الرخاء ، حافلة — فى جملتها — بالخصب ، تلك هى الدولة الفاطمية •

وقد دفع ذلك كثيرا من الدارسين الى التوفر على دراسة تلك الدولة ، وأولوها قسطا غير قليل من اهتماماتهم وعنايتهم ، فتناولوها بالبحث من مناح متعددة : علمية ودينية ، واقتصادية واجتماعية ، وسياسية وفنية •

غير أن جانبا من جوانب تلك الدولة ، ترك رغم أهميته بدون دراسة ، ولم ينل ما يستحقه من عناية الباحثين ، ولا نرى — خاصاً به — الا صفحة هنا ، وصفحات هناك ، لا تروى الظمأ ولا تشــفى حاجة النفس •

ولقد كان ذلك لافتاً لنظر الأستاذ الدكتور ضياء الدين الريس ، رئيس قسم التاريخ والحضارة بكلية دار العلوم سابقا — رحمة الله عليه — فقد شــعر بحاجة الدولة الفاطمية الى دراسة تغطى هــذا النقص فيها ، وتملأ الفراغ بين جوانبها ، وكان أن نصحنى ببحث ذلك الموضــوع •

ولابد لموضوع يدور حول الدولة الفاطمية من التعريف بها ، وشرح نشأتها وبيان الأسس التى قامت عليها ، والجهود التى بذلتها

الدعوة الفاطمية منذ بدايتها الى أن نجحت فى اقامة الدولة الفاطمية ، والعوامل التى هيأت لذلك النجاح ، واستتبع ذلك الحديث عن الوضع السياسى والاقتصادى للمنطقة التى قامت فيها تلك الدولة ، وتعريفا بالدول التى قامت على أنقاضها ، فقد كان تفكك هذه الدول واختلاف كلمة الحاكمين فيها ، وانهيارها اقتصاديا ، مما ساعد على النجاح الفاطمى .

ولقد كان قيام تلك الدولة يستند أساسا على مناصرة بعض القبائل لها ، وجهادهم فى سبيل اعلانها ، وتعرضت — بعد وجودها — لمعاداة قبائل أخرى ، وثورتهم بهـا ، وحربهم لكيانها ، فكان من الضرورى لذلك أن نتحدث عن القبائل البربرية فى بلاد المغرب ، وأن نحدد مواطن كل منها ، ونتعرض — فى ايجاز — لمذاهبها السياسية والدينية ، وقد شكل ذلك كله موضوع الفصل الاول من هذا البحث .

لقد تم اعلان الدولة وأضحت حقيقة واقعة ماثلة أمام العين فى بلاد المغرب ، وبدأ يظهر فى الأفق المعادون لها ، والناقمون عليها ، والضائقون بها ، ولم يرد هؤلاء للدولة الناشئة أن تعيش فى سلام ، وأن تقيم آمنة فى موطنها الجديد ، فأعلنوا الحرب عليها ، وقامت الثورات وحركات التمرد ضدها هنا وهناك .

كذلك لم يكن قيام الفاطميين بدولة لهم فى البلاد المغربية ، الا هدفا مبدئيا ، وخطوة أولى نحو تحقيق آملهم الواسع فى حكم كل البلاد الاسلامية من أقصى المغرب الاسلامى الى أقصى المشرق .

من هنا كان دور الجيش الفاطمى مزدوجا فى هذه المرحلة من عمر الدولة ، عليـه أن يقمع حركات الثائرين ، ويقضى على ثورات المعاندين ، وعليـه فى الآن نفسه أن يعمل على نشر جناحى الدولة ، وتوسيع رقعتها ، وضم مناطق جديدة الى حكمها .

وكان موضوع الفصل الثانى من هــذا البحث هو دراسة جهود الجيش فى هــذا السبيل بشقيه : دراســة الثورات ضد الفاطميين وأسبابها ومدلولاتها وتصدى الجيش لها من ناحية ، ثم بيان تحركات الجيش وحروبه بهدف فتح بلاد جديدة للفاطميين من ناحية ثانية .

ولقد كان فتح مصر بالذات يمثل هدفا أسمى لدى الفاطميين ، فقد كانت غنية فى ثروتها ، موفورة فى خيرها ، كما كانت ذات موقع استراتيجى هام يمكن منه النفاذ الى الخلافة العباسية فى بغــداد والقضـــاء عليها .

من هنا ــ ولأسباب أخرى ــ حرص الفاطميون منذ عهد أول خليفة لهم فى بلاد المغرب على غزو مصر ، وتتابعت على البلاد المصرية الحملات تلو الحملات ، متخذة طابعا حربيا أحيانا ، وسالكة سبيل المسالمة والدهاء السياسى حينا ، ولستمر ذلك من سنة ٣٠١ هـ الى أن نجح القائد الفاطمى « جوهر الصقلى » فى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ على عهد الخليفة « المعز » الذى انتقل الى تلك البلاد ، واتخذها قصبة لدولته وحاضرة لملكه منذ ســنة ٣٦٢ هـ .

ولقد حتمت الضرورة دراسة كل حملة من الحملات الفاطمية ضد مصر على حدة وبيان حالة البلاد أثناء مجيئها ، والنتائج التى حققتها ، والحقــائق التى يمكن اســتنباطها منهـــا ، وشرح عوامل النجــاح والاخفاق فيهـــا .

وقد تكفل الفصل الثالث من هذا البحث بدراسة تلك الحملات ، فوصف اعدادها ، وشرح طريقها ، وأســباب فشل الجيش الفاطمى أو فلاحه فيهـــا .

ولقــد أتم الجيش الفاطمى فتح الشــام بعد فترة وجيزة من غزو مصر ، وعاشت الدولة الفاطمية فترة حرجة فى تلك البـــلاد ،

وتعرضت فوق أراضيها لملاقاة أقسى الخصوم وألد الأعداء ، فقد تحالف القرامطة والأتراك والأعراب عليها ، فكثفوا جهودهم بهـدف تحقيق أمل موحد هو القضاء على دولة الفاطميين ، وانهاء وجودها غير أن الجيش الفاطمى كان لهم بالمرصاد ، واستطاع فى براعة ومقدرة أن يهزم عدوه ، وأن يقضى عليه ، وأن يحطم باستماتته وحسن بلائه كل أهداف العدو ومقاصده .

والفصل الرابع من هذا البحث شرح لذلك الدور لجيش الفاطميين، ومقدار ما بذل من جهد وما قدم من تضحيات فى هذا الصدد .

أما الفصل الخامس فقد خصص لبحث دور الجيش الفاطمى فى منطقة من أهم المناطق هى صقلية والروم .

لقد كانت الدولة الفاطمية تهدف ـ ضمن ما تهدف ـ الى بسط نفوذها على « صقلية » ، فذلك يساعدها على تحقيق هدفها فى انشاء امبراطورية عظيمة فى البحر الأبيض المتوسط ، ويمكن اتخاذها منطلقا لفتح كثير من البلدان على ســاحل هذا البحر ، ويقيها فى الآن نفسه غارات الروم على سواحل بلادها بافريقية ، هذا فوق غناها وثروتها الاقتصادية ووفرة المعادن النفسية بها .

فلا عجب اذاً أن تتوجه الجيوش الفاطمية لفتح تلك البلاد ، وتضمها لدولة الفاطميين ، ولقد اتخذ الفاطميون تلك البـلاد قاعدة أغاروا منها على كثير من البلدان الأوربية ، وأخضعوا لحكمهم جزائر بعضها ينتمى لايطاليا وبعضها لفرنســا اليوم ، وفرضوا احترامهم وهيبتهم وشروطهم على الروم الذين كانوا يحكمون فى تلك النواحى . ومع ذلك فلم يسلم وجود الفاطميين بصقلية من الاضطرابات والثورات ، ولم يخل من أعداء يتربصون به الدوائر ويكيدون له السبب أو الآخر .

وكان الجيش يتكفل دائما بالقضاء على الثورات ، ونشر الأمن والسلام فى ربوع البـلاد .

وكما كانت صقلية ميدانا للحرب بين الفاطميين والروم ، كانت بلاد الشـام ميدانا آخر لهذا القتال ، وكما نجح الجيش فى فرض احترام الفاطميين على الروم فى صقلية وبلدان أوربا ، استطاع أن يقضى على الآخرين فى بلاد الشـام وأن يحملهم على العـودة الى بلادهم مدحورين .

ولقد تكون الجيش الفاطمى من عناصر عدة ، وأجناس مختلفة ، شأنه فى ذلك شأن معظم جيوش الدول الاسلامية ، وقد كان وجود الخليط من الأجناس فى هـذا الجيش ، مثيرا للحسد بينها ، يدفعها الى التنافس والتقـاتل ، ويرمى بهـا فى حروب تسـتنفد جهـد الدولة وقواها .

ولقد قام الفصل السادس من هـذا البحث على دراسـة تلك العناصر ، مبدأ دخول كل منها فى خدمة الدولة الفاطمية ، وتطور وجوده فيها ، وعلاقته بالخلافة وموقفها منه ، والثكنات أو المعسكرات التى أقام فيها أفراد كل عنصر ، ثم العلاقات بينها أخيرا ، وأثر ذلك على انهيار الدولة وتداعى أركانها .

أما الفصـل السابع فهو بحث للنظام والأسـلحة فى الجيش الفاطمى ــ تلك النظم التى كانت أساسا أخذت به الدول التالية فى التاريخ المصرى ــ ولقد عرض ذلك الفصل لمراتب رجال الجيش فى الدولة الفاطميـة ، وألقاب القواد فى الجيش الفاطمى ، والمناصب القيادية العسكرية ، وشروط من يتولى تلك المناصب ، والمهمة المناطة به ، وتحدث عن طريقـة الفاطميين فى التجنيد ، وأسـلوبهم فى الترقية وصاحب الحق فيهـا ، كما عرض لديوان الجيش ، وشروطهم فيمن يثبت فى ذلك الديوان ، ومرتبات العاملين العسكريين ، وأساس تقدير هذه المرتبات ، ووضع الاقطاع فى دولة الفاطميين ، وتقرير ذلك وأنه لم يكن يعطى مقابل مرتبات فى تلك الدولة ، وانما كانت الخـلافة

تمنحه هبة منهـــا ، وعطية لأوليائها ، ولقد تناول ذلك الفصل كذلك موضوع الامارة على الجهاد وشروط الفاطميين فيمن يتولاها ، والعمل المكلف به ، كما تناول التعبئة الفاطمية للجيش أثناء المعارك الحربية ، وملابس الجنود ، والخدمات الطبية فى الجيش .... الخ .

كذلك تكفل هـــذا الفصل بشرح أهمية الأسلحة والتسليح لدى الفاطميين ، فبين ما رصدوا لذلك من مبالغ ضخمة ، وما أعدوا من خزائن متنوعة لحفظ السلاح ، وفصل أسلحتهم ، ووصف كل سلاح منها .

وأخيرا تحدث عن العرض العسكرى للجيش الفاطمى ، متمثلا ذلك فى مواكب الخلفاء ، واحتفالاتهم بمناسبات معينة قام الجيش بالنصيب الأوفى فيها ، وســاعد ترتيب العاملين فى الدولة بهـذه المواكب ، على معرفة مكانة رجال الجيش ، وترتيب قواده وفرقه .

أما عن مراجع هذه الدراسة ، فحسبى أن أقول اننى لم آل جهدا فى ســبيل الحصول والاطلاع على كل كتاب عرض للدولة الفاطمية من قريب أو بعيد ، مخطوطا أو مطبوعا ، وقد دونت آخر هذا البحث ، قائمة بأهم المراجع التى أفادتنى بطريقة مباشرة .

وبعـــــد

فلا يسعنى الا تقديم الشكر خالصا ، والوفاء صادقا للأستاذ الدكتور ضياء الدين الريس ، رئيس قسم التاريخ الاســلامى بكلية دار العلوم .

فقد اختار البحث موضوعا ، وتبناه فكرة ، وأحاط صاحبه بعناية موفورة ، ومنحه الكثير من وقته وجهـده ، وسدد خطاه ، ووجهــه وأرشده ، حتى خرج الموضوع بصورته الحالية الى الوجود ، ولولاه ما رأى النور .

ولست أملك ازاء ما قدم من عون ، ومنح من جهـد ، الا أن أتوجه الى الله أن يجزيه خير ما يجزى المخصلين الصادقين .

الفصل الأول

الموطن والقبائل

ونشأة الدولة الفاطمية

بلاد المغرب من الناحية الجغرافية

من الضرورى أن نقدم بين يدى هذه الدراسة ، وصفا جغرافيا سريعا للبلاد المغربية ، لأن هذه البلاد تمثل مسرحا للحوادث التى انتهت بقيام الدولة الفاطمية ، وستظل مقرا لتلك الدولة أمدا ليس بالقصير ، ففهم تلك الدولة اذاً ، وما يرتبط بها من حوادث ، يستلزم تقديم صورة جغرافية للأراضى والمناطق التى دارت عليها هذه الحوادث .

« المغرب » اسم يطلق على تلك المنطقة الممتدة من قرية السلوم — غرب الاسكندرية — فى الشرق ، الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا الى بلاد السودان جنوبا (الصحراء الكبرى ، ومالى والنيجر والسودان) .

وتسمية هذه المنطقة باسم المغرب ، تسمية محدثة لم تعرف الا فى القرن الأول الهجرى اطلقها عليه الفاتحون من المسلمين ، لأنه يعتبر فى الجهة الغربية بالنسبة للمراكز التى توجهت منها الجيوش لفتح هذه البلاد .

وينقسم المغرب الى أقسام ثلاثة — حسب قربه وبعده عن مصر والشام — وهى :

١ — المغرب الأدنى : ويشمل المساحة من غرب الاسكندرية فى الشرق الى مدينة « بجاية » فى الغرب (برقة ، وطرابلس وتونس وشرق الجزائر الآن) .

٢ — المغرب الأوسط : وهو عبارة عن المنطقة من « بجاية » شرقا الى وادى ملوية غربا (وسط الجزائر وغربه وجزء من دولة المغرب « مراكش » الآن) .

٣ ـ المغرب الأقصى : ويبتدىء من وادى ملوية شرقا الى المحيط الأطلسى غربا (بقية القطر المغربى « مراكش » حتى المحيط الأطلسى الآن)[١] .

ويقول ابن عذارى المراكشى : ان حد بلاد المغرب هو : من ضفة النيل بالاسكندرية الى مدينة « سلا » ، وينقسم أقساما ، فقسم من الاسكندرية الى طرابلس ، وقسم من طرابلس وهى بلاد الجريد ، ويقال لها أيضا بلاد الزاب الأعلى ، ويلى هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل ، وحدها مدينة تيهرت ، تأتى بعد ذلك بلاد « طنجة » وحدها مدينة « سلا » وهى آخر المغرب[٢] .

هـذا ويخترق بلاد المغرب سلسلتان من الجبال ، تبتدىء من المغرب الأقصى وتنتهى فى تونس ، السلسلة الشمالية منهـا تسمى « الأطلس الشـمالى » والجنوبية تسمى الأطلس الصـحراوى ، ويعرف جبل الأطلس هذا باسم « درن » كذلك ، والواقع أنه يأخذ أسماء متعددة تختلف فى كل بلد عن الأخرى ، فهو فى بلاد المصامدة « الكلاوى » وفى داخل بلاد البربر « للعياشى » ، وأوله عند المحيط من جهة الغرب ، وآخره على ثلاث مراحل من اسكندرية[٣] .

وهـذه المنطقة الجبلية ليست من النوع الصحراوى القفر ، وانما أغلبها حدائق ومزارع حيث تجود الزراعة فى نجودها .

---

(١) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ١ ص ٣ القاهرة سنة ١٩٦٤ م.

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٥ طبعة بروفنسال ، أوربا سنة ١٩٤٨
بجاية : مدينة على ساحل البحرين بين افريقية والمغرب ،
وادى ملوية : ملوية : نهر ومرسى قرب نكور ، سلا : مدينة باقصى المغرب ليس بعدها معمور الا مدينة صغيرة .

(٣) انظر : عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ج ١ ص ٦٢ طبة المغرب سنة ١٣٤٧ هـ .

أما الصحراء المغربية فيزرع فيهـا النخيل بأنواعه المختلفة ، وبها مواطن للأحجار النفسية وانواع الثروات المعدنية[٥] .

بعد هـذا التعريف الجغرافى ، نتحدث عن سكان تلك المنطقة المعروفة بالمغرب ، ومن الضرورى أن نعرف القبائل التى كانت تعيش فيهـا ، وميول كل منها سياسية ودينية ، لأن الدولة الفاطمية قامت على أساس التكوين القبلى واعتمدت على تأييد ومناصرة القبائل لها .

يرجع علماء الأنساب القبائل البربرية الى أصلين كبيرين هما : البرانس والبتر وكل من هـذين يتفرع بدوره الى شعب تنقسـم الى بطون متعددة :

فشـعوب البرانس يجمعها سـبعة أجذام هى : يزداجة ، ومصمودة ، وأوربة ، وعجيسـة ، وكتامة ، وصنهاجة ، وأوريغة ، ويضيف بعض العلماء الى هؤلاء : لمطة ، وهكورة ، وجزولة .

أما البتر فينحصرون فى أجذمة أربعة هى : نفوسة ، وضربة ، وأداسة ، ونبوا الأكبر[٦] .

وليس هناك تناقض بين من يقسـم البربر الى قبائل عدة ، ويذكرها مفصلة[٧] وبين المؤرخين الذين يكتفون بذكر الأصول فحسب : ذلك لأن البربر كانت أصولا كبرى ، تفرعت الى شعب ، انقسمت بدورها الى بطون ، فمثلا هوارة انحدت من أوريغة ، وقبيلة مليلة انحدرت من هوارة ، وانحدرت غمارة من مصمودة ، وتتفرع من قبيلة « لوا » نفزاوة ولواته ، ومن لواته سدراته ... وهكذا[٨] .

---

(٥) انظر : دبوز : تاريخ المغرب الكبير جـ ١ ص ١٠ .

(٦) انظر : ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٨٩ ، ص ٩٠ طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

(٧) انظر مثلا : الشريف الادريسي : المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ص ٥٧ ، ٨٥ طبع ليدن سنة ١٨٦٤ ، ١٨٦٦ .

(٨) انظر : ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٩٠ ، ٩١ ، سعد زغلول عبـد الحميـد : تاريخ المغرب العـربى ص ٣٠ ، ٣١ دار المعـارف سـنة ١٩٦٥ م .

ونأخذ الآن فى بيان مواطن أهم القبائل البربرية :

مكناســــــة :

هى فرع من زنانة ، وكانت تسكن على وادى ملوية من لدن أعلاه فى سجلماسة الى مصبه فى البحر ، وما بين ذلك من نواحى ملوية وكرسيف ومليله وما لليها من التلول بنواحى تازا وتسول[9] كما كانت تسكن حول سردنة وتلمســـان ، بالاضافة الى احتلالها قرب مدينة « أدنة » ويحتلون كذلك قلاعا كثيرة فى جبل أوراس مع هوارة[10] .

ويذكر « الاصطخرى » أن نفزة ومكناسة موطنهما الأندلس بين الجلالقة وقرطبة[11] ويبدو أن هناك فروعا من هذه القبيلة ، عاشت فى المغرب الأقصى ، فالبكرى يذكر أنه حوالى مدينة فاس من البربر ، هوارة وأورية ومكناسة ، فوق مساكن لهم فى « طبنة » يشاركون فيهـــا العرب وهوارة ، وجبـــل أوراس الذى يطل على طبنة وعلى ما وراءها تقطنه قبائل من مكناسة وأخرى من هوارة ، وهم يدينون بالمذهب الاباضى ، كما تقطن زنانة ومكناسة فى جوفى « تيهرت » الحـــديثة[12] .

ويمكن القول بأنه على طول وادى ملوية فيما بين المغرب الأوسط والأقصى كانت تنتشر قبيلة مكناسة .

---

(٩) انظر : ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٢٩ ، ١٣٤ .

(١٠) انظر : اليعقوبى : صفة المغرب ص ٦ ، ١٧ ، ١٨ طبع أوربا بدون تاريخ ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٤٤ ط دى سلان : باريس ٩١١ .

(١١) انظر : المسالك والممالك ص ٣٦ تحقيق محمد جابر الحينى ـ القـــاهرة ١٩٦١ .

(١٢) انظر : البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٦٧ ، ١١٧ ، ١٤٤

هـــــوارة :

أما هوارة فكانت تسكن أول الفتح فى نواحى طرابلس وما يليها من برقة كما ان منهم من قطع الرمل الى بلاد القفر[١٣] فى اتجاه السودان ويشتركون مع غيرهم من البربر فى سكن جبل « أوراس »[١٤] وهم ومديونة يعيشون فى المنطقة التى تسمى « شنتبرية »[١٥][١٦] ومنهم من يقيم قبلى تيهرت الحديثة ، كما أن منهم فروعا تقيم بالقرب من « أصيلة » وحول مدينة « فاس » وحوالى طبنة ، وبالقرب من تلمسان ، والذين يسكنون الأوراس منهم من الاباضيين[١٧] .

وكانت هــذه القبيلة قد انقسمت الى قسمين عند نزولها بلاد المغرب ، نزل أحدهما بجبل نفوسة ، ونزل الآخر بالمغرب الأقصى[١٨]، ولعل هــذا هو سر توزعهم بين المغربين الأدنى والأقصى .

لواتـــــه :

توجد جبال متصلة من الشرق الى الغرب فى قبلة قابس وطرابلس، أولها من الناحية الغربية جبل يسمى « دمر » وتسكنه أمم من لواته من جانبه الغربى[١٩] ، وهــذا الجبل غربى « برقة » وبطون لواته

---

(١٣) انظر : ابن حوقل : صورة الأرض « المسالك والممالك » ص ٧١ طبع بيروت ١٩٦٤ ، وابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٤١ .

(١٤) انظر : اليعقوبى : صفة المغرب ص ١١

(١٥) انظر : الاصطخرى : المسالك والممالك : ٣٦

(١٦) مليلة : مدينة بالمغرب قريبة من سبتة على ساحل البحر ، سردنة : الموجود سردانية : منتره بافريقية قرب جلولا ، ادنة : مدينة بالمغرب قرب المسيلة ، رطبنه : بلدة فى طرف افريقية مما يلى المغرب ، شنتريه : مدية بالأندلس شرقى قرطبة .

(١٧) انظر : البكرى : المغــرب ص : ٦٧ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، وابن عـذارى : البيــان المغــرب جـ ١ ص ٢٣٥ من طبعة بروفنسال .

(١٨) انظر : الشريف الادريسى : المغرب ص ٥٧ .

(١٩) انظر : ابن خلدون : العبرة جـ ٦ ص ١٤٢ ، ١٤٣

التى تسكنه هى : زكودة ، ومغرطة وزنارة ، وهناك مدينة على البحر الأبيض بينها وبين طرابلس خمسة أيام ، يسكنها البربر من زناتة ولواته[٢٠] ، ومن مدينة « برقة » الى فحص قرب الاسكندرية تسكن لواته ، وحوالى مدينة برقة نفسها فروع منهم ، وحوالى مدينة « قابس » بالقرب من طرابلس ، تعيش قبائل من بينها لواته ، و « أصيلة » غربى طنجة ، و « أودغست » ، وحصن « ايزمامة »[٢١] بالقرب من تلمسان ، كلها تعتبر « لواته » من سكانها[٢٢] وكان بجبل « أوراس » أمة عظيمة منهم ، واستمروا بها الى عهد ابن خلدون مع قبائل من هولرة وكتامة[٢٣] .

ويمكننا أن نقول انه فى النواحى الشرقية — وخاصة على حدود مصر — كانت توجد قبائل لواته ، وأن أراضيهم كانت تمتد من حدود مصر الى طرابلس ، وجدير بالذكر أن « نفزاوة » التى سميت باسمها المناطق الجنوبية من بلاد تونس ، وما يتاخمها من بلاد طرابلس شرقا ، وصحراء قسنطينة غربا ، فرع من لواته ، ومن نفزاوة تفرعت ورفجومة وسدرلته التى أعطت اسمها للمنطقة الواقعة فى جنوب « وارجلا »[٢٤] .

---

(٢٠) انظر : اليعقوبى : صفة المغرب ص ٣ ، ٤ ، ١٧ .

(٢١) أصيلة : بلد بالاندلس قرب طنجة ، اودغست : مدينة بينها وبين سجلماسة شهرين ، ايزمامة : حصن معمور قرب تيهرت .

(٢٢) انظر : البكرى : المغرب ص ٣ ، ٥ ، ١٧ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٤٣ ، ١٥٨ ، وابن عذارى : البيان المغرب ص ٢٣٥ من طبعة بروفنسال .

(٢٣) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٧ .

(٢٤) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٣٦ .

نفوســـــــة :

فى الجانب الشرقى من جبل « دمر » السابق ذكره ، تسكن أمم من نفوســـة ، وهناك جبل يقع فى طول الجبل السابق شرقا وفى اقليم طرابلس ، وقد سمى باسم نفوسة لأنها تسكنه[٢٥] ، وبين ذلك الجبل وبين طرابلس ثلاثة أيام ، وأهله من الخوارج[٢٦] وتقطن « نفوسة » كذلك فى مدينــة « قابس » ــ بالقرب من طرابلس ــ مع لمــاية ولواته وزواغة وغيرهم ، كما يستوطنون مدينة « أودغست » ولواته وزناتة ونفزاوة[٢٧] .

ازداجــة ووزداجــة :

كانت كلتاهما تسكن « وهران » فى المغرب الأوسط ، واحتلت « وزداجة » منسنة تلى مدينة « باجة » البعيدة عن « القيروان » بمراحل ثلاث ، وهــؤلاء كانوا من الممتنعين على الأغالبــة فلم يؤدوا اليهم جــــزية[٢٨] .

صنهاجـــــة :

لقد كانت هــذه القبلية أوفر القبائل عددا لعهد ابن خلدون ، وصلت بطونها الى سبعين بطنا ، لا يكاد يخلو منها جبل ولا بسيط ، وكان لها ذكر فى الحروب وفى الخروج على الولاة ، وكانت مواطنها فيما بين المغرب الأوسط وافريقية[٢٩] ، وهنـــاك مدينة فى المغرب الأقصى اسمها « هاز » تسكنها زنانة ، وما يليها من مدن مساكن لصــنهاجة وزواوة ، وبلدة « الوسن » حول « تلمسان » تســكنها

---

(٢٥) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٤٣ ، وسعد زغلول . تاريخ المغرب العربى ص ٣٨ ، والبكرى : المغرب ص ٩ .
(٢٦) انظر : البكرى : المغرب ص ١٧ ، ١٥٨ .
(٢٧) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٤٤ ، واليعقوبى . صفة المغرب ٨٠ .
(٢٨) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٥٢ .
(٢٩) انظر : اليعقوبى : صفة المغرب : ص ١٣ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢

« صنهاجة » مع غيرها من البربر ، ومدينة سجلماسه والسوس الأقصى من السويس الى بلد أغمات — مساكن لصنهاجه ، وفى الصحراء المتجهة الى بلاد السودان — وعلى امتداد خمسين مرحلة — ابنية كلها لاقوام من صنهاجه[30] وهناك جبل اسمه « الدرقة »[30] تعيش فيه صنهاجه ، وتمتنع به اذا ارادت المخالفة على الملوك ، وبالقرب من قسنة « ابن خروب » بلد لصنهاجة ، وبالقرب من اصيلة قرية دارة لصنهاجه ، والطريق من تامدلت الى اودغست ، فيه مساكن كثيرة لصنهاجه ، ويشاركون غيرهم من البربر فى سكنى جبل درن[31] .

وهذا كله يعنى أن « صنهاجة » كانت تقطن المنطقة الجبلية الممتدة من جنوب بجاية ، الى جنوب مدينة الجزائر ، والتى يسميها الفرنسيون منطقة القبائل الكبرى ، وبجانب ذلك استوطنت جماعة منهم بلاد المغرب الاقصى فى جبال درن الشرقيه (الاطلس الوسطى) . وهؤلاء صنهاجة الجيل الثالث كما يطلق عليهم ابن خلدون[32] .

كتامـــــة :

هـذه القبيلة لها أهمية تاريخية ، لأنها هى التى أقامت الدوله الفاطمية بجهودها ، وكانت مواطنها فى العهد الأول للاسلام من أرياف «قسنطينة» التىتخوم «بجاية» غربا الى جبل «اوراس» من ناحية القبلة (جنوبا) وكان بهذه المنطقة ديارهم المشهورة مثل جبل ايكجان وسطيف ، وباغاية ، وبلزمة ، وتيكست ، وقسنطينة وغيرها . وبعد انتقالهم الى مصر بقيت لهم بقايا فى جبل أوراس وقلعته وهضابه ، ومن كتامة كذلك من سكن المغرب الأقصى وبناحية مراكش .

---

(٣٠) اغمات : مدينتان متقابلتان قرب مراكش ، الدرقة : جبل قرب سبتة تنبع منه انهار .

(٣١) انظر : البكرى : المغرب : صفحات ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ .

(٣٢) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٠٥ ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٤١ .

وتعتبر زواوة من كتامة — على أرجح الاقوال — ومواطنها متصلة بمواطنهم[٣٣] .

و «سطيف» مدينة كبيرة بين «تيهرت» وبين «القيروان» وسكانها « كتامة »[٣٤] و « قسنطينة » ومدينة « تانا فللت » يسكنهما اناس من كتامة ، وبالقرب من قلعة « ابن خروب » توجد بلد لصنهاجة بعدها قرى متصلة لكتامة ، ومدينة مرسى الدجاج — قرب اشير ، وقلعة ابن حروب — على مرحلة من طنجة — يسيم فيهما أقوام من كتامة ، وبعد قلعة لصنهاجة نجد مجموعة من القرى المتصلة لكتامة ، وقرية « الكنيسة » بالقرب من سبتة ، ووادي « مغار » ومدينة افتس[٣٥] على نهر «واولكس» ، كلها لكتامة[٣٦] ، وعلى مدينة جيجل جبل تسكنه كتامة وغيرها من القبائل[٣٧] ، ويقرب « سطيف » جبل « ايججان » وهو حصن حصين ومعقل منيع لكتامة وتمتد عمارتها فيه الى ان تجاوز أرض القل وبونه ، كذلك قرية النهراوين ، ودكمة ، الغالب عليهما كتامـــــة[٣٨] .

وهذا كله يعنى فى النهاية أن كتامة كانت تسكن المغرب الأوسط مع صـــنهاجة ، وتحتل المنطقة ما بين مدينتى بجاية وقســـنطينه[٣٩] اى انها تحتل تلك المنطقـــة التى يسميها الفرنسيون اليوم منطقـــة القبائل الصغرى ، وكانت مساكن صنهاجة الى الغرب من مساكنهم[٤٠] .

---

(٣٣) المرجع السابق ص ١٤٨ — ١٥١

(٣٤) انظر : الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٢٤ ، ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٣ .

(٣٥) تامدلت : بلد بالمغرب شرقى لمطة ، باغاية : مدينة كبيرة فى اقصى المغرب ، بلزمة : حصن معمور قرب القيروان ، وادى مغار ، وافتس : كلاهما قرب سبتة .

(٣٧) انظر : الاستبصار لمجهول ص ١٢٨ تحقيق سعد زغلول — اسكندرية ١٩٥٨ ، الشريف الادريسى : صفة المغرب ص ٨٥ ، ١٢٠ .

(٣٨) انظر : الشريف الادريسى : صفة المغرب ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٠ ، وعن مواطن كتامة ، انظر كذلك ابن حوقل : صورة الأرض : ص ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٣٩، ٤٠) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٤٠ .

لمطـه وكزولة وهســكورة :

تسكن هــذه القبائل في السوس وما يليه من بلاد الصحراء ، دائما يقيمون في البسائط من جبال درن[٤١] ، ويسمي « اليعقوبي » كزولة باسم « جزولة » ويذكر أنها تسكن قرب تلمسان حيث الجبل المتصل بالسوس قرب « تيهرت » ويقال لهذا الجبل « جزول » نسبة لهذه القبيلة لسكنها عليه ، وهذا الجبل يسميه أهل سوس « درن » ، ويســمى بتيهرت « جــزول » كمــا يطلق عليــه بالزاب اســم « أوراس »[٤٢] .

وتجاوز لمطة كزولة ، وكثيرا ما قامت بينهما المنازعات والحروب ، وأكثر أهل « لمطة » « ظواعن » ، أما هسكورة ، فمواطنهم هي جبالهم المتصــلة من درن الى تادلا من جانب الشرق ، والى درعة[٤٣] من جانب القبلة[٤٤] .

المصـــامدة :

المصامدة من أوفر القبائل عددا ، وهم فروع كثيرة أشــهرها برغواطه وغمارة ، وهم يقيمون في المغرب الأقصى وجبــال درن ، ويعرفون بأنهم أهل الجبال ، الا أن هناك عددا قليلا منهم يسكنون البسائط ، وقد استمرت « غمارة » في مواطنها من الفتح الاسلامي الى عصر ابن خلــدون[٤٥] . ويســكن المصامدة كذلك حول مدينة « بونه » في الطريق الى القيروان ، وتشاركهم في هذه المنطقة أوربة

---

(٤١) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٠٣ .
(٤٢) انظر : اليعقوبي : صفة المغرب ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ .
(٤٣) القل : مرسى قرب الزيتونة ، بونة : مدينة حصينة بافريقية ، النهراوين : تقع قرب القيروان ، ودكمة كذلك ، تادلا : من جبال البربر بالمغــرب قرب تلمسان ، درعة : مدينة بالمغــرب بينها وبين سجلماسة اربعة فراســخ .
(٤٤) انظر : ابن خلدون : اعبر ج ٦ ص ٢٠٣ .

وغيرها ، كما يحتلون المسافة من سبتة الى طنجة • « وأغمات » بالقرب من جبل أوراس ، « وباغاية » تسكن فيهما مصمودة ، ويعتبر « البكرى » كتامة من فروعها الكبرى[٤٦] •

وينزل المصامدة كذلك فى المغرب الأقصى ، ويعمرون بلاده منذ أوائل الهجرة البربرية[٤٧] ويسكن الى جانبهم فى المغرب الأقصى أوربة وصنهاجة ومضغرة ، لكن هؤلاء يسكنون الجبـــال ، وأوربة بالذات سكنت فى جنوب الريف (فاس) وبمساعدتهم قامت دولة الأدرارسة فى بلاد المغـــرب[٤٨] •

بالاضافة الى اقامتهم فى جنوب الريف فانهم يستوطنون حول مدينة بونة ــ قرب بسكرة ــ حيث توجد مســاكن لمصمودة وأوربة وغيرهما من البربر[٤٩] ، كذلك تشــارك « أوربة » غيرها فى سكنى جبل « وذشريس »[٥٠] •

يسكن المغرب الأقصى أمم من زناتة ، تقع منازلهم على نهر ملوية، وبالمغرب الوسط ديار لزناتة ، كانت من قبلهم مساكن غيرهم من البربر ثم احتلوهـــا هم وطردوا أصحابها منها[٥١] ، وهناك بلدة اســـمها « اجدابية » ــ بينها وبين برقة أربعة مراحل ــ أهلها من زناتة ، كما يشاركون فى سكنى بلدة « قابس » البعيدة عن « طرابلس » بمراحل خمس ، ومدينة « أوزكا » ــ بينها وبين تيهرت مراحل ثلاث الغالب عليها فخذ من زناتة ، ومن هـــذه المدينة الى المغـــرب حتى

---

(٤٥) انظر : العبر جـ ٦ ص ٢٠٦ ــ ٢١١
(٤٦) انظر : المغرب ص ١٠٤
(٤٧) انظر : الشريف الادريسى : صفة المغرب العربى ص ٥
(٤٨) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٤٢
(٤٩) انظر : الشريف الادريسى : صفة المغرب العربى ص ٨٥
(٥٠) انظر البكرى : المغرب ص ٥٥ ، ١١٧
(٥١) انظر ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠٢

سجلماسة مساكن لزناتة ومدينة « تيجس »[52] يسكن بها فرع من زناتة و « تلمسان » قاعدة المغرب الأوسط - بالقرب منها ديار لزناتة ، ويشاركون غيرهم فى استيطان مدينة « أودغست »[53] « ومطماطة » فرع من زناته ، وكانوا يسكنون بلاد الجريد وقد أطلق اسمهم على الجبل هناك .

ومجموعة قبائل نفوسة ، وهوارة ، ومطماطة ، وجراوة ، كلها فروع من زناتة البدوية التى ملأت المغرب الأوسط لعهد ابن خلدون .

ومضراوة فى جنوب الجزائر ، و « بنويفرن » الى الغرب منها وفى جنوب وهران وتلمسان ، ومغيلة فى الأقاليم الساحلية شرقى مصب وادى شلف ، وجنوبى « فاس » الى المغرب الأقصى ، ومديونة - جنوبى تلمسان - وكوميه - غرب وهران ، والى الغرب منها مطغرة ، هذه القبائل كلها تعتبر من زناته هى الأخرى ، وقد انتشرت فى المغرب الأقصى عن طريق وجدة وفارس وممر تازا[54] [55] .

مديونية ، مطماطة ، نفزاوة ، نفزة :

تحتل مديونة مع هوارة منطقة « شنتبرية »[56] وهناك - بالقرب من ايكجان - أرض تسمى « أرض القل » تجاورها مساكن لمديونية ، ، بالاضافة الى سكناهم فى بلاد المغرب الأقصى .

---

(٥٢) جبل ونشريس : بين مليانة وتلمسان من نواحى المغرب ، تيجس : مدينة حصينة قرب القيروان .

(٥٣) انظر : البكرى : المغرب صفحات ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ١٤٣ ١٥٨

(٥٤) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٣٩

(٥٥) وادى شلف : شلف : مدينة ونهر قرب أستر . وجدة : مدينة بينها وبين تلمسان أربع مراحل ، ممر تازا : موضع فى جبل يستخرج منه الذهب بالمغرب .

(٥٦) انظر : الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٦

وتسكن « مطماطة » فى جبل يسمى باسمها قرب القيروان • كما يعتبرون ببطونهم الكثيرة من أكثر سكان « تيهرت » فيقطنون جوف هذه المدينة مع زناتة ومكناسة[٥٧] ، ويشاركون غيرهم كذلك بالسكن فى « ونشريس » جنوب مليانه[٥٨] •

أما « نفزاوة » فيشتركون مع « نفوسة وبنى يفرن » وسواهم من البربر فى سكنى بسائط افريقية حتى طرابلس[٥٩] ولهم عدة مدن قرب القيروان يسكنونها مع غيرهم من البربر •

أما نفزة فتسكن الأندلس مع مكناسة فيما بين قرطبة والجلالقة[٦٠] ، ويسكن قسنطينة قبائل شتى من نفزة وغيرها ، أما حصن « ايزمامة » قرب « تلمسان » فمسكن لنفزاوة ولواته[٦١] •

نخلص من ذلك كله الى أن المغرب الأدنى كانت تسكنه « لواته » وكانت فى « برقة » حتى خليج « سرت الأكبر » فى طرابلس ، ومن هذا الخليج الى مدينة طرابلس لهوارة ، وتجاورها « نفوسة » فى غرب مدينة طرابلس وجنوبها ، كما جاورت أمم من زنانة « نفوسة » فى طرابلس وأن سكن معظمها المغرب الأوسط •

أما افريقية (تونس اليوم) فكان موطنا « لنفزاوة » من جنوب مدينة «الكاف» الى جنوب «قسيطلة» ، ومن نفزاوة «ورفجومة» التى كانت تقيم غرب مدينة « قابس » المجاورة لجبل أوراس •

أما الجزائر فمن « بجاية » فى الغرب الى « سكيكدة » فى الشرق حتى شمال أوراس فى الجبال — وهى منطقة نوميديا الوسطى

---

(٥٧) انظر : البكرى : المغرب ص ٦٦ ، ٦٧
(٥٨) انظر : الشريف الادريسى : صفة المغرب ص ٨٥
(٥٩) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٣
(٦٠) انظر : الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٦
(٦١) انظر : البكرى : المغرب ص ١٤٣

والغربية — فكانت مواطن كتامة ، ومن غرب بجاية الى شرق مدينة الجزائر — على طول الساحل — فلزواوة المرجح انتماؤها لكتامة ، ومن شرق مدينة الجزائر الى غرب مدينة مليانة الى المسيلة جنوبا ، مواطن صنهاجة ، كما سكنت كذلك شرقى « تيهرت » جهة مليانة وآمدية ، ومن مليانة شرقا الى وادى ملوية غربا ، مساكن زناتة ، وفى هذه البقاع « مطماطة » كذلك فى جبال « الونشريس » وفى غربى « تيهرت » كانت نفوسة وزواغة وغيرها ، وفى شمالها مطماطة وزناتة ومكناسة وغيرها وفى جنوبها لواته وهوارة ولماية وغيرها ، وفى جبال أوراس كذلك ، نجد لواته وهوارة ومحراوة من زناتة ، وكانت كلها تسكن شرقى تيهرت فى شمال « الأوراس » وجنوبه .

وأما المغرب الأقصى ففى شماله غمارة ومضعرة وأوربة — فى شمال فاس الحالية ، وأما وسط المغرب الأقصى وجنوبه بجبال درن فمساكن المصامدة ، وفى صحراء المغرب الأقصى نجد صنهاجة أيضا ، كما نجدها فى الغرب من صحراء المغرب الأوسط ، ونجد فيها كذلك هوارة وزناتة . وعلى العموم فاننا نجد البرانس — غالبا — فى سواحل بلاد المغرب ، والبتر فى وسط المغرب الكبير وجنوبه[٦٢] ، وما تزال سلالات هذه القبائل البربرية تقيم فى أماكن مختلفة من البلاد المغربية حتى الآن[٦٣] .

هذه أهم القبائل البربرية ، وتلك مواطنها التى أقامت فيها ، ومع ذلك فينبغى أن يلاحظ أن هذا التحديد الجغرافى لمواطن تلك القبائل ، ليس دقيقا تمام الدقة ، ذلك لأن طبيعتها البربرية كانت تجعل انتقالها من مكان لآخر سهلا وميسورا ، كما كانت تقوم بينها

---

(٦٢) انظر : ديوز : تاريخ المغرب الكبير ج ١ ص ٣٨ وما بعدها ، ج ٣ ص ٢٤٥

(٦٣) انظر : من بقى من البربر وتفصيل مواطنهم الآن فى :
أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ص ١٨٨ وما بعدها . القاهرة سنة ١٩٦٣ طبعة ثانية .

منازعات وحروب يترتب عليها أن قبيلة « ما » تهجر منطقتها وتبحث لنفسها عن مكان آخر تعيش فيه نتيجة لتغلب الأخرى عليها وسيطرتها على موطنها ، أضف لهذا أن المصادر التى بين أيدينا لا تتخذ طابعا واضحا فى حديثها عن هذه القبائل وعن مواطنها ، وانما كان يأتى ذكر موطن القبيلة عرضا فى الكتب الجغرافية عند حديثها عن المنطقة الجغرافية سكن تلك القبيلة •

وحقيقة أفراد ابن خلدون فصولا لهذه القبائل ، وتحدث عنها وعن أماكنها وتنقلاتها فى الجزئين السادس والسابع من كتابه « العبر » ، ولكن يلاحظ أن هذا المؤرخ يتحدث عن عنصره هو ، وعن القبائل ومقر كل منها فى القرن الثامن الهجرى ، بيد أنه من ناحية أخرى ، فان اتفاق أمثال الاصطخرى واليعقوبى معه فى تحديد موطن القبائل التى اشتركا فى عرضها والحديث عنها ، يجعل تحديده يصلح — ولو بصفة عامة — للقرنين الثالث والرابع الهجريين ، اللذين شهدا محاولات الفاطميين اقامة دولتهم فى بلاد المغرب ، ثم شهدا نشأة تلك الدولة واستقرارها فى تلك البلاد •

وانما قلت «بصفة عامة» لأن هجرة بنى هلال فى القرن الخامس الهجرى الى المغرب ، ومحاربتها لقبائله ، تسببت فى تغيير عدد كبير من مواطن القبائل فوق الخريطة المغربية •

وبعــد :

فقد آن أن نقدم صورة سريعة لبلاد المغرب من الناحية السياسية فى الفترة التى سبقت قيام الدولة الفاطمية بها ، حتى يكون تصورنا لمسرح الحوادث تاما وشاملا لمختلف النواحى •

« الحالة السياسية فى بلاد المغرب قبيل قيام الدولة الفاطمية »

اذا أردنا أن نختار نقطة نبدأ منها هذه الجزئية ، فيبدو أن سنة ٢٧٠ هـ هى أنسب نقطة لتلك البداية ، ذلك أن بعض الأخبار تدل على أن الدعوة الشيعية ، قد عرفت طريقها الى بلاد المغرب وافريقية بعد هذه السنة ، وكان ذلك على يد الداعيين « الحلوانى وأبى سفيان » اللذين أرسلهما « ابن حوشب » ــ داعى المين ــ حوالى العام المشار اليه ، ليقوما بنشر الدعوة الشيعية فى البلاد المغربية[1] ع وقد أحرزا نجاحا فى مهمتهما ومالت قلوب أهل تلك النواحى اليهما[2] •

وكان يتولى على افريقيــة فى تلك الفترة التى انتقلت فيهــا الدعوة الشيعية اليها « ابراهيم بن أحمد الأغلبى » (٢٦١ : ٢٨٩ هـ)، تولى حكم هــذه البلاد واليا عن الخلافة العباسية فى بغداد •

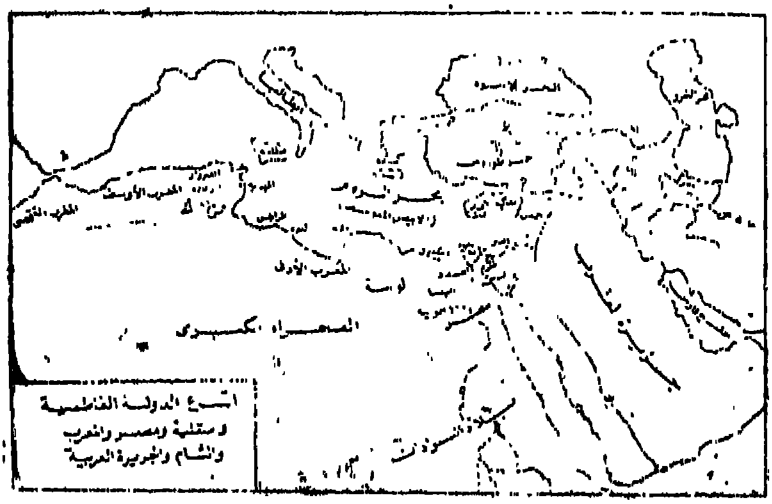
وقد قدمت لنا المراجع التاريخية صورتين متناقضتين لسـيرة هــذا الوالى وحالة البلاد أثناء حكمه ، فالبعض يصفه بأنه كان مجاهدا عادلا حازما ذا فطنة ، بلغت الامارة الأغلبية أوج مجدها ورقيها على أيامه[3] ، بينما يقدم له البعض الآخر صورة مضادة ، فيصفه بالجور

---

(١) انظر : حسن ابراهيم : عبيد الله المهــدى ص ٤٥ طبــع القاهــرة سـنة ١٩٤٧

(٢) انظر : النويرى : نهــاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ٢٤ مخطوط مصــور بدار الكتب المصرية •

(٣) انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ١٠١ ، حوادث سنة ٢٦١ هـ طبع بولاق بدون تاريخ ، ابن أبى دينار : المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ص ٤٩ ، ٥٠ طبع تونس سـنة ١٢٨٦ هـ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٠٣ ، ص ٢٠٤ ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٣ ص ١٦٠ من الطبعة السابعة ـ القاهرة سنة ١٩٦٥ ، حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصـة تاريخ تونس ص ٧٢ من الطبعـة الثالثة طبع تونس سـنة ١٣٧٣ هـ •


اتساع الدولة الفاطمية
وصقلية ومصر والمغرب
والشام والجزيرة العربية
البحر الأسود
بحر الروم
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
المغرب الأدنى
الصحراء الكبرى

وسفك الدماء ، والقسـوة والاستبداد ، وانعدام المعاملة الحسنة بينه وبين رعيته بل بينه وبين أفراد أسرته بل وبين أبنائه أنفسهم ، والشيء الذى سبب غضب القبائل وثورتها عليه ، وظهور حركات التمرد عليه فى جهات متعددة من البلاد [٤] .

وقد ترك هـذا الوضع السيء آثاره على اقتصاديات البلاد ، فاشـتد القحط وغلت الأسـعار ، حتى بيع قفيز القمح ــ والقفيز مقدار أردب وربع بالمصرى ــ بثمانية دنانير وهلك الناس وأكل بعضهم بعضـا [٥] ، وكل هـذا جعل الناس يجأرون بالشكوى من واليهم الى « المعتضد » الخليفة العباسى (٢٧٩ ــ ٢٨٩ هـ) ، فعزله عن افريقية وولى عليها ابنه أبا العباس [٦] .

ويظهر أن سر اختلاف المؤرخين فى وصف سيرة ذلك الوالى ، مرده أن شخصيته مرت بمراحل مختلفة ، ولم تكن على نسـق واحد فى مختلف مراحل حياتها ويمكننا أن نميز بين مراحل ثلاث فى سيرته :

(أ) سيرته قبل تولية الحكم وخلال السبع سنين الأولى منه .

(ب) سيرته بعد ذلك والى عزل « المعتضـد » له .

(جـ) سيرته فى السنين الأخيرة من عمره وحتى وفاته .

وقد كان فى المرحلة الأولى خيرا ، حسن السيرة ، محبا للشعب ، حتى أنه ارتضاه لحكمه . وحمله على الحنث فى خمسين يمينا ، كان قد أقسمها الا ينتزع الحكم من أولاد أخيـه .

---

(٤) انظر صورا من ذلك فى النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ورقة ٣٦ ، ٣٧ ، ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى اخبار المغرب، جـ ١ من ص ١١٣ ــ ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ طبعـة ليدن سـنة ١٨٤٨ بتحقيق « دوزى » .

(٥) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ ورقة ٣٦ ، وابن عـذارى : البيـان المغرب جـ ١ ص ١١١

(٦) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ورقة ٣٨

وفى الثانية ساء حكمه ، وحرص على جميع الأموال ، وأخذ يقتل خواصه وأصحابه ، وكان يزداد سوءا فى كل سنة عن سابقتها[٧] .

وفى المرحلة الثالثة ، أحس بكراهية الناس له ، وتظلمهم منه ، ونظر حواليه فوجد أن الدعوة الشيعية قد استفادت من حكمه الظالم ، وأخذت تنتشر بين القبائل ، وأضحى لها صوت مسموع بفضل « كتامة » والمؤمنين بها ، لهذا كله أظهر التوبة وأخذ يرضى العامة ويستميل الخاصة ، وقرب العلماء اليه ، وقصد الحج والجهاد[٨] .

وقد تم عزل ذلك الوالى سنة ٢٨٨ هـ بأمر من الخلافة العباسية فى بغداد ، وتولى مكانه ابنه « أبو العباس عبد الله بن ابراهيم ابن الأغلب » .

وتتفق المصادر التاريخية على أنه كان عادلا ، برا برعيته ، مجاهدا أقام حكمه على أساس من الشورى ، وأحاط نفسه بالعلماء يستفتيهم ويسترشد بهم[٩] بيد أن حياة ذلك الوالى لم تدم طويلا ، فقد كان ضحية مؤامرة دبرها نائبه على « صقلية » ابنه (زيادة الله) كان نتيجتها أن ثلاثة من الخدم وثبوا بأبى العباس وقطعوا رأسه وهو نائم سنة ٢٩٠ هـ بعد حكم لم يدم أكثر من سنة واحدة فقط .

---

(٧) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٢٦ ، النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٢ ورقة ٣٨

(٨) انظر : تفصيل ذلك فى ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ١٠١ حوادث سنة ٢٦١هـ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ٧٢

(٩) عن سيرة ذلك الوالى : انظر مثلا :
العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان جـ ١٤ ص ١٥٥ مخطوط بدار الكتب المصرية ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ورقة ٤١ ، ابن الأثير : الكامل : جـ ٧ ص ١٨٦ حوادث سنة ٢٨٩ هـ .

وقد تولى ابنه « زيادة الله بن أبى العباس » بعد وفاته ، فأحاط نفسه بالندماء والمضحكين ، ولازم الشرب وعكف على الملذات ، وقتل اخوته وبنى عمومته وذوى قرباه حتى يأمن منازعتهم لم فى الحكم[١٠] ، وبالجملة فقد كان سيىء السيرة فى الرعية ومع الجند منصرفا لارضاء ملذاته وشهواته •

وهكذا كانت حالة افريقية من السوء ، فى الفترة التى عمل الشيعه فيها على نشر دعوتهم فى هذه المنطقة ، فالحكم ظالم مستبد ، والأسرة الحاكمة نفسها ، يمزقها الخلاف ، وتلعب بها الأسواء والنزوات ، ويتعرض افرادها لمؤامرات بعضهم ضد البعض الاخر • والشعب متذمر مستماء ، يؤلمه انصراف حكامه عنه واهمالهم لشئونه وتعرضه للمسغبة والجوع من جراء سوء الحالة الاقتصادية فى البلاد •

حقيقة مرت بالبلاد حقب كانت ترى فيها العدل ، وتنعم بالأمن والهدوء ، لكنها كانت بمثابة البريق يلتمع لحظة فيستلفت النظر ويأخذ باللب ، ثم لا يلبث أن ينتشر الظلام مرة ثانية ، ويعم الأفق ويخيم على البلاد ، ولهذا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان البلاد كانت حالتها سيئة بصفة عامة ، وأن ذلك ساعد الدعوة الشيعة على النجاح ، فراجت سوقها وكثر أنصارها يوما من بعد يوم ، ودخل فيها الكثيرون من البربر ، وقد تمكنت بهم من تكوين جيش التقى بجيش « لابن غالب » جمع فيه كل ما انتهت اليه طاقته ، وزوده بكل ما قدر عليه من المال والسلاح ، ومع ذلك انهزم أمام جند الشيعة ، ولما علم بذلك « زيادة الله » حمل ما خف حمله من مال ومتاع وفر هاربا الى المشرق •

---

(١٠) انظر : العينى : عقد الجمان ج ١٤ ص ١٥٥ ، النويرى: نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٤١ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص١٣٠

وظلت البلاد تتساقط فى يد الشيعة واحدة بعـد الأخرى ، حتى تمكنوا من دخول عاصمة الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ كما سيأتى .

وبسقوط « رقادة » العاصمة ، سقط حكم الأغالبة لافريقيـة بعد أن استمر مائة واثنى عشرة سنة ، منذ أن ولى الخليفة العباسى « هارون الرشيد » (١٧٠ ــ ١٩٣ هـ) بحكم هذه البلاد « ابراهيم ابن الأغلب » سـنة ١٨٤ هـ الى أن سـقطت فى يـد الفاطميين سـنة ٢٩٦ هـ .

دولة الرسـتميين فى تيهرت :

لم تكن دولة الأغالبة تحكم وحدهـا فى بلاد المغرب خلال الفترة التى نعرض لهـا ، وانما كانت هنـاك كذلك الدولة التى أسسهـا « بنو رسـتم » فى « تيهرت » على أسـاس من مبادىء الخوارج الاباضـيين .

فقد نجح الخوارج فى الدعاية لمذهبهم ونشره بين القبائل ، وخاصة فى منطقة المغرب الأوسط ، حيث أتيحت عوامل هيأت لذلك النجاح ، مما دفع « عبد الرحمن بن رستم » الى الهجرة للمغرب الأوسط حيث قبائل لمـاية ولواته وهوارة ونفوسـة ومزاته[11] التى تعتنق المذهب الخارجى الأباضى عن يقين . ولمـا وصل « ابن رستم » الى هؤلاء الأتباع رحبوا به ، وطالبوه بانشـاء دولة تقوم على أساس من الدين وهدى القرآن الكريم والسنة النبوية ، ويتساوى فى ظلها كل المؤمنين ، وقد اختار رؤسـاء القبائل « ابن رستم » لامامة هذه الدولة فاستجاب بعد تمنع ، وبعد قيـام قاعدة الدولة الجديدة تمثلت فى مدينة « تيهرت الحديثة » وكان قيام تلك الدولة سنة ١٦٠ هـ[12] .

---

(١١) انظر : ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٢١ .

(١٢) انظر تفصيل ذلك فى دبوز : تاريخ المغرب الكبير جـ ٣ من ص ٢٥١ ــ ٢٩٥ طبع القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

وعند ظهور الدعوة الشيعية فى بلاد المغرب كان امام الرستميين هو : « أبو اليقظان محمد بن أفلح » ، وكان حاكما قديرا ، تمكن بفضل علمه وورعه من توحيد صفوف الخوارج الأباضيين ، وجمعهم حوله ، فظلوا قوة لا يعرف الانقســام سبيله اليها الى ان توفى ذلك الامام ســنة ٢٨١ هـ[١٣] .

وتعتبر نهاية ذلك الامام بداية اضمحلال تلك الدولة ، ذلك لأن البيت الحاكم سيتعرض للفرقة والانقســام ، وسيخرج أفراده على بعض ، وسيقيمون المؤامرات بعضهم ضد البعض الآخر ، وسينحاز أعضاء مجلس الشورى لفريق ضد فريق ، بل ستؤلف الجيوش ، ويتحارب أبناء الأسرة الواحدة ، وقد ماجت البــلاد بتيارات الفتن والحسد والتنافس ، وأثر ذلك على مجريات الأحداث فى الدولة ، فتنكرت لمبادئها ، وتولى واحد عليها بالسيف لا طبقا لاختيار الأمة ، وقامت فى البلاد ثورات متعددة وعبثت بالشعب وإتحاده العصبيات القومية والمذهبيــة ، وعفت بهيبة الحكــومة المنافسات السياســية والاختلافات الداخلية ، تلك حال الدولة الرســمية فى الوقت الذى ظهر فيه الدعوة الشيعية بكتامة ، وقضت على دولة الأغالبة[١٤] .

وكان « الشيعى » قد سيطر على منطقة الزاب كلها ، واستفحل أمره وقرب من ديار الرستميين ، وبعدها فرغ من الأغالبة قصــد « تيهرت » فخرج اليه أهلها ووعدوه بتسليم المدينة ، كما خرج اليه البيت الحاكم بجميع أفراده واستقبله مسالمــا « وهكذا استولى أبو عبد الله الشيعى على دولة « تيهرت » لأنه وجد أمة بلا حكومة ، وحكومة بلا أمة »[١٥] .

---

(١٣) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٣٨٨ ــ ٣٩٤

(١٤) انظر : مبارك بن محمد بن الهلالى الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٣٧ طبع الجزائر سنة ١٣٥٠ هـ .

(١٥) المرجع السابق : نفس الجزء والموضع .

ولكن ماذا كانت حدود تلك الدولة ؟ .

القدامى من المؤرخين لا يذكرون أكثر من أنها حكمت « تيهرت » وما حولها . أما المحدثون فيحددونها — اعتمادا على تنقلات أئمتها — فى جميع مسارح الرعى للقبائل التى ساندت الدعوة الخارجية ، والتى تنتشر جنوبا فى كل بلاد الزاب ، أى كل الأقاليم والقرى التى كانت تعتنق المذهب الخارجى ، وبذلك يكون امتدادها ما بين جبل نفوسة شرقا وتيهرت غربا(١٦) .

أما حدها من الشمال الى الجنوب ، فمن البحر الأبيض المتوسط الى الصحراء الكبرى الى ما بعد ورجلان واغدامس وفزان(١٧) .

ويعنى ذلك أنها شملت « أغلب عمالة » (محافظة) الجزائر ، وأغلب عمالة « وهران » ، وعلى جبال أوراس ، وعلى نصف افريقية الجنوبى ، وعلى طرابلس الى الصحراء الكبرى ما عدا ما بين طرابلس والبحر »(١٨) .

ذلك هو أقصى اتساع وصلت اليه تلك الدولة فى عهد امامها الثانى « عبد الوهاب » ، وان كان لا يعنى عدم تغير حدودها — حسب الظروف الطبيعية والسياسية التى خضعت لها — لأنها كانت دولة ذات طابع بدوى صحراوى يتميز بعدم الاستقرار .

دولة بنى واسول بسجلماسة :

الى جانب دولة الأغالبة التى حكمت فى المغرب الأدنى ، ودولة الرستميين التى سيطرت على المغرب الأوسط وجزء من الأدنى ، كانت هناك دولة « بنى واسول » التى قامت فى جنوب المغرب الأقصى .

---

(١٦) سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .
(١٧) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٥١٧ .
(١٨) انظر : نفسه وانظر تفصيل الحدود فيه ص ٥١٥ وما بعدها .

ذلك أن قبيلة « مكناســة » كانت تدين بمذهب الصــفرية من الخوارج ، وقد اجتمع أربعون ألفا على هذا المذهب ، وولوا عليهم خارجيا ســودانيا وبايعوه بامامتهم ، وأنشأوا مدينة « سجلماسة » لتكون حاضرة لدولتهم سنة ١٤٠ هـ ، وبعد فترة نقموا على رئيس دولتهم وخلعوه ، وولوا عليهم « أبا القاسم سمكو بن واسول » الذى كان اباضيا صفريا وخطب فى عمله للمنصور (١٣٦ هـ – ١٥٨ هـ) والمهدى (١٥٨ هـ – ١٦٩ هـ) من بنى العباس(١٩) .

وكان يحكم فى هــذه الدولة قبيل الدولة الفاطمية « المنتصر بن اليســع الملقب بمدرار »(٢٠) ، ولم يذكر المؤرخون شــيئا عن حكمه وحالة البلاد فى أيامه ، فيما عدا أنه هو الذى وضع المهدى وابنه أبا القاسم فى ســجنه « بسجلماسة » حين طلب الخليفــة العباسى « المعتضد » ذلك منه ، فقد كان المهدى هو الامام الذى يعمل الحسين الشيعى باسمه ويدعو اليه .

ويبدو أن الفترة التى حكم فيها « المنتصر بن اليسع » كانت تتميز بالاستقرار والهدوء فقد حدثتنا المصادر عن اضطرابات فى عهد سابقيه ، وعن خلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، نشأ عنها صراع مسلح ، ونجح المنتصر بن اليسع « حين تولى فى اعادة الســكينة للبــلاد ، ولذا يغلب على الظن أنه حــكم بنجاح ، وكان من الممكن الا يتعرض الشيعى له – أو على الأقل يؤجل التعرض لدولته – لولا أنه سجن المهدى وابنه ، مما حمل الشيعى على التعجيل بالرحيل اليه ، ومخاطبته فى لين ، حتى ينقذ رقبة الامام الذى يعمل من أجله ، ويحميه من القتل .

---

(١٩) انظر : ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٥٥ ، والبكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٤٩ ، السلاوى : تاريخ المغرب الأقصى جـ ١ ص ٥٦ طبع المغرب سنة ١٣١٢ هـ .

(٢٠) انظر البــكرى : المغرب ص ١٥٠ ، الاستبصار لمجهــول ص ٢٠١ .

ومهما يكن من أمر ، فقد توجه « أبو عبد الله الشيعى » الى « سجلماسة » بعد استيلائه على « رقادة » وقد خرج اليه الوالى مع مكناســة فى جموع غفيرة تمكن من هزيمتها ، ثم اقتحم مدينة « سجلماسة » وأخرج المهـدى وابنه من محبسهما ، وأرســل الى المنتصر بن اليسع من أدركه وأتى به ، ثم ضربت عنقه سنة ٢٩٦ هـ(٢١) .

أما عن حدود تلك الدولة ، فقد ذكر القـدماء أنها كانت تحكم « سجلماسة » وما حولها ، ويحدد صاحب تاريخ المغرب الكبير الحدود الشـمالية لتلك الدولة ، بجنوب الأطلس الكبير فى جنوب المغـرب الأقصى ، ويقول انها تمتد جنوبا الى قلب الصحراء الكبرى ، وأن حكمها شمل منطقتى سجلماسة ودرعة(٢٢) .

أما « العمرى » فيذكر أن « المغرب الأقصى كله كان قد اجتمع للأدراسة ، وخطب لهم فيه بالخلافة ثم اقتطع منه بنو مدرار مملكة سجلماسة »(٢٣) .

وهـذه العبارة يفهم منها أن دولة الأدارسة قامت أولا ، ثم اقتطع « بنو واســول » بعض ممتلكاتها وأقاموا دولتهم عليهــا ، ولكن هذا يخالف الحقائق التاريخية ، ذلك أن كل المؤرخين ذكروا أن دولة « بنى واسول » قامت فى سجلماسة سنة ١٤٠ هـ ، وقامت دولة الأدارسة ١٧٢ هـ(٢٤) . ومعنى ذلك أن دولة بنى واسول أسبق فى الوجود من دولة الأدارسة ، ولذلك ربما كان الأقرب الى الصواب هو ما ذكره ابن خلدون(٢٥) من أن « ادريس الثانى » هو الذى قضى

---

(٢١) انظر مثلا : ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣١ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ١٦ ورقة ٣٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٥٦

(٢٢) دبوز : تاريخ المغرب الكبير جـ ٣ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

(٢٣) انظر : ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار جـ ٣ مجلد ١ ص ١٤١ مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢٤) انظر : السلاوى : تاريخ المغرب الأقصى جـ ١ ص ٦٨ .

(٢٥) انظر : ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣ ، ١٤ .

على الخوارج ، واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين « من لدن السوس الأقصى الى شلف » ، وبذلك تكون دولة « بنى واسول » قد انحصرت فى سجلماسة ويكون الأدارسة قد استولوا على جزء من ممالكها وليس العكس •

العلاقات بين الدول السابقة :

لقد كانت الروح السائدة بين دول المغرب الثلاث (الأغالبة والرستميين وبنى واسول) هى روح المودة والمسالمة وحسن الجوار ، فبرغم اختلاف مذاهبها سياسية ودينية ، الا أن أيا منها لم يقف موقف العداء من الأخرى ، كذلك على الرغم من كراهية العباسيين لهذه الدول ، آثروا المعيشة معها فى صفاء ، ولهذا نجد روح « روح بن حاتم » والى الخلافة العباسية فى بلاد المغرب ، يعقد معاهدة حسن جوار مع « ابن رستم » بمقتضاها ترك المغرب الأوسط للاباضيين ليعيشوا به فى صفاء ، ثم جاء « ابراهيم بن الأغلب » بعد ذلك ، واتفق مع « ابن رستم » على أن تكون السيادة على دواخل طرابلس للخوارج ، وأن تبقى له هو السيطرة على المدينة نفسها وعلى الأقاليم الساحلية(٢٦) •

وقد كانت الدولة الرستمية ودولة بنى واسول — وكلتاهما خارجية — تعايش الأخرى فى صفاء ومودة ، وكانت رعايا الدولة الرستمية تغشى سجلماسة ، ورعايا سجلماسة تغشى الدولة الرستمية(٢٧) •

وقد ذكر ابن خلدون أن « ابن واسول » كان اباضيا صفريا ، لأن العلاقة بين الصفريين والاباضيين كانت وثيقة للدرجة التى يصعب

---

(٢٦) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١١٣ ، ١٢١ ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٤٤٩ •

(٢٧) انظر : دبوز : تاريخ المغرب الكبير جـ ٣ ص ٤٤٠ •

معها التمييز بينهما[٢٨] ، وقد كانت بين الدولتين مصاهرة وعلاقات تجارية وثقافية وسياسية[٢٩] .

وهذه العلاقة الطيبة كانت قائمة كذلك بين سجلماسة والقيروان ، بل ان حاكم سجلماسة كان يتلقى التعليمات والأوامر من أمير بنى الأغلب أو الخليفة العباسى ، وعلى الرغم من قول بعض الباحثين ان ذلك لم يحدث الا متأخرا ، حين قبض « المنتصر بن اليسع » على « المهدى » بأمر الخليفة من بنى العباس ، الا اننا نجد المثل على ما كان من حسن فى العلاقة بين العباسيين وبنى واسول ، قائما منذ الأيام الأولى لحكمهم .

فقد ذكر ابن خلدون أن « سمكو بن واسول » الذى تولى سنة ١٥٥ هـ خطب فى عمله للمنصور والمهدى من بنى العباس[٣٠] ، وهذا يعنى أن العلاقات الحسنة بين الدولتين لم تحدث فى آخر أيام « بنى واسول » فقط وانما ترجع الى العهد المبكر من حكمهم .

أما بلاد المغرب الأقصى ، فقد كانت تحكم بواسطة ، الأدارسة ، الذين أسسوا لهم دولة هناك سنة ١٧٢ هـ بمساعدة قبيلة « أوربة » ولن يتعرض الفاطميون لهم خلال دور نشأة دولتهم هذا ، وانما ستقوم العلاقات بينهم فى دور التوسع الفاطمى ، ولذلك سنرجىء الحديث عنهم للآن .

بعد أن تم تصوير مسرح الحوادث ، وأخذنا فكرة عنه من نواحيه الجغرافية والقبلية والسياسية ، نتساءل :

---

(٢٨) انظر : ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣٠ ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٤٠١ .

(٢٩) انظر : دبوز : تاريخ المغرب الكبير جـ ٣ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

(٣٠) انظر : العبر جـ ٦ ص ١٣٠ .

فى أى قبيلة من القبائل السابق الحديث عنها انتشرت الدعوة الشيعية ، وأيها استجاب للداعية الفاطمى « أبى عبد الله الحسين الشيعى » وساعده على اقامة الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ، ومن منها ناصبه العداء وأعلنها حربا عليه ، وقبل ذلك كله ، ماذا عن الدعوة الشيعية نفسها ، وكيف ومتى انتقلت الى بلاد المغرب ، وماذا كانت وسائل الدعاة وطرقهم لنشر مبادئهم فى هذه المنطقة ، ولماذا اختاروها بالذات ؟ ذلك ما ستحاول الصفحات التالية الاجابة عنه ان شاء الله .

* * *

الدعوة الشيعية منذ البداية

وحتى قيام الدولة الفاطمية

يعتقد « الشيعة » أن « على بن أبى طالب » وذريته من بعده ، هم أصحاب الحق الشرعى فى حكم الدولة الاسلامية ، ويرون أن بنى أمية قد انتزعوا الخلافة من أصحاب الحق فيها ، ولذلك لم يعترفوا بحكمهم ، وولوا على أنفسهم أئمة من ذرية « على » ، وآمنو أن الواجب يملى عليهم أن يعملوا جاهدين ليجمعوا لهؤلاء بين الخلافة التى تمثل السلطة الزمنية ، والامامة التى تمثل السلطة الدينية الروحية[1] .

ولذلك ظل الشيعة يعلنون الثورات على الأمويين ، فقابلها هؤلاء بالعنف والقسوة ، مما جعل مشاعر الناس تتجه الى الشيعة وتعطف عليهم ، ثم تمكن العباسيون من استغلال هذا الشعور لصالحهم ، ونجحوا فى تجميع الناس حول مبدأ « الرضى من آل محمد » وأقاموا دولتهم ، لكن توليــة واحــدا من ذرية العباس الخــلافة ، أحنق العلويين ، ودفعهم الى القيــام بثورات تمكن خصومهم من القضاء عليها ، وكلما قام العلويون بثورة أخمدها العباسيون[2] .

---

(١) عن الفروق بين الامامة والخلافة انظر :
الريس : النظريات السياسية الاسلامية من ص : ٩٥ الى ١٢٢ الطبعة الرابعة . دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٧

(٢) عن حركات العلويين ضد العباسيين انظر :
ابن خلدون : العبر ج ٤ من ص ٢ الى ٣٠

وفوق ذلك كان الضعف قد أصاب الشيعة أنفسهم ، نتيجة انقسامهم الى فرق وطوائف متعددة وأدرك أحد أئمتهم وهو « اسماعيل ابن جعفر » أن حالتهم لا تمكنهم من مواجهة الحاكمين ، وأيقن أن الثورات العانية لن تمكنهم من تحقيق هدفهم فى حكم الدولة الاسلامية ، لذلك « عمل على تكوين جماعة ذات طابع خاص فى تفكيرها ونظامها الاجتماعى والدينى والسياسى ، تلك الجماعة هى الطائفة الاسماعيلية »[٣] التى نجحت فى تأسيس الدولة الفاطمية .

وكانت تقوم على مبادىء من أهمها التستر والمبالغة فى التمويه ، والاعتماد على حجة يعهد اليه بأمر الدعوة وتنظيمها ، ونشر الدعاة فى سائر جزائر الأرض . وقد اتخذ الامام الحجج ، وأمرهم أن يتسموا باسم الامام « فمن أخذ العهد على مستجيب سمى له أحد أولئك الحجب والحجج حتى يمضى الوهم اليه سترا على صاحب الأمر »[٤] .

وكان الدعاة فى البلاد المختلفة يختلفون فى ذكر الامام حتى لا ينكشف أمره ويقع فى قبضة العباسيين[٥] .

ومع ذلك فقد ظهر أمر هؤلاء الدعاة فى عهد الخليفة « المأمون » العباسى وكان الامام الذى يدعون اليه هو « عبيد الله بن محمد ابن اسماعيل » فتتبعه العباسيون وفتكوا بأسرته ، واضطر هو للهرب الى « سلمية » من أعمال حمص بالشام ، ولم يبح لاحد باسرار دعوته .

---

(٣) انظر : حسن ابراهيم : عبيد الله المهدى ص ٢١ .

(٤) انظر زهر المعانى ص ٥٤ من المنتخب فى The rise of the Fatimids تحقيق الشيال القاهرة ١٩٤٨

(٥) انظر المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٤ ، ٦٥ ، زهر المعانى ص ٥٤

ومنذ ذلك الحين (ويرجح أنه سنة ٢٠٦ هـ) «وسلمية» هى مركز الدعـوة الإسماعيلية ، ومنها يرسـل الدعاة لبث الدعـوة باسـم الامام الذى كانوا يحرصون على اخفاء اسمه[٦] •

وقد راجحت الدعوة رواجـا عظيما فى عهد الامام « الحسين ابن أحمد » وانتشرت فى اليمن على يد الداعية « ابن حوشب » وفى بلاد المغرب على يد الداعيين « الحلوانى وأبى سفيان »[٧] •

وقد ذكر ابن خلدون « أن أصل ظهور الشيعة بافريقية كان على يد الحلوانى وأبى سفيان ، وأن الذى أوفدهما « جعفر الصادق » وقال لهما « بالمغرب أرض بور ، فاذهبا واحرثاها حتى يجىء صاحب البذر ، فنزل أحدهما ببلد مراغة ، والآخر بسوق جمار ، وكلتاهما من أرض كتامة ، ففشت هـذه الدعوة فى تلك النواحى »[٨] ، ويعنى ذلك أن ارسـال هذين الداعيين الى المغرب كان بأمر الامام « جعفر الصادق » الذى توفى سـنة ١٤٨ هـ لا بأمر « الحسين بن أحمد » •

والواقع أن « ابن حوشب » قد نجـح فى أقل من عامين فى السيطرة على معظم بلاد اليمن فأضحت من أهم مستودعات الدعوة الاسماعيلية ، ولاحظ أئمة الشيعة اتفاق طبيعة بلاد المغرب الجغرافية مع بلاد اليمن ، فوق بعـد المغرب عن مركز الخلافة العباسية ، الى جانب شعور أهلها بظلم الولاة لهم وتذمرهم منهم ، ووجود التشيع قريبا منهم فى بلاد المغـرب الأقصى •

لكل ذلك قرر الأئمة تكليف « ابن حوشب » — وكان بعد انتصاره فى اليمن مسـئولا عن نشر الدعوة فى عدة مناطق منها البـلاد

(٦، ٧) انظر : عيون الأخبار للداعى ادريس فى
The rise . p. 36 , 37.

(٨) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣١ ، وكذلك : المقريزى — اتعـاظ الحنفا ص ٦٧ وهامشها ، الاستبصار لمجهول ص ٢٠٢ — ٢٠٦

المغربية[9] ـ ارسـال الدعاة لتلك البلاد ، فأرسل اليها الحلوانى وأبا سفيان ، وذلك واضح فى أقوال كثير من المؤرخين[10] .

ولعل سر نسبة ارسـال الداعيين الى « جعفر الصادق » مرده رغبة الفاطميين فى تجميع كل الشيعة حولهم وحول دولتهم ، اذ أن كل الشـيعة معترف بامامته .

والحقيقة أن ارسالهما كان حوالى سنة ٢٧٠ هـ ، وأن الذى بعث بهما هو « ابن حوشب » بأمر الامام وحجته ، اذ يستبعد انفراده وقيامه بالتصرف دون مشورتهما وموافقتهما[11] .

وقد التقت كل المراجـع التاريخية على أن الداعى الذى خلف الحلوانى وأبا سفيان عقب وفاتهما ، وعهد اليه بنشر الدعوة فى بلاد المغرب هو : أبو عبد الله الشيعى أو الصنعانى أو المحتسب أو المشرقى ، واسمه « الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى ، من أهـل صنعاء[12] أو من أهل الكوفة[13] .

---

(٩) انظر : المقريزى : المقفى الكبير جـ ٤ لوحة ٢١١ مصـور بدار الكتب .

(١٠) انظـر : العينى : عقـد الجمان فى تاريخ أهـل الزمان جـ ١٨ ورقة ١٥٣ ، ابن الأثير : الكـامل جـ ٨ ص ١١ حوادث سـنة ٢٩٦ هـ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ٢٤ ، المقريزى : اتعـاظ الحنفـا : ص ٥٣ ، ٥٤ ، تاريخ ابى الفـدا مجلد ٢ ص ٦٨ طبـع القسطنطينية اربعـة أجـزاء فى مجلد واحـد سنة ١٢٨٦ هـ ، حسن ابراهيم : عبيد الله المهـدى ص : ٧٤ وما بعدهـا .

(١١) انظـر : حسن ابراهيم : عبيد الله المهـدى ص ٧٥

(١٢) انظر : ابن الأثير : الكـامل جـ ٨ ص ١١ حوادث سـنة ٢٩٦ هـ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ٢٥

(١٣) انظر : المقريزى : اتعاظ الحنفـا ص ٦٨ ، أبو الفـدا : تاريخ أبى الفـدا مجلد ٢ ص ٦٨ .

وكان قد سـمع بوجود الامام « بسلمية » فاتصل به ، ورأى الامام أهليته ونجابته ، فأرسله الى «ابن حوشب» وطلب منه أن يتتلمذ على يديه ، وينظر الى مخارج أفعاله ويعمل بها ، ثم يذهب الى بلاد المغرب لينشر الدعـوة هناك(١٤) .

وقد مكث ذلك الداعية فترة عند « ابن حوشب » ، وصار من كبار أصحابه ، ثم زوده بمال وأرسل به الى بلاد المغرب وقال له « ان أرض كتامة من البربر قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان ، وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فاذهب اليها ، فانها موطأة ممهدة لك »(١٥) .

وقد استجاب « الحسين » لمـا طلب اليه ، وأعد نفسـه لتنفيذ المهمة التى عهد اليه القيام بها بعد عام قضاه مع « ابن حوشب » فخرج الى « مكة » مع الحجـاج اليمنيين ، وجعـل يمشى بين الناس فى الموسم ، ويظهر الورع والتقوى ، واتصل بالكتاميين الذين استجابوا للحلوانى وأبى سـفيان ، وحدثهم باسـتفاضة عن فضـائل « على ابن أبى طالب » وآل بيت النبوة ، فأحبوه وأعجبوه به وقدروه .

وأثنـاء عودتهم الى بلادهم صحبهم الى مصر ، وأخذ يستفسر منهم عن بلادهم واستعدادهم ومدى طاعتهم لحكامهم ، فأجـابوه بما سره وطمأنه ، ولمـا أراد « الحسين » مفارقتهم فى مصر ، رفضوا فى شـدة ، وأصروا على اصطحابه الى ديارهم ، فقبل بعد تمنع شديد ، والحاح فى الطلب ، وحرص أشـد الحرص على اكتسـاب احترامهم ، وحملهم على مهابته ، عن طريق الحديث عن آل البيت وفضائلهم ، دون أن يطلعهم على حقيقته ومقصـده .

---

(١٤) انظر : المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ ٥ ورقة ١٤٥ مخطوط بجامعة القاهرة ، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٦ ورقة ٢٥ ، المقريزى اتعاظ الحنفـا ص ٦٨ ، ٦٩ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٢ .

(١٥) المقريزى : اتعاظ الحنفـا ص ٧٤ ، ٧٥

وعندما وصل الركب أرض كتامة فى ربيع أول سنة ٢٨٨ هـ(١٦) تنازع الكتاميون عليه ، ففجأهم بسؤاله : أى موضوع عندكم يسمى فج الأخيار ؟ فدهشوا لأنهم لم يذكروه فى حديثهم معه ، وأجابوه بأنه عند « بنى سكنان » فقال : اياه نقصد ثم نأتى كل قوم منكم فى موضعهم ونزورهم فى بيوتهم ، ولا أجعل لأحد حظا من نفسى دون أحد ان شاء الله ، وأرضى الجميع بذلك .

وقد أراد أن يعرف الكتاميون عنه معرفته للغيب والتنبؤ بالمستقبل ، حتى اذا حدثهم بعد ذلك عن المهدى ، وعن ظهوره فى هذه الأيام ، وعن انتصاره على أيديهم ، لا يجد صعوبة فى تصديق ما يقوله ، والا فقد عرف « بفج الأخيار » وأنه موطن المتشيعين من كتامة ، من « ابن حوشب » خلال العام الذى قضاه عنده للتعلم .

تلك رواية « ابن الرقيق » نقلها عنه النويرى وغيره ، نفضلها على غيرها من الروايات ، لأن ابن الرقيق مؤرخ افريقية الذى عاصر قيام الدولة الفاطمية ، وشهد — أو على الأقل — سمع عن قرب ، ما سبق دور النشأة من دعوة الشيعى ، ومن جهوده وجهود المستجيبين له حتى ثبتت دعائم تلك الدولة .

هذا ويمكننا أن نميز فى وجود الحسين « بكتامة » بين مراحل ثلاث :

١ — الحسين فى حماية بنى سكنان :

سار « الحسين » الداعية الشيعى الى جبل « ايكجان »(١٧)

---

(١٦) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨ ، الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

(١٧) جبل قرب قسنطينة فيه قبائل كتامة (هامش اتعاظ الحنفا ص ٧٦ ، وهو فى منتصف الطريق بين طنجة وفاس ، وكانوا يطلقون عليه فى قديم الزمان Tazajjan لأنه محل اجتماع الحجاج من الأندلس وشمال المغرب الاقصى (حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٨ والمراجع المبينة به) .

حيث يقع « فج الأخيار » موضــع سكنى « بنى سكنان » وانتشر الحجاج فى أرجاء بلادهم وأخذوا ينشرون خبره ، فتوافدت الجموع اليه ، وحدثهم عن فضائل آل البيت ، ثم بدأ يفضى بما فى نفســه شيئا فشيئا فقال : هذا فج الأخيار ، وما ســمى الابكم ، ولقد جاء فى الآثار ، ان للمهدى هجرة تنبو عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان فانهم « كتامة » وبخروجكم من هــذا الفج يسمى « فج الأخيار » ثم قال للكتاميين : أنا صاحب البذر الذى ذكر لكم الحلوانى وأبو سفيان ، فازدادت محبتهم له[18] .

ولمــا ذاع خبره خشيه والى افريقية ، وأرسل اليه رسالة فيها طابع التهديد والاغراء معا ، لكن « الحسين » لم يعبأ بها ، وأكد أنه ليس الا رســولا لأمر قد حم وقرب .

وفى هــذه المرحلة خشى بعض الكتاميين أن تزول السلطة من أيديهم اذا نجح الشيعى فى قلب الوضع السياسى لصالحه ، ووجدوا أن اســتعمال القوة والعنف لن يكون فى صالحهم ، ولذلك آثروا اصطناع الحيلة ، فاتصلوا بواحــد من بنى سكنان ، وأغروه ومنوه بالرياسة عليهم اذا أخرج الحسين من بينهم ، لكنه رفض ، وتطور الأمر الى حرب بين الفريقين ، ثم حقنا للدماء وعدهم ذلك الرجل بالعمل على اخراج الحسين ، وجعل يحتج على آل بيته ويخوفهم عاقبــة بقائه عندهــم .

٢ — الشــيعى فى حمايته بنى عصمان :

أحسن « أبو عبيد الله المشرقى » بما يدور حوله ، كما شــعر بذلك « الحسن بن هارون » من أكابر كتامة ، فنقله عنده فى مدينة

---

(١٨) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١ ، ١١ حوادث سنة ٢٩٦هـ ، المقريزى اتعــاظ الحنفا ص ٧٧

تازوت ورحب به مع قومه، وقاسموه أموالهم، واجتمع الى نصرته بجانب هؤلاء ــ كثير من فروع كتامة ، الشىء الذى أغاظ بنى سكتان وجعلهم يعملون على تأليب مناصريه عليه ، وقامت حروب كانت نتيجتها تجمع « بنى عصمان » ووقوفهم صفا واحدا مع الشيعى الداعية « الحسين بن أحمد » •

٣ ــ الحسين يباشر الحروب :

خرج الحسين للحرب ، وولى قيادة جيوشه « الحسن بن هارون » وتمكن من تجميع بنى عصمان حوله ، كما انضم اليه « بلزمة ، وعجيسة وزواوة وجميع قبائل كتامة[١٩] ، واشتد بهؤلاء ساعده ، وقوى بهم فى محاربة المعادين له •

ولما أصبح على هذه الحالة ، أخذ يوجه أعوانه للاغارة على القبائل وارهابها ، فتكتلت ضده مجموعة من القبائل ، وجاءه سبعمائه فارس وألف راجل من كتامة ، حثهم على القتال وشاركهم فيه ووعدهم النصر ، ثم دخل حربا مع أعدائه استولى منها على ما لا يحصى من المغانم ، ثم عاد الى « تازروت » ونشر أصحابه فى مختلف النواحى فدخل الناس فى أمره طوعا أو كرها[٢٠] •

وقد اتخذ المدينة السابقة عاصمة له ، وبنى قصره فيها ، كما بنى أصحابه مساكنهم حوله ، واشتد بأسه ، وزاد اقبال الناس عليه •

الحرب بين الحسين وجيوش الأغالبة :

كان « أبو عبد الله » قد أتم فتح « ميلة »[٢١] وآمن أهلها ما لم

---

(١٩) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٣ ، ٣٤
(٢٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص : ٧٨ ، ابن الأثير : الكامل
(٢١) ميلة : مدينة بالمغرب قرب سطيف •
ج ٨ ص ١٢ حوادث سنة ٢٩٦ هـ •

يحدثوا حدثا ، لكن جماعة منهم فروا الى الوالى الأغلبى واستنجدوا به ، وهونوا له أمر الحسين ، فجهز معهم اثنى عشر ألف فارس ، أمر عليهم ابنه المعروف بأبى جوال (الأحول) ووزع عليهم الأموال ، وخرج الجميع من تونس سنة ٢٨٩ هـ ، فالتقوا بعسكر « الحسين » عند بلدة « بلزمة » ، واقتتل الفريقان قتالا شديدا انهزم فيه الشيعة ، وساعدت عوامل طبيعية على حرق مدينتهم « تازروت » وغيرها واضطرتهم للانسحاب الى « ايكجان » ثم أتيح له أن يهزم عدوه فى لقاء آخر .

وبرغم هزيمة « الأحول » فقد استمر يناوش « الحسين » ويحول بينه وبين التقدم الى أن استدعاه « زيادة الله » وقتله — فيمن قتل من آل بيته — فانتشرت جيوش الشيعة فى البلاد(٢٣) ، واتخذ « الحسين » لنفسه دار هجرة فى جبل « ايكجان » وأخذ يقول : المهدى ، يخرج فى هذه الأيام ويملك الأرض ، فياطوبى لمن هاجر الى وأطاعنى(٢٤) وسمى اتباعه وأشياعه من كتامة بالمؤمنين(٢٥) .

زيادة الله يعد كل ما يمكنه لمحاربة الحسين :

وصلت أخبار نجاح الداعى المشرقى وفتوحاته فى البلاد الى الوالى « زيادة الله » وخشى أن يقضى عليه ان لم يعمل على معالجته بالحرب ، فحشد الجند ، وزاد فى مرتباتهم ، وتجمع لديه أربعون ألف فارس وراجل ، ولى عليهم أحد أقاربه الذين لم يكونوا يعرفون الحرب ، وأمدهم بالسلاح والعدد والمال ، وسار الجيش حتى وصل

---

(٢٢) ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٣٣ ، ٣٤
(٢٣ ، ٢٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٢ حوادث سنة ٢٩٦هـ ، ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ٣٤ وما بعدها .
(٢٥) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٦ طبع الجزائر سنة ١٣٤٦ هـ .

مدينة « قسنطينة » حيث وصله مدد أصبح به الجيش مائة ألف ، وبقى قائد الأغالبة بالمدينة السابقة ومنطقتها ستة أشهر لا يتقدم الى عدوه ، ثم زحف اليه بعساكره كلها .

دخل الفريقان فى معركة حاسمة ، واقتتلوا قتالا شديدا وانهزم فيه جند والى الأغالبة ، وغنم الشيعة وسبوا وقتلوا وعظم أمرهم ، وسقطت فى أيديهم مدن كثيرة كان آخرها « الأربس »[٢٦] مما اضطر جيش الأغالبة الى الانسحاب جهة « القيروان » .

أقام « الحسين » سنتين بعد ذلك يشن الغارات ، ويغنم الأموال حتى سيطر على كل شىء ، ولم يبق الا العاصمة « رقادة »[٢٧] ومن فيها من الأمراء والقبائل .

سقوط العاصمة فى يد الحسين الشيعى :

لما وصلت أخبار انتصارات أبى عبد الله الى « رقادة » اضطربت وماجت ، وأيقن « زيادة الله » أنه لا مقام له بعد انهزام جيشه ، فقد أعده بكل ما وسعته قدرته وزوده بكل ما يملك ، لذلك جمع كل ما أمكنه وفر هاربا الى مصر .

أما « الحسين » فقد زحف على العاصمة فى ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل[٢٨] ، ودخلها فى رجب سنة ٢٩٦ هـ ، وآمن أهلها ، وفرق

---

(٢٦) انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٥ ، ١٦ حوادث سنة ٢٩٦ هـ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٥ ، ٣٦ والأربس قرية اهلة فى الشمال العربى من الجمهورية التونسية بعمل الكاف ، وهى بالقرب من سبيته (حسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٧٤ ، والميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٧٩) .

(٢٧) « رقادة » مدينة جنوب القيروان تبعد عنها ثمانية اميال واطلال انقاضها لا تزال ظاهرة (حسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٧١) .

(٢٨) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٦ ، الميلى: تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٧٩

دورها على « كتامة » وأمر بضرب السكة ، ونقش على وجه منهـا « بلغت حجة الله » ، وعلى الآخر « تفرق أعداء الله » ونقش على السـلاح « عدة فى سبيل الله » وعلى أفخاذ الخيل « الملك لله » ، وكان رسم خاتمه « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا » وأمر الخطباء يوم الجمعة ، فصلوا على النبى ﷺ ، وعلى « على » « وفاطمة » دون أن يتحدد اسم الامام ، فقد كان « الحسين » حريصـا على اخفائه حتى ذلك الحـين[٢٩] .

تخليص المهدى وتوليه الخـلافة :

كان « الحسين » قد أرسل الى المهدى فى « سلمية » رجالا من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليه ويستقدمونه[٣٠] فاستجاب لذلك ، ووصل هو وابنه أبو القاسم الى « سجلماسة » بعد مخاطر تعرضا لها فى الطريق ، ثم سجنه صاحب المدينة المشار اليها ، تلبية لأمر الخليفـة العبـاسى .

وكان أبو العباس ــ أخو الحسين الداعى ــ قد صحب المهدى فى رحلته ، وأمكنة الوصول الى « رقادة » حيث أخبر أخاه «الحسين» بما حـدث للامام ، فجيش الجيوش ، وتوجه « بملء الأرض من الخيـل والرجال الى سجلماسة سـنة ٢٩٦ هـ »[٣١] فهز المغـرب كله وأخـافه .

بعد ذلك أرسل الى صاحب « سجلماسة » حتى لا يقتل الامام أو يؤذيه ، فرد عليه الوالى ردا عنيفا ، ثم وصل « الحسين » اليه وقاتله وأمكنه اخـراج « المهدى وابنه » من محبسـهما ، ومشى فى ركابهما ، وتوجه الجميع الى « رقادة » فوصلوها فى العشرين من

---

(٢٩) انظر : ابن خلدون : العـبر جـ ٢٤ ص ٣٦
(٣٠) أنظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٣ حوادث سنة ٢٩٦هـ
(٣١) أنظر : ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٨

ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ[٣٢] ، ونزل المهدى فى قصر من قصور تلك المدينه ، وتلقب « بالمهدى أمير المؤمنين » وخطب باسمه فى الجمعة ، وضرب على السكة ، وولى الولاة ، ودون الدواوين ، وجبى الأموال ، وتوفرت له جميع الأركان الضرورية اللازمة لقيام الدول من سفارات وعلاقات خارجية ومجتمع .... الخ[٣٣] .

ولعله قد اتضح الآن الأسس التى قامت عليها الدولة الفاطمية ، وما أسهمت به « كتامة » من جهـود وتضحيات فى سـبيل اعلائها ورفع بنائها ، ولسنا مغالين اذا قلنا انه لولا « كتامة » ، ما سـمع للفاطميين بدولة فى افريقية وما قام لهم حكم هناك .

فالكتاميون اذا هم جيش الدولة الفاطمية فى هـذه المرحلة من حياتها عليهم قام كل العبء ، وتحملوا كل الجهود الحربية ، وبنصرهم للحسين وجهودهم معه ، نجح فى مهمته ، وأقام للفاطميين دولة فى المغـرب الافريقى .

لكن لمـاذا نجح للفاطميون فى اقامة دولتهم فى بلاد المغرب ؟ وما العوامل التى ساعدتهم على النجاح وهيأته لهم ؟ لعل هذا السؤال يفرضه نفسه الآن فى هـذه المرحلة من البحث .

عوامل نجـاح للفاطميين فى بلاد المغـرب :

كانت هناك عدة عوامل عدة يتصل بعضها بالخلافة العباسية ، وبعضها بالمنطقة التى قامت فيها تلك الدولة ، والاخر يرتبط بالتنظيم الشيعى والدعـوة الفاطمية ، وكلها تضافرت وساعدت على انتصـار الفاطميين .

---

(٣٢) عن اخبار الحسين الشيعى منذ دخوله بلاد المغرب الى انقاذ المهدى من سجنه انظر : النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ ورقة من ٢٤ الى ٣١

(٣٣) عن مفهوم الدولة واركانها ، انظر (الريس) ــ النظريات السياسية الاسـلامية ص ١٩ وما بعدهـا .

فقد استبد الأتراك بالحكم فى الدولة العباسية ، وسيطروا على كل شيء منذ أوائل العصر العباسى الثانى ، وحتى الخلفـاء أنفسهم لم يكن لهم من الأمر شيء ، يتضح ذلك من قول بعض الخلفاء .

أليس من العجـائب أن مثلـى يرى ما قـل ممتنعـا عليـه
وتؤخذ باسمه الدنيـا جميعـا وما من ذاك شيء فى يديه[٣٤]

وهـذا الضعف أفقد الخلافة والقائمين عليها المهابة والاحترام ، وساعد على قيـام ثورات هددتها فى عاصمتها نفسها ، كما حـدث فى ثورة الزنج . وقد شجعت تلك الحالة الولايات البعيدة والأطراف على الاسـتقلال عن الدولة ، « وانعدمت الأمانة عند موظفى الدولة على أموالهـا »[٣٥] .

كل هـذا كان من شأنه أن يشغل حكومة « بغداد » ، وكانت فرصـة استغلها العلويون لنشر دعوتهم فى مناطق مختلفة من الدولة شملت فارس واليمن والمغرب والعراق وغيرهـا .

وكانت الولايات التابعـة للخلافة العباسية من الفوضى والضعف بصـورة مكنت للمذهب الاسماعيلى أن يذيع وينتشر .

فقد تمكن « ابن حوشب » من قهر العساكر الرسمية فى اليمن ، واقام دولة شيعية هناك ، وساء حكم الطولونيين فى مصر والشام للدرجة التى مكنت الفاطميين من اتخاذ « سلمية » مركـزا لدعوتهم ، وساعدتهم على الافلات من الولاة دون مشقة وو عنـاء .

---

(٣٤) الخليفة هو المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) وانظر : السيوطى: تاريخ الخلفـاء ص ٢٤٥ القاهرة ١٣٥١ هـ .

(٣٥) الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤٨٠ الطبعة الثانية ـ القاهرة سنة ١٩٦١ م ، وارجع اليه لمعرفة فساد الادارة فى الدولة العباسية ، وفساد السياسة فيها ، وتحكم الأتراك ، وقيام الاعراب بثورات عليهـا ، وتجرؤ العدو على مهاجمتها وتجزؤ تلك الامبراطورية من ص ٤٧٠ الى ٤٩٢

أما « افريقية » فقد مر بنـــا تصوير حالة السخط على حكم الأغالبة فيها ، وقد كان مناخها السياسى من أهم العوامل التى مكنت للدعوة الفاطمية ، وهيأت لها النجاح .

كما كان ســـوء الوضع الاقتصادي لتلك البلاد ، واثقال الولاة كاهل الأهالى بالضرائب المتعددة ، من الأسباب التى سهلت اعتنـــاق البربر لمذهب الخـــوارج ثم الشيعة ، ثم قيامهم بحركات ثورية ضـــد الولاة « لفرضهم ضرائب فادحه ليست مما يفرضـــه الدين[36] » .

ويجب ألا نغفل الطبيعة البربرية للقبائل أنفسهم تلك الطبيعة التى تقوم على الشظف فى العيش ، والاسراع الى السيف اذا ما آثار أحد نائريهم الى «أن يملك قلوبهم بحسن معاملته واحترامه »[37] . زد على ذلك عشقهم للحرية ، وعامل الاندفاع الذى فطروا عليه ، وما انطوت عليه أخلاقهم من خشونة ، فكل ذلك جعلهم أســـاس قيادة « للحسين » الداعى الفاطمى ومكنه من اثارة حميتهم ، ووصل الى أغراضـــه بذلك وبحبهم لآل على والمهدى[38] .

وقـــد أثار ولاة العباسين هؤلاء البربر ، حـــين اعتبروهم من الناحية الاجتماعية جنســـا متخلفا واحتقروهم ، وحملوهم فوق طاقتهم الشىء الذى جعلهم أكثر كرها لحكامهم وأكثر استجابة للحسين الشيعى « ولم يعد من الصعب أن يحرض البربر على محاربة الولاة الذين لا يمكن اعتبارهم الا متطفلين على أرض الوطن[39] .

ولابد أن نضع فى الاعتبار الطريقة التى نظمت بها الدعـــوة الفاطمية ، والسرية التامة والكتمان المحكم الذى ميزهـــا .

---

(٣٦) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥
(٣٧) انظر : دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ١ ص ٨٣
(٣٨ ، ٣٩)انظـر: Nicholson : the establishment of the Fatimides Dynasty in Africa p. 26.
نقلا عن حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤ ، ٤٥

لقد كانت شخصية الامام مجهولة حتى لكبار الدعاة أنفسهم وكان الدعاة ببحار الدعوة فى كل أقطار الأرض لا يتفقون فى اسم الامام وقد نظمت الدعوة على أســاس أن يتفق اسم الامام مع اسم حجته ، بل أن بعض الدعاة سموا جد « المهدى » ، « محمد بن اسماعيل الامام » بالمكتوم « لما اتفقوا عليه من اخفائه وحذروا من المتغلبين عليــه »(٤٠) .

كل هذا كان من شأنه أن يضلل الخلفاء العباسيين وولاتهم ويهىء للفاطميين وحججهم ودعاتهم ، فرص العمل فى اطمئنان ، آمنين سـطوة العباسيين الغارقين فى مشاكلهم .

على أننا بعد ذلك لاننسى شخصية الداعى أبى عبد الله الحسين الشيعى ، وما امتاز به من حنكة ومقدرة وبراعة فى الحديث والمجادلة ، مكنته من أسر الناس ، وحتى من الدفاع عنه بأرواحهم ، ولقد وعد - بحق - من رجـالات التاريخ الأفذاذ الذين تمكنوا بالحيلة والدهاء ودون ما سـند من مال أو رجال ، أن يقيموا وحدهم دولة عظيمة ، شأنه فى ذلك شأن « عبد الرحمن الداخل » .

يضاف لكل ما سبق بعد بلاد المغرب عن مركز الخلافة العباسية فى « بغداد » وتغلغل المذهب الخارجى فى بعض نواحيهـا ، مما جعل من السـهل التحول عنه الى المذهب الشـيعى .

* * *

---

(٤٠) المقريزى : المقفى الكبير جـ ٤ لوحة ٢١٥

الفصل الثاني

الجيش الفاطمي في افريقيـــة

استمر الفاطميون يحكمون فى افريقية منذ تأسست دولتهم هناك سنة ٢٩٦ هـ الى أن انتقل خليفتهم الرابع ـ المعز لدين الله ـ الى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، وخلال السنين المذكورة تعرضت الدولة الفاطمية لثورات قامت ضدها وبلدان خلعت طاعتها ، وفى الوقت نفسه كانت حريصة على نشر جناحيها على كل البلاد الاسلامية : مصر وبلاد المشرق من ناحية ، والمغرب وما وراء المحيط من ناحية أخرى .

وكان الجيش الفاطمى عماد الفاطميين فى تنفيذ مخططاتهم ، فعليه عبء حماية الدولة وتثبيت مركزها ، كما كان عليه تحقيق الآمال الواسعة نحو حكم كل البلاد الاسلامية .

وهذا الفصل محاولة لشرح دور الجيش الفاطمى فى هذا الصدد ، وابراز مهمته ، بصورة تمكننا من الوقوف على العناصر التى شاركت فى تكوينه ، والقبائل التى كونت وحداته ، كى يكون تصورنا له واضحا فى هذه المرحلة من حياته ، وحتى نستطيع متابعة تطوره فيما بعد .

ومن الممكن أن يقسم دور الجيش الفاطمى فى افريقية الى موضوعين رئيسيين هما :

(أ) دور الجيش الفاطمى فى اخماد الثورات .

(ب) دور الجيش الفاطمى فى توسيع رقعة الدولة .

ونخص كلا من هذين الموضوعين بكلمة :

(أ) دور الجيش الفاطمى فى اخماد الثورات .

الجيش يخمد ثورات « سجلماسة وتيهرت » :

لقد كانت كل من « سجلماسة » ، « وتيهرت » أول من تمرد على الحكم الفاطمى ، ذلك لأن كلتيهما كان يتغلغل فيها المذهب الخارجى ، وتقوم فيها دول خارجية ، ولذلك لم يكن من السهل استسلام هؤلاء للشيعة أعدائهم المذهبيين .

فلم يكد الوالى الفاطمى على « سجلماسة » يمضى بها خمسين يوما ، حتى ثار عليــه أهل البلد وقتلوه هو ومن معه من الشــيعة ، وكانوا نحو ألفى فارس من كتامة[1] .

وأرادت الخلافة الفاطمية القضاء على تلك الحركة والانتقام من الثائرين ، فكونت جيشا من جموع الكتاميين والمكناسيين جعلت على قيادته « مصالة بن حبوس » ، وقد توجه الى تلك البلاد وحاصرها ودوخ أهلها ، وتمكن من اعادتها فاطمية تدين بدعوة المهدى[2] .

وقد كان « مصالة » من أبرز القواد الفاطميين الذين بهم استتب الحــكم الفاطمى فى بلاد المغــرب الأوسط ، ولذلك يلزمنا تقــديم تعــريف به :

مصــالة بن حبوس :

قائد فاطمى من قبيلة مكناسة ، تولى رئاسة هذه القبيلة فى النصف الثانى من المــائة الثالثة للهجرة ، وتغلب على قبائل البربر الأخرى وعظم أمره .

ولمــا خضع المغرب للفاطميين ، كان مصالة من أكبر قوادهم ، وولاه الخليفة المهدى « تيهرت » والمغرب الأوسط ، وزحف على المغرب الأقصى سنة ٣٠٥هـ وأخضع للشيعة «فاس» و «سجلماسة» ثم عاد الى القيروان بعد أن ولى ابن عمــه موسى بن أبى العافية على ضواحى المغرب وأمصاره ، وقد قتل حباسة بيد عدوه محمد بن خرز الزناتى سنة ٣١٢ هـ . ولمــا تم لابن عمه موسى اخضاع المغربين الأوسط والأقصى وملك «تلمسان» سنة ٣١٩هـ ـــ نقض دعوة الفاطميين وانحاز

---

(١) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٥٤ .

(٢) انظر : السلاوى : تاريخ المغرب الأقصى جـ ١ ص ٥٥٦ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣١ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٦٦ طبعة وزارة الثقافة بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م .

للأمويين بالأندلس ، فأرسلت له الخلافة الجيوش واستمرت فى محاربته حتى قتل فى بعض صحارى « قلوية »[3] •

ولقد عادت سجلماسة الى التمرد ثانية فى عهد الخليفة « المعز لدين الله » (٣٤١ — ٣٦٥ هـ) فتصدت لها عساكر من صنهاجة وكتامة بقيادة « جوهر الصقلى » استطاعت ارجاعها فاطمية سنة ٣٤٧ هـ ، وقبضت على الثائرين ، وقتلت كثيرا من الصفرية الخوارج لحمايتهم لهم[4] •

أما « تيهرت » فقد رفض سكانها من « زناتة » الخضوع للحكم الفاطمى منذ الأيام الأولى لنشأته ، فحاربوا واليها ، واضطروه للفرار ، وقتلوا حوالى ألف فارس من أصحابه ، واستكثروا من العدة والسلاح بهدف مناهضة الدولة الفاطمية فى تلك النواحى •

وقد أعد الخليفة « المهدى » (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ) العساكر ، وحشد الجنود ، وطلب منها التوجه الى المدينة الثائرة ، فحاربتها ثلاثة أيام وحرقتها بالنار ، وقتلت من أهلها ثمانية آلاف رجل ، كما التقى جيش الفاطميين « بزنانة » فى مكان يسمى « فك الديك » ، وقتل عددا كبيرا وتمكن من اعادة فتح المدينة •

وبرغم من ذلك استمرت « زناتة » تتحرش بالفاطميين ، وتعتدى على رجالهم كلما واتتها الفرص ، فأخرج « المهدى » جيشا جعل على رأسه « موسى بن محمد الكتامى » لتأديب تلك القبيلة ، فكان نصيبه الهزيمة أمامها وقوى ساعدها بانضمام قبيلة « لماية »

---

(٣) انظر : خير الدين الزركلى — الأعلام جـ ٨ ص ١٢٨ ، ١٧٣ — والمراجع المبينة به •

(٤) انظر : ابن ابى زرع : الأنيس المطرب جـ ١ ص ١٣٢ تحقيق محمد الهاشمى الفيلالى — الرباط ١٩٣٦ ، البكرى : المغرب ص ١٥٠ ، ١٥١ •

لهـا فى الثورة على الفاطميين ، وقامت وقائع بينهم وبين الجيوش الفاطميـة ، مكنت الثائرين من التغلب على منطقـة الزاب كلهـا ، والسيطرة على جميع أراضيها •

وازاء حالة السوء التى وصلت اليها الجيوش الفاطمية ، لم يجد الخليفة بدا من اعداد جند جديد من كتامة ومن انضم اليها ، وأخرج عليه ولى عهده « أبا القاسم » ، وقد استطاعت الجيوش الجـديدة أن تفتح بلاد «مزاته ومطماطة وهوارة» ، وتستولى على قلاع الاباضية والصفرية ، فى نواحى « تيهرت » وما وراءها ، وتقضى على الثورة فى تلك البـلاد •

وهكذا وجدنا الخليفة الفاطمى يدخر ولى عهده الى وقت اشتداد الأزمة ، ثم يدفع به الى الحرب على رأس الجنود المقاتلة ، كى تستمد من وجوده معهـا زادا روحيا يدفعهـا الى التفانى فى الحرب حتى الانتصـار •

ولقد برز اسـم أبى القاسم كقائد حربى فى كثير من المعارك بالبلاد المغربية ويقضينا المقام أن نعرف به بصورة مركزة •

أبو القاسـم محمد بن المهدى :

هو أبو القاسم محمد نزار بن الخليفة المهدى ـ خليفة الفاطميين الأول ـ ويلقب بالقائم، ولد فى «سلمية» ببلاد الشام سنة٢٧٧ أو سنة ٢٨٠ أو سنة ٢٨٢ هـ ، وقد صاحب والده عند رحيله من بلاد الشام الى افريقية حيث بويع بخلافة المسلمين وأقام الخلافة الفاطمية •

وقد بايع الخليفة المهدى ابنه أبا القاسم بولاية العهد فى حياته ، ولـما توفى أبوه جددت له البيعة وأصبح الخليفة الفاطمى الثانى •

وقد ظهرت مواهبه الحربية وتولى قيادة الجيوش فى حياة أبيه ،

فكان على رأس الحملة الفاطمية الأولى لفتح مصر سنة ٣٠١ هـ ، كما تولى الحملة الثانية سنة ٣٠٧ هـ وقد فشلت كلتا الحملتين كما سيأتى •

وقد نجح القائم فى مهمة أوكلها الخليفة اليه سنة ٣١٥ هـ حيث أرسله الى بلاد المغرب لتأديب عدوة الفاطميين « زنانة » وغيرها من المخالفين • وقد أمكنه اخضاع « زناته وهوارة ولماية وكواية » ، ولنتهى الى « برقة وتيهرت » كما أدب الصفرية والأباضية ثم عاد الى المهدية(٥) •

وكانت البداية العسكرية لحركة أبى يزيد زمن خلافة القائم (٣٢٢ ـ ٣٣٤ هـ) ، وبلغت ذروتها على أيامه ، ومات الخليفة وجيش الثائر محاصر له سنة ٣٣٤ هـ ، فتولى بعده ابنه المنصور (٣٣٤ ـ ٣٤١ هـ) وأخفى نبأ وفاته ، ورسم الخطط لحرب عدوه حتى استطاع هزيمته وأسره كما سيأتى(٦) •

هذا وبرغم هزيمة « زنانة » ـ بفضل جهود ذلك القائد ـ فقد استمرت تثير القلاقل أمام حكم الفاطميين ، وتسبب المتاعب له أيام حكم المهدى والقائم والمنصور ، ولم تستطع الجيوش الفاطمية وضع حد لثوراتهم بصورة قاطعة ، الشىء الذى اضطر الخلافة الفاطمية الى ترك الحرب الظاهرة ، واللجوء الى تفريق كلمة تلك القبيلة باعتبار ذلك الوسيلة المثلى للتخلص منها •

وكانت « زنانة » تنقسم الى فرعين كبيرين هما مضراوة تحت

---

(٥) انظر : النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ٣٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٩٧ ، ١٩٩ •

(٦) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١١١ ترجمة ٦٥٧ •
تحقيق محمد محيى الدين عبد المجيد ـ أربعة أجزاء ـ القاهرة ١٩٤٨

رئاسة آل الخزر ، « وبنو يفرن » وكلاهما كان ينازع الآخر السلطة ، وينتمى الى سلطة خارجية يعتز ويستنصر بها .

وقد نجح الخليفة « المنصور » فى استمالة « مضراوة » وأحسن اليها ، وجعل لها حكم هذه المنطقة من بلاد المغرب باسم الفاطميين ، وكرد فعل لذلك انحاز « بنويفرن » للخليفة الأندلسى « الناصر » وخطبوا باسمه من « طنجة » الى « تيهرت » .

وقد أراد الخليفة « المعز » أن يقضى على جميع المعارضين لحكمه فى بلاد المغرب ، فجهز قائده « جوهر » سنة ٣٤٧ هـ لتحقيق ذلك الهدف ، وأمر ولاة الجهات بامداده بالرجال المحاربة .

وقد التقى جمع « جوهر » ببنى يفرن قرب تيهرت ، واستطاع أن يقتل رئيسهم فى المعركة ، وأن يهزم جنده هزيمة ساحقة ، وبعد ذلك خرج الخليفة بنفسه وقضى على بقايا الثوار فى تلك المنطقة ، ولم يأت عام ٣٥٩ هـ حتى كانت البلاد قد طهرت تماما من كل المناوئين ، وأصبح حكمها خالصا للفاطميين .

وهكذا كانت « زنانة » أولى القبائل التى أعلنت العداء والحرب على الفاطميين ، وكلفت الجيش كثيرا من الجهد حتى اضطرها الى الخضوع للحكم الفاطمى(٧) .

---

(٧) عن ثورات « تيهرت » ضد الفاطميين ، ودر الجيش الفاطمى فى القضاء عليها ، انظر : ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب جـ ١ صفحات : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢١٥ ، حوادث سنة ٣٥٨ هـ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٨٣ وما بعدها ، عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر ص ٢٣٩ ، ٢٤٨ وما بعدها ، طبع تونس سنة ١٣٤٤ هـ .

الجيش الفاطمى يتصدى لثورة كتامة :

تعرضت الدولة الفاطمية لثورة أخرى قامت ضدها أيام الخليفة « المهــدى » وتعتبر تلك الثورة ذات طابع خاص فى حيــاة الدولة والجيش الفاطمى •

فبفضل قبيلة « كتامة » ومعاونتها قامت للفاطميين دولة فى بلاد المغرب ، وكانت هى الجيش الفاطمى الذى حارب أعداء الفاطميين وثبت أقدامهم فى البلاد ، لكن تلك القبيلة ما لبث أن أعلنت الحرب على الخليفة الفاطمى ، وشهرت السيوف ضده •

وكان سبب ذلك أن « المهدى » قتل الداعية أبا عبد الله الحسين الشيعى ، الذى عرفهم بالمذهب الفاطمى ، ونشره فيهم ، بحجة أنه يستعدى الناس على الخليفة ، ويشككهم فى شخصه ، ويدبر لمقتله •

وقد قامت فتنة فى البلاد بسبب قتل ذلك الداعية ، ورفع الناس السيوف وأظهروا العصيان ، وأراد « المهدى » تسكين الناس ، فأعد جيشا من أصحابه خرج هو على رأســه ، وتتبع الثوار وقتل جماعة منهم ، فازدادت النيران اشتعالا وتجددت ثوراتهم فى « القيروان » وقتل كثيرون ، فخرج «المهدى» بنفسه مرة ثانية ليؤمن الشعب الثائر •

وكأنه أحس بأن العامة لا تستسيغ التشيع ، فطلب من الدعاة الا يطلبوا التشيع منهم ، لكن ذلك كله لم يجد ، فقد رجعت « كتامة » الى بلادها ، وأقاموا بينهم طفلا زعموا أنه المهدى ، وأنه يوحى اليه ، وأن الحسين الشيعى حى لم يمت ، ثم زحفوا الى « ميله » فجهز الخليفة جيشا جديدا جعل على قيادته ولى عهده « أبا القاسم » ، فحاصر الثائرين حتى هزمهم ، وقضى على كثير منهم ، وقتل الطفل الذى أقاموه[٨] •

---

(٨) انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٨ ، ١٩ حوادث سنة ٢٩٦ هـ ، المقريزى اتعاظ الحنفــا ص ٩٧ ، النويرى : نهــاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ٣٥ •

وبذلك تمكن الجيش الفاطمى من اخماد تلك الثورة والقضاء عليها •

الجيش الفاطمى يقضى على ثورتين فى طرابلس والقيروان :

تمكن الجيش الفاطمى من اخماد ثورتين ، قامت احداهما فى القيروان ، والأخرى فى « طرابلس » ، وكان دافع هاتين الثورتين مختلفا عن أسباب حركات التمرد السـابقة ، وكان نشوبهما أساسا بسبب « كتامة » •

ذلك أن تلك القبيلة ، قد شعرت بفضلها على « المهدى » فأخذت تدل عليه ، وتطلب منه أن يطلق يدها فى نهب « القيروان » وتطاولت على الناس وآذتهم ، واعتدت على حوانيتهم ، وتجمع أفرادها ونهبوا وشهروا السـلاح فى وجوه الرعية ، الشىء الذى دفع الناس الى الصياح وطلب النفير حتى قتلوا ألف رجل من الكتاميين ، حينئذ لحق الباقون منهم ببلادهم ، وأعلنوا غضبهم وثورتهم على الخليفة الفاطمى ، وولوا على أنفسهم غلاما زعموا أنه « المهدى المنتظر » ، وتمكنوا من السيطرة على مدن الزاب كلها •

وقد اهتمت الخلافة الفاطمية بأمر هؤلاء ، وأخرجت لهم جيوشا متعددة ، كان آخرها بقيادة ولى العهد « أبى القاسم » ، وكانت له معهم معـارك حامية اضطروا بعدها لطلب الأمان ، فأمنهم القائد ، ورجع بهم الى « رقادة » حيث طيف بكبرائهم فى القـيروان[9] ، ثم قتلوا بمدينة رقادة بعد ذلك[10] •

---

(٩) انظر : ابن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ج ١ ص ١٢٢ تونس سنة ١٩٦٣ م ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٦٦ ـ ١٦٩ •

(١٠) لمعرفة تاريخ انشـاء القيروان واهمية موقعها ارجع الى : العدوى « المسلمون والجرمان » من ص ٧٣ ـ ٧٨ القاهرة ١٩٦٠ م •

وكما كان استبداد للكتاميين وغطرستهم ، سببا فى ثورة القيروان ، كان السبب نفسه وراء تمرد أهل طرابلس على الحكم الفاطمى .

فقد ولت الخلافة الفاطمية بعض الكتاميين على تلك الناحية ، فاستبد بها ، وبسط أيدى أقاربه على الناس ، واعتدى على حرماتهم ، مما جعل أهل « طرابلس » يتذمرون ويغضبون ، وطردوا عامل المدينة منها ، وأخذوا يقتلون كل من صادفهم من الكتاميين .

وقد أعد الخليفة « المهدى » جيشا ، وأرجع والى المدينة مع الجند ، فحاربها شهورا دون أن ينجح فى فتحها ، فجهز الخليفة أسطولا بحريا من خمسة عشر مركبا حربيا ، وجيشا بريا يقوده « أبو القاسم » ولى العهد .

أما الأسطول فقد استطاعت مراكب الثائرين فى طرابلس أن تحرقه وأن تقتل من فيه .

أما جيش « أبى القاسم » فقد نزل على « طرابلس » وحاصرها ، وضيق على أهلها ، حتى لم يجدوا بدا من طلب الأمان ، فأمنهم القائد عدا ثلاثة نفر شرط ألا يدخلوا فى الأمان ، وكان مصيرهم القتل(١١) ثم غرم أهل البلد ما تكلفته الحملة من أموال بلغ مقدارها ٣٤٠ ألف دينار ، ثم رحل عن المدينة بعد أن أخذ بعض وجوه أهلها كرهائن معه(١٢) .

---

(١١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، أحمد الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ص ٩٧ بيروت سنة ١٩٦٠ م .

(١٢) انظر : النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ٣٥ ، ابن ابى دينار : المونس فى اخبار افريقية وتونس ص ٥٣ ، ٥٤ .

الجيش الفاطمى يحارب هوارة ونفوسة :

كانت الطبيعة البربرية فى « زنانة » وراء ثوراتها ضد الفاطميين ، وقد نجح الجيش الفاطمى فى وضع حد لحركاتها ، وحملها على الخضوع للحكم الفاطمى ، وكان الدافع نفسه حاملا لكل من هوارة ونفوسة فى الخروج على الخلافة الفاطمية .

فقد أعلنت « هوارة » فى طرابلس العصيان على الخليفة الفاطمى واستقبلت بعض المتذمرين من «لماية وزنانة » وغيرهما ، وقاموا جميعا بحصار المدينة المذكورة .

وأراد الخليفة المهدى مواجهة الثوار ، فأخرج جنودا كثيرة ، وهيأ عساكر عـدة ، استطاعت أن تلتقى بجموع أعداء الفاطميين ، وأن تهزمها وتقتل الكثير منها ، كما طاردت الباقين وشردتهم ، وأرسلت رءوس القتلى الى « رقادة » فنصبت بها .

وكما تمردت « هوارة » ، أعلنت « نفوسة » كذلك العصيان على الفاطميين وعظمت حركتها واشتد بأسها ، فعهد الخليفة المهدى الى قائده « على بن سليمان الداعى » أن يتوجه اليها فى جموع غفيرة ، لكن الثائرين فجأوه وقتلوا كثيرين من أصحابه وحملوا الباقين على الفرار منهزمين .

بيد أن الخلافة الفاطمية لم تكن ترضى لجندها الا الصمود فى ميدان القتال حتى النصر أ الموت ، وترفض منهم أن يفروا من المعركة ، لذلك أمر الخليفة عامله على مدينة « قابس » فقتل كل من مر بها من الفارين المنهزمين ، وأمد قائده بجيوش كثيرة ومدد جديد ، تمكن به من محاربة « نفوسة » فى عزم وقوة ، وأمكنه أخيرا الانتصار عليها ، وقتل رجالها ، وسبى ذريتها ، ثم دخل حصنها وهدمه(١٣) .

---

(١٣) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

والى جانب الثورات السـابقة ، قامت ضد الفاطميين حركات عصـيان أخرى فى مناح متفرقة من الدولة ، وفى عهود الخلفـاء : المهدى ، والقائم ، والمنصور ، والمعز ، وقد أمكن الجيش الفاطمى فى كل مرة أن يعيد الأمن ويردع الثائرين ، ويرجع الى المناطق المضطربة هدوءها[١٤] .

جيش الفاطميين يقضى على ثورة أبى يزيد :

كانت ثورة « أبي يزيد مخلد » أخطر الثورات ضد الفاطميين ، فقد هزت العرش الفاطمى وعرضته للسقوط ، واقتطعت منه جل البـلاد ــ عدا العاصمة ــ وتركته فى حالة اضطراب وفوضى مـدة قاربت أربع سـنين .

ومع أنها كلفت الجيش الفاطمى كثيرا من الجهد ، وكلفت الخزانة كثيرا من المـال ، الا أن العسكر الفاطمى قد استطاع فى النهاية أن ينتصر عليها وأن يقضى على القائمين بها .

وتعتبر هذه الثورة امتدادا لتمرد « زناتة » على الحكم الفاطمى ، ورغبتها القضاء على الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب[١٥] ، فالثائر هو « أبو زيد مخلد بن كنداد » من بنى جعفر من آجانا الذى تنسب

---

(١٤) عن هذه الثورات انظر :
احمد الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس العرب ص ٩٨ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٩٨ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ٣٥ ، جـ ٢٢ ورقة ٤٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢١٦ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٨٣ وما بعدها .

(١٥) انظر : سرور ــ مصر فى عصر الدولة الفاطميـة ص ١٨ القاهرة سنة ١٩٦٠ .

اليه قبيلة « زنانة » ، وقد نشأ « بتقيوس أو بتوزر »[١٦] ، ولما شب وكبر خالط جماعة من الأباضيين الكبار،ودرس مذهبهم،وأجاد الجدل فيه، ثم أخذ يعلم الصبيان القرآن ، وينشر مبادىء مذهبه فيهم .

وقد كان قولهم ذلك المذهب تكفير أهل الملة واستباحة أموالهم ودمائهم والخروج على الحاكمين .

وقد نجح « أبو يزيد » فى أن يكون له جماعة تعظمه أيام « المهدى » ، واعد أصحابه للثورة ضد الحكم الفاطمى ، ومع ذلك فلم يكن أصحابه من القوة بحيث يعتمد عليهم فى مواجهة الجيش الفاطمى ، ولذلك رحل الى جبل « أوراس » حيث كان يقيم « بنو كملان » من هوارة ، وقد كان هؤلاء على اتفاق معه فى المذهب الدينى ، فعول عليهم ، وقويت شوكته بهم ، وأظهر الزهد والتقشف ، ولبس الخشن أول أمره ، ثم تخلى عن ذلك واستباح دماء المخالفين ونساءهم[١٧] .

اعلان الثورة :

كان الثائر فى البداية حريصا على أن يهيىء النفوس للثورة ويعدها للعصيان دون أن يجهر بحركته ، ويظهرها للفاطميين حتى لا يقضى عليها الحاكمون فى مهدها ، ويحكمون عليها بالفشل قبل أن يتوفر السند الحامى لها ، ولما شعر بقوته وضمن كثرة أتباعه فى عهد الخليفة القائم ، أخذ يكشف عن نفسه ويبين عن حقيقة مقصده ، فى صورة لفساد المدن وتحريقها ، حتى خرب كثيرا من المدن الافريقية ،

---

(١٦) انظر : المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٩ ، العينى : عقد الجمان : ج ١٥ ص ٢٤ ، تاريخ ابى الفدا مجلد ٢ ص ٩٧ .
وتوزر : مدينة فى اقصى افريقية من نواحى الزاب الكبير ، وتقيوس قريبة منهـا .

(١٧) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ١٨ وما بعدها .

وقتل عددا كبيرا من أهلها ، وزاد أمره ظهورا واشتدادا سنة ٣٣٢ هـ ، فدخل الى القيروان ، ودعا الى مجاهدة الشيعة •

موقف الخـــلافة منه :

كل ذلك والخليفة الفاطمي يستهين بأمر الثائر ، ولا يكلف نفسه اعداد الجيوش ورسم الخطط الحربية لمناهضته ، مما دفع « أبا يزيد » الى التمادى فى العصيان ومحاصرة بلدان القائم ، حتى تم له فتح باغاية ، وقسطيلة وتبسة ومجانة ومرمجنة وسبيتة(١٨) ، ثم الاربس أخيرا ، ولمـــا وصلت المسألة الى هذا الحد فى افريقية ، وسمع بها أهل المهـــدية ، هرعوا الى الخليفـــة وعظموا ذلك لديه وقالوا له : « ان الاربس باب افريقية ولمـــا أخذت زالت دولة بنى الأغلب » فقال : « لابد أن يبلغ أبو زيد المصلى وهو أقصى غايته » يقصد أن لديه علما سابقا ومعرفة متوارثة عن الكتب والآباء بالمدى الذى سيصل اليه ذلك الثائر ، وأنه سوف يحاصر المهدية ويكون على رمية ســـهم منها ولا يتجاوز ذلك •

بدء الحركات الحربية ضد الثورة :

ومع ذلك فقد أعد « القائم » الجيوش ، وهيأ العساكر ، وعهد اليها بمهمة ضبط البلاد ، ولإعادة السكينة اليها ، فذهب جيش الى « رقادة » وآخـــر الى « القيروان » وثالث الى « باجة » بقيادة « الفتى بشرى » ، كما كان على بقية الجيوش « ميسورا الفتى » •

وقد التقى جيش « بشرى » مع جموع الثائرين فى « باجة » ، وأمكنه انتزاع النصر لصالح الفاطميين ، ولم يبق مع الثائرين سوى

---

(١٨) قسطيلة : مدينة كبيرة من ارض الزاب ، تبسه : مدينة اثرية قريبة من القيروان ، ومجانة قريبة منها كذلك ، مرماجنه : مدينة قريبة من جبل الأوراس ، ســبيته ، ناحية بافريقيا من اعمال القيروان •

أربعمائة جندى استطاع بهم أن يأتى الجيش الفاطمى من الخلف ، وبصورة لم تخطر لهم على بال ، فارتبكوا وقتل منهم كثير ، وانسحب الباقون ، فقوى شأن أبى يزيد مرة أخرى ، وهابته القبائل ودخلت فى طاعته وقدمت له آلات الحرب والقتال .

وهنا نجد الخلافة الفاطمية ، تلجأ الى وسيلة جديدة تكسب بها ود الرجال ، فقد أغرق القائد « بشرى » الناس بالعطايا ، وأمدهم بالأموال ، وجهزهم بالمعدات ، ثم دخل بهم فى معارك مع عدوه كانت نتيجتها انتصار الجيوش الفاطمية ، وقتل من أصحاب أبى يزيد أربعة آلاف ، وأسر خمسمائة أرسل بهم الى « المهدية » مصفدين فى السلاسل فقتلهم العامة هناك(١٩) .

نكسة للجيش الفاطمى :

لم ييأس الثائر من انهزام جنده ، وانما جد فى جمع الرجال واعداد العساكر ، حتى تم له مائة ألف من البربر ، زحف بهم نحو « القيروان » وهزم الكتاميين بالقرب منها ، وطاردهم حتى « رقادة » حيث نزل بالجهة الشرقية منها ، وأرسل سراياه وجنوده ، تنهب وتقتل ، وترتكب الأعمال الشنيعة ، والوالى الفاطمى على تلك المدينة يرهبه ويخشى بأسه ، ويؤثر انتظار العساكر الفاطمية بزعامة « الفتى ميسور » .

وأخيرا وصلت الجيوش الفاطمية ، وبينها من يعمل لصالح عدوها ، ويمثل « طابورا خامسا » عليها ، فقد كان من مع « ميسور » من « بنى كملان » من يكاتب « أبا يزيد » ، وتم الاتفاق بينهم على تسليم القائد « ميسور » الى الثائر وتمكينه من هزيمته ، لكن الخليفة الفاطمى كان حذرا ، وعرف بذلك عن طريق دساتيسه ، وأرسل الى قائد جيشه

---

(١٩) ابن ابى دينار : المونس ص ٥٥ .

يعلمه بذلك ، ويأمره بطرد « بنى كملان » ، ومع ذلك فلم يجد ذلك التصرف شيئا ، فقد التقى الفريقان ، وتحامل « بنو كملان » على القائد الفاطمى حتى قتلوه ، وطيف برأسه فى « القيروان » ، وانهزم العسكر بانهزامه ، وانتشر البربر يقتلون وينهبون فى البلاد .

الجيش الفاطمى يحصن « المهدية » ويستعد فيها :

عندما عرف الناس فى « المهدية » بنكبة جيش « ميسور » ، خافوا وهجروا أرباض المدينة ، واحتموا بسورها ، اذ أن الكرة القادمة ستكون عليهم ، لكن الخليفة طمأنهم ووعدهم الانتصار ، واتخذ من الوسائل ما يمكنه من هزيمة عدوه ، فأمر الرجال بحفر الخنادق حول « المهدية » وكتب الى القبائل والى سادات « كتامة » والى « زيرى ابن مناد » سيد « صنهاجة » يحثهم على المجىء اليه لمقاتلة الثوار ، فاستجاب له كل هؤلاء ، واستعدوا للمسير اليه .

وهنا نجد تطورا فى العناصر التى تكون الجيش الفاطمى ، فلأول مرة يتجه الخليفة الى قبيلة « صنهاجة » ويطلب منها أن تنخرط فى سلك جيشه وأن تنضم الى الأجناس التى تحمى وجود الدولة الفاطمية .

وسيكون وجود هذه القبيلة من أكبر عوامل انتصار العسكر الفاطمى فيما بعد ، وستبذل مجهودا كبيرا وناجحا فى تدعيم أركان الحكم الفاطمى فى بلاد المغرب ، ونشر الأمن فى جوانبه .

حصار « المهدية » :

ومهما يكن من أمر ، فقد توجه « أبو يزيد » الى « المهدية » ونزل على خمسة عشر ميلا منها ، واستعد لمواجهة الصنهاجيين والكتاميين ، ثم التقى مع عسكر القائم بالقرب من المهدية وعلى بعد

ستة أميال منها[٢٠] وأمكنه أن يهزم الكتاميين ، وأن يسير فى أثرهم حتى أشرف على المهدية نفسها ، ثم عاد الى معسكره ، وقسم جنده الى فرق هاجم بها العاصمة الفاطمية ثانية ووقف على خندقها وقاتل العبيد عليها ، وهزمهم ، ووصل الى باب « المهدية » ولم يعد بينه وبينها سوى رمية سـهم .

بيد أن الكتاميين على الجانب الآخر من المدينة ، استطاعوا قتل كثير من البربر من أصحاب « أبى يزيد » وفى الوقت نفسه وصلت جموع من « صنهاجة » الى مكان المعركة ، الشىء الذى قويت به نفوس العساكر الفاطمية ، واشتد بأسها فى القتال ، حتى حملت عدوها على التراجع حيث حفر خندقا على عسكره واجتمع اليه الكثير من طرابلس وقابس ، والبربر من نفوسة والزاب وأقاصى المغرب[٢١] .

الجيش الفاطمى يحمل « أبا يزيد » على رفع الحصار :

استمر أصحاب « الثائر » ينهبون ويفسدون ، حتى اذا فنى كل شىء ، ولم يبق ما ينهب ، توقف البربر عن المجىء اليه ، ولم يبق معه سوى أهل « أوراس وبنى كملان » ، مما يدل على أن أصحابه لم يكونوا يقاتلون دفاعا عن مبدأ يعتقدونه بقدر ما كانوا حريصين على السلب واستنزاف المـال بدون مجهود .

وقد كان تخلي أصحاب الثائر عنه نقطـة البداية فى نهايته ، بعد أن وصل الى الذورة فى ارهاب وتخويف الفاطميين ، يضاف لذلك أن بعض أصحاب الثائر هرب الى المهدية ، وحاربوا فى صف القائم ، وكشفوا عوار « أبى يزيد » .

---

(٢٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٣

(٢١) ابن ابى دينار : المونس ص ٥٧

ولذلك ما كاد يهاجم المهدية حتى تصدى له مائتا فارس من كتامة ، وحملوا عليه حملة رجل واحد ، فقتلوا وأسروا كثيرا من أصحابه، وانفض جنده من حوله ، ولم يبق معه سوى هوارة وبنى كملان •

وقد تجمعت عوامل النحس على أبى يزيد ، فقد تركه الباقون من أصحابه وعادوا الى القيروان وكانوا نحو ثلاثين رجلا هم كل من بقى من أصحابه ، وخرجت الجنود الفاطمية الى معسكراته تستولى على المغانم والأطعمة ، فتحسنت حالهم بذلك •

وهكذا نجح الجيش الفاطمى فى تخليص الخلافة الفاطمية من شر مستطير ، ضيق عليها فى عاصمتها ، وكاد يقضى عليها ، لكن مهمة الجيش لم تنته عند ذلك الحد ، وانما كان عليه أن يقوم بمجهودات أخرى حتى يخلص البلاد تماما من شر ذلك الثائر عليها •

الجيش الفاطمى يحارب الثائر فى افريقية وتونس :

استطاع «أبو يزيد» بعد هزيمته أن يكون لنفسه أعوانا وجندا جددا فى القيروان ، وكان رجاله من البربر ، يشيعون الفوضى والنهب ارضاء لرغبة فى نفوسهم ، ولذلك أرسلهم فى نواحى « تونس» وأمرهم بالقتل والنهب والتخريب ، فارتكبوا من السبى والارهاب ما لا يوصف كما ارتكبوا جرائم أخلاقية •

وقد تصدى لهم جيش الفاطميين ، ودخل معهم فى معارك عدة ، انتصر فى بعضها وهزم فى الأخرى ، ثم جد « أبو يزيد » فى جمع العساكر حتى اكتمل له سبعة وثمانون ألفا من البربر ، حاصر بهم مدينة « سوسة » حصارا شديدا ، ونصب عليها الدبابات والمنجنيقات وقتل كثيرا من أهلها ، ومع ذلك فقد نجح الجيش الفاطمى فى الدفاع عنها ، ومنع أهلها الثائر منها لشدتهم وبأسهم ، وتغنى بذلك شاعرهم فقال :

ان الخوارج صدها عن سوسة منا طعن السمر والاقدام
وجلاد أسياف تطاير بينها في النقع دون المحصنات سهام

ثم توفى « القائم » والمدينة محاصرة فى رمضان سنة ٣٣٤ هـ وتولى المنصور الخلافة وأعفى موت أبيه خوفا من الثائر وقضى عيد الفطر وهو فى جهاد مع غدوه[٢٢] .

الجيش الفاطمى يدخل مرحلة جديدة بتولية المنصور :

يمثل تولى « المنصور » الخلافة ، مرحلة هامة نحو القضاء الحاسم على تلك الثورة ، اذ أننا سنصادف عزما أكيدا ، وتصميما قويا على وضع حد لتلك الحركة مهما كلفه ذلك من ثمن وتضحيات ، ولذلك عمل مراكب عدة ، شحنها بالمقاتلة ، وبعث بها الى « سوسة »[٢٣] وولى القيادة عليها « رشيق الكاتب ويعقوب بن اسحاق » ، ثم سار بنفسه ليشارك فى القتال ، غير أن أصحابه تضرعوا اليه ألا يخاطر بنفسه ، فاستجاب لهم ، وأرسل الى قائديه يأذن لهما فى الحرب ويطلب منهما الجد فيه ، فدخل هؤلاء مع أصحاب أبى يزيد فى معركة هائلة ، وأضرموا النار فى حطب كان قد جمعه ، فى دبابته ، فخاف الثائر وظن أن أعوانه قد هلكوا جميعا ، والا ما تمكن غدوهم من احراق الحطب وتعذرت الرؤية بسبب الدخان والظلام ، وتمكن جيش « المنصور » من اعمال السيف فى عدوه ، وحرق خيامه ، وشرده ، وفر « أبو يزيد » حيث لستقر به المقام فى ناحية « سبيته » على مسافة يومين من القيروان .

« المنصور » يقاتل بنفسه مع الجيش ويرسم خططه :

وصله الخليفة الفاطمى أخبار انتصار جيشه ، فانتقل الى مدينة « سوسة »[٢٣] وأرسل منها يطمئن أهل « القيروان » ، ويعدهم خيرا ،

---

(٢٢) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٢٢ .
(٢٣) سوسة : الصحيح انها مدينة صغيرة بافريقية .

ثم رحل الى تلك المدينة ، وكان « أبو يزيد » قد استطاع أن يجمع له أنصارا ، ونجح فى اعداد كمين هزم جندا للفاطميين ، فسارع الناس اليه ، وكثر جمعه ثانية ، وقسم رجاله الى ثلاث فرق ، وقصد المنصور — وكان فى خندق على رأس فرقة فيها كبار الشجعان من أصحابه — ودار قتال انتصر فيه الخليفة الفاطمى ، ولما عاد « أبو يزيد » الى « المنصور » مرة ثانية ، باشر الخليفة القتال بنفسه كذلك ، وجعل المظلة على رأسه ، وحارب فى خمسمائة وثلاثين ألفا تمكنوا من رده الى خندقه فى عشرين فارس فقط .

ومع ذلك فقد ثبت المنصور فى مكانه ، وشهر سيفه وحمل على عدوه وقتل كثيرين منهم ، وشاهد الناس من شجاعته ما لم يظنوه ، وزادت مهابته فى نفوسهم ، ثم رحل « أبو يزيد » الى القيروان ، وكون لنفسه جيشا عاد به ثانية ودخل مع الجيش الفاطمى معارك حامية كانت نتيجتها سجالا بين الطرفين .

وجاءت سنة ٣٣٥ هـ والحرب لا تزال مستمرة ، والناس فى بؤس شديد وأخيرا نظم الجيش الفاطمى نفسه ، ورسم لنفسه خطة جديدة ، فجعل الخليفة أهل افريقية فى الميمنة ، وكتامة فى الميسرة ، وهو ومن معه من خاصته وعبيده فى القلب ، وبدأ قتال شديد انهزمت فيه ميمنة الفاطميين ، وحمل « أبو زيد » على القلب ، فبادر الخليفة اليه ، وحمل هو ومن معه عليه حملة رجل واحد ، فانهزم أمامهم ، وفر أصحابه وأسلموا أثقالهم ، وقتل المنصور الكثيرين من أعوان « أبى يزيد » أما الثائر نفسه فقد أخذ يهيم على وجهه ، وجيوش المنصور تطارده ، فمر بسبيته ، فمرجانة ، فملاق ، فباغاية ، فبلزمة ، فنقاوس فطبنة(٢٤) .

---

(٢٤) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٨٨ .

الجيش الفاطمى يصل الى نصر نهائى :

تجمعت أسباب الانتصار للخلافة الفاطمية ، فانضم لجيشها عساكر جديدة من برقة وغيرها ، كما التحقت بقوات الجيش وفود جديدة من صنهاجة وعجيسة . وتنقل الخليفة بين البلاد ، ووزع الهبات والعطايا بوفرة على الجند والأعوان ، كذلك أتته بعض الرسل من قبل اتباع « أبى يزيد » تعلن ولاءها له ، واقامتها دعوته فشكر المنصور صنيعهم ووصلهم بعشرة آلاف دينار(٢٥) .

وكان لوجود هــذه العناصر الجديدة فى جيش الخليفة الفاطمى ، وأسلوبه فى افاضة العطايا ، أثره فى هزيمة عدوه ، فقد صفت قلوب الناس ، وحاربوا معه فى بسالة واقدام حملت عدوه على أن يلتحق بقلعة فى جبل تسمى قلعة « كتامة » ، فقصدت العساكر الفاطمية تلك القلعة ، واحتشدت فيها ، وعاونها أسطول من خمسة وعشرين مركبا ، ورسمت خطة مكنتها من محاصرة القعلعة من جميع جهاتها ، وأشعلت النار فى أرجائها ، وقاتلت هوارة وبنو كملان فى اصرار وحمية .

وأخيرا نجح الجيش الفاطمى فى أسر « أبى يزيد » وجىء به الى المنصور سنة ٣٣٦ هـ فسجد شكرا لله ، ومات الرجل متأثرا بجراحه، فأدخله « المنصور » قفصا ، وجعل معه قردين يلعبان ، وسلخ جلده ، وحشاه تبنا ، ثم حمله الى المهدية وصلبه على سور بها حتى نســفته الريح(٢٦) .

وقد بنى الخليفة الفاطمى مدينة فى مكان المعركة الأخيرةسماها المنصورية تفاؤلا بانتصــاره(٢٧) .

---

(٢٥) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٨٩ .
(٢٦) ابن ابى دينار : المونس ص ٥٤ ـ ٦٠ .
(٢٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢١٢ وقد تحدث من هــذه الثورة بصورة وافية كل من : ابن الأثير : الكامل : جـ ٨ ص١٥٠

وهكذا تم القضاء نهائيا على تلك الحركة الثائرة بعد أن استمرت مدة طويلة ، تمثـل خطرا داهما على الدولة وتسـتنفد كل جهودها ومواردهـا •

دلالات الحركات الثورية ضد الفاطميين :

كانت تلك أهم الثورات التى تعرض لها الفاطميون خلال حكمهم فى افريقية ، فما مدلول هذه الثورات ، وما المعانى التى تكمن وراءها ، انها تعنى :

١ ــ أن المذهب الشيعى لم يتمكن من تثبيت أقدامه فى البلاد ، وأن الناس ما زالت تميل عنه الى عقائد أخرى ، ولذلك خرجت كل من « تيهرت » و « سجلماسة » على الحكم الفاطمى بعد فتحها بفترة وجيزة ، وولى أهلها على أنفسـهم ولاة ينتمون الى أسرة الخوارج التى سبق لها الحكم فى كلتا البلدتين ، وقد ظلتا فى حالة اضطراب وعصيان الى أن انتهى الحكم الفاطمى من بلاد المغرب •

حقيقة قد خيم الهدوء على كلتيهما فترات ، لكن ذلك كان يفرضه السيف المصلت على الرءوس ، وسرعان ما كان يجاهر أهلها بالعصيان اذا ما واتتهم الفرص لذلك •

وربما كان مرد كراهية الناس لمذهب الشيعة ، أنهم حملوا حملا على اعتناقه ، ويدل على ذلك ما يرويه « ابن خلدون » من أن الوالى الفاطمى على « تيهرت » سنة ٢٩٨ هـ « أمحى فى مؤامرتها الأباضية من لمـاية وأزدلجة ولوايه ومكناسـة ومطماطة ، وحملهم على دين الرافضـة »(٢٨) •

وما بعدها حوادث ٣٣٣ هـ ، المقريزى : اتعاظ الحنفـا جـ ١ ص ١٠٩ وذلك فيما يتصل بعصر « القائم » أما عهد (المنصور) فقد فصل الكلام فيه : ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ١٨ وما بعدها •

(٢٨) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٢٢ •

ولذا كان « ابن أبى الضياف » يذكر حب آل افريقية جميعــا « لعلى بن أبى طالب » ، « جبلة فى طباعهم حتى ان نساءهم لتدعو باسمه عند الولادة »[29] ، فربما كان مرد ذلك لا باعتباره امام الشيعة ورجلها المقدس ، بل باعتبار أنه صاحب النبى ﷺ ، وابن عمه وزوج ابنته ، ولمـــا يتميز به من صفات نادرة وخلق رفيع . والا فلماذا لم يعمر المذهب الفاطمى فى هــذه البلاد طويلا ، ولمـــاذا عادت افريقية تخطب للعباسيين فى بغداد ، وترفض التبعية لمصر الفاطمية منــذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، وبعــد أقل من قرن من مغــادرة « المعز » الفاطمى لها ؟

٢ – تؤكد هذه الثورات ما يوصف به البربر من أن طبيعتهم تميل للقتال ، ويشعرون برضى فى النفس عندما يرفعون السلاح ويسفكون الدماء ، ويميلون الى حياة الفوضى والسلب والنهب ، ولعل معيشتهم الصحراوية البدوية ، هى التى جعلتهم يألفون هــذا اللون من الحياة ، فقد انضموا « لأبى يزيد » فى ثورته الكبرى ضد الفاطميين ، لأن ذلك أتاح لهم فرصة نهب الخيرات ، فكانوا أعوانا للثائر حين مكنهم من الغصب والسطو على ما فى أيدى الناس ، حتى اذا نضب المعين أمامهم ، ولم يوجد ما يســتولى عليه ، بدأ البربر يفرون من حــول الثائر ، ويتركونه ينسحب من حصاره للمهدية فى ثلاثين نفر فقط ، بعد أن كان أعوانه ألوفا جاوزت الثمانين .

٣ – يبدو أن الشعب كان يعانى آلاما اقتصادية ، ويعيش فى حالة من البؤس ينتظر المخرج منها ، وكان ايمانهم بفكرة « المهدى المنتظر » يقدم لهم طاقة من الصبر ، عسى أن يأتيهم ذلك المخلص وينتزعهم مما هم فيه ولذلك فرحوا عندما ظهر الخليفة الفاطمى بينهم ، ولكن سرعان ما خاب أملهم فيه ، فقد ظل حالهم كمــا كان قبل ، وأمكن لعدد من الثائرين بعد ذلك أنه يدعى أنه « المهدى المنتظر »

---

(٢٩) اتحاف اهل الزمان جـ ١ ص ١٢١ .

الحقيقى • وأن خلاص العالم سيكون على يديه ، وكان يستطيع تجميع الناس حوله عن هـذا الطريق ، حدث ذلك من كتامة ، عندما نصبت غلاما وجعلته اماما بعد مقتل « الشـيعى الحسين » ، كما تكرر ذلك فى عهدى القائم والمنصور •

٤ ــ تؤكد هـذه الثورات أن « كتامة » قد حظيت بكل المناصب الهامة فى الدولة ، فأساء أفرادها السيرة ، وعاملوا الناس بقسوة ، وانتشر جنودها فى الأرض ، يعيثون فسـادا ويغتصبون الأموال ، وكان طبيعيا أن يقوم الناس بثورات ضدهم نتيجة سوء سيرتهم ، وهـذا هو ما دفع أهل « طرابلس » الى الثـورة على الـدولة ، واليه يرجع قيام أهل « القيروان » بثورتهم ضد استبداد حكامهم ، وتطاولهم عليهم ، كما كان السبب نفسـه وراء ثورة « الصقليين » وأهل « جرجنت » على الفاطميين ، فقد كان واليهم اما سيىء السيرة ظالمـا ، واما ضعيفا عاجزا يسـمح بارهاب الناس والسيطرة عليهم ، كما حدث « لعطاف » والى « صقلية » الذى استبد « بنو الطبرى » فى أيامه وأرهبوا الناس ، بل انهم وثبوا بالوالى نفسه وقتلوا عددا من رجاله واضطروه للهرب ، مما حمل الروم على انتهاز فرصة ضعف المسـلمين وانقسامهم ، وقطعوا مال الهـدنة عنهم وسـيأتى مزيد بيـان لذلك •

٥ ــ تدل هـذه الثورات على قيام البربر فى شكل حزبيات ، تتجمع كل مجموعة منها ضد غيرها ، وتعمل على قهرها وبسط سلطانها عليها ، وكان عدم وفاء الصحراء بحاجتهم يسبب وجود هـذه الحالة عندهم فيتنازعون ويتعادون ثم لا يلبث أن يستقر العداء فى نفوسهم ، ويحملهم على أن تقف الواحدة منهم فى صف ضد الأخرى ، وهذا ما يفسر وقوف « صنهاجة » فى جانب الفاطميين ، أثنـاء ثورة أبى يزيد ، لأن زناتة ــ عدوة صنهاجة ــ قد اختارت حرب الفاطميين ومناصرة « أبى يزيد » •

٦ ــ يمكن أن نستنتج من تصدى الجيش الفاطمى لهذه الثورات ، أن ذلك الجيش ، كان يتكون بصفة رئيسية من كتامة ، الى أن حاصر « أبو يزيد » المهدية أيام الخليفة « القائم » ، عندئذ وجدنا الخليفة الفاطمى يرسل الى « صنهاجة » ويطلب منها أن تناصره الى جانب « كتامة » .

ومنذ ذلك الحين ، وكتامة وصنهاجة ، هما الأساسان اللذان قام عليهما بناء الدولة الفاطمية . وكونا أساس جيشها ، والى جوارهما وجدت بعض القبائل التى انتصرت الشيعة فى مرحلة أو فى أخرى ، مثل مكناسة التى توجهت مع الفاطميين الى « تيهرت » وشاركت « كتامة » فى اعادة فتح هــذه المدينة ، ومثل « عجيسة » التى قاتلت فى صف العبيديين أثناء ثورة « أبى يزيد » .

٧ ــ رأينا اختيار الخليفة « القائم » قبيلة صنهاجة ، واستمداده الجنود منها عندما حاصرته جيوش « أبى يزيد » فى المهدية ، ولعل ذلك يثير تساؤلا فحواه لمــاذا اصطفى « صنهاجة » بالذات وأرسل اليها دون بقية القبائل ؟ .

الواقع أن العداوة كانت قد تمكنت بين صنهاجة وبين زناتة ، بسبب تصــدى « زيرى بن مناد الصنهاجى » للزناتيين ، وتخليصه السكان من بطشهم واستبدادهم ، ونشره الأمن فى البلاد .

ومعروف أن « زناتة » ناصرت « أبا يزيد » وكانت عونا له على الفاطميين ، وقد لاحظ الخليفة « القائم » ذلك ، واختار ســيد « صنهاجة » وأرسل اليه واضعا فى الاعتبــار عداوته « لزناتة » المناصرة « لأبى يزيد » .

وقد أخبر الخليفة زعيم الصنهاجيين بما يعيش الناس فيه من جهد وغلاء ، بسبب حصار المهدية ، فبعث اليه « زيرى الصنهاجى » بألف حمل حنظلة ، وأخرج مائتى فارس من صنهاجة ، وخمسمائة من عبيده ،

ولما وصل ذلك الى « المهدية » سر به « القائم » وأرسل الى رئيس « صنهاجة » هدية من « كسا جليلة وخيل مسرجة محلاة »[٣٠] وأضحى «زيرى» من أكبرأعوان «بنىعبيد» الذين استظهروا بهم على عدوهم من « زناتة »[٣١] وقد خلعت الخلافة الخلع على الأعوان الجدد فى عهد « القائم والمنصور » ، ومنحتهم الهبات السنية ، وأفاضت عليهم افاضة سلمت بها قلوبهم ، وصفت نياتهم[٣٢] ، وسوف يستمر هؤلاء الصنهاجيون قوة فى الدولة الفاطمية وسيفا مصلتا على عدوها الى أن ينتقل الفاطميون الى مصر ، ويتركون الحكم لهم ، ليكونوا نوابهم والعاملين على بلاد المغرب باسمهم ، وستستمر « صنهاجة » تحكم بلاد المغرب نيابة عن الفاطميين حتى عام ٤٤٣ هـ ، وفى هذا العام سيجرؤ الوالى من « صنهاجة » على قطع خطبة الفاطميين والدعاء فى البلاد باسم العباسيين •

٨ ـ تدل هذه الثورات على ضيق بعض القبائل بكتامة ، وعملها على مقاومتهم وانتزاع السلطة من أيديهم ، وفى هذا المجال نذكر نفوسة وهولرة ولماية وزناتة على سبيل المثال •

٩ ـ لعل من الانصاف أن نقول ان ثورة « كتامة » على « المهدى » عقب قتله للشيعى الحسين ، فيها ما يدل على وفاء هؤلاء الناس لمن عاشرهم ، وتعلقهم بمن يحتمى بهم ، ويأوى اليهم ، ولذلك ساءهم أن ينتهى ذلك الانسان بهذه الصورة المؤلمة ، بعد ما جاهد فى سبيل نقل الحكم الى الفاطميين •

ولكن عذر « المهدى » أن الشيعى الحسين كان يتمتع بثقة الناس ، وله شعبيته فيهم ، ولذلك كانت دعوته كفيلة بانهاء الحكم الفاطمى ، ولم يجد الخليفة وسيلة تخلصه وتبقى على دولته الا قتل داعيته الكبير حتى يتخلص من تأثير شخصيته القوية على الناس •

---

(٣٠) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ورقة ٤٧ •
(٣١) احمد بن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان جـ ١ ص ١٣١ •
(٣٢) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٢٩ •

١٠ — تدل ثورة « أبى يزيد » خاصة : على أن صاحبها قد جاوز حد الدين ، على الرغم من خروجه على الفاطميين باسم ذلك الدين ، لقد كانت دماء المسلمين تسفك أمامه ، وحرمات الدين يعتدى عليها ، والأموال تنهب وتسرق وتغتصب ، والمدن تخرب وتحرق على ساكنيها ، كل ذلك وهو لا يستنكر وما خرج الا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر محتسبا على الناس فى أفعالهم ، بل أكثر من هـذا عاون جنده على ارهاب الآمنين ، وأمرهم بالقتل والاحراق والتمثيل بثا للرعب فى قلوب الناس ، وكأن رعب الرعية واخافتها ، أهون وأولى بالاعتبار مما يأمر به الدين الحنيف ، من حماية للدم ، وتحريم للنفس ، ونهى عن سفك دمها بغير حق ، ومن ناحية أخرى ، كان قوام هـذه الثورة هو « عداوة الأمة لمذهب الحكومة ، ونفور القبائل من تحت حكامه »[٣٣] فهى اذا ثورة قومية مذهبية فى واقع الأمر[٣٤] .

١١ — اعتمد الفاطميون على أسطول قوى — الى جانب الجيوش البرية القبلية — وقد اشترك ذلك الأسـطول فى كل حروب الدولة بصقلية ، ومع الروم ، وضد الخلافة الأندلسية ، وقام بدور هام فى تلك المنـاطق ، لأن طبيعتها ساحلية تسـمح باستخدامه فيهـا ، وسيأتى شرح لذلك .

وقد مر بنا اعتماد الخليفة « المنصور » على الأسطول فى قتاله ضد « أبى يزيد » وفى مراحل مختلفة من تلك الثورة .

والواقع أن الفاطميين اعتنوا بالأسـطول منذ فجر دولتهم ، فهيأ له « المهدى » دار صناعة ، شحنها بالعمال وأنفق عليها الأموال . ولم يبخل عليها بأى عون ، فقد كان وجوده ضروريا لحماية السواحل

---

(٣٣) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٨٧ .

(٣٤) انظر : ابن خلدون : المقدمة ص ٦٢٩ ، ٦٣٠ جـ ٢ ط القاهرة ١٩٥٨ بتحقيق على عبد الواحد وافى ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ . العـدوى « الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط » ص ١١٤ وما بعدها ، القاهرة ١٩٥٧ م .

الفاطمية ، وللحروب ضد الروم وضد الشعوب الأوربية فى البحر الأبيض المتوسط •

وقد رسم « ابن خلدون » ، صورة وافية لما قام به الأسطول والبحرية فى عصر الدولة الفاطمية فقال :

« كانت أساطيل افريقية والأندلس فى دولة العبيديين والأمويين ، تتعاقب الى بلادهما ••• فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب ، وانتهى أسطول الأندلس أيام « عبد الرحمن الناصر » الى مائتى مركب أو نحوها وأسطول افريقية (أسطول الفاطميين) كذلك مثله أو قريبا منه •

وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم •••• وكان « أبو القاسم الشيعى وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية ، بجزيرة «جنوة» فتنقلب بالظفر والغنيمة ••• والعساكر الاسلامية تعبر البحر فى الأساطيل من صقلية الى للبر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الافرنج ، وتثخن فى ممالكهم ، كما وقع فى أيام بنى الحسين ملوك صقلية القائمين بدعوة العبيديين •• »[٣٥] •

ولذا سألنا أنفسنا بعد ذلك عن « التكتيك الذى اتبع فى المعارك » فسنجد أنه كان الكر والفر ، ثم أسلوب الصف ، ثم نظام الكراديس •

ونظام الكر والفر هو أن يحمل المقاتلون بكل قوتهم على العدو فاذا انهزم أمامهم طاردوه انتهت المعركة ، أما اذا أحسوا بالضعف فانهم

---

(٣٥) انظر الشيال « تاريخ مصر الاسلامية » جـ ١ ص ٣٠٤ القاهرة ١٩٦٧ م •

ينسجون الى الخلف لتنظيم الصفوف ثم يعيدون الهجوم ثانية ، وهكذا المرة بعد المرة حتى تنتهى المعركة .

أما نظام الصفوف فهو أن يجتمع الناس صفين أو أكثر يكون فى الأول حاملو الرماح ثم يليهم حاملو السهام والسيوف ، فاذا التقى الجمعان بدأت الحرب بمناوشات فردية ثم تزحف الصفوف للمقاتلة بدون كر أوفر .

وأما الكراديس ، فهى طريقة قد أخذها العرب عن الروم ، وفيها يقسم الجيش الى مجموعات كل منها تسمى « كردوساً » ويجب أن يختار رجال كل « كردوس» من جماعة أو قبيلة واحدة ليمكن تعارفهم ، ثم تقسم « الكراديس » الى وحدات أصغر يجعل قيادتها للشجعان ، ويمكن للقائد بعد ذلك أن يجمع كراديسه بعضها الى بعض حسب نظام الخميس ويقسمها الى قلب ومقدمة ومؤخرة وجناحين ، وذلك ليتمكن القائد من السيطرة على قواته ، وخصوصاً لذا كان عددها كبيرا(٣٦) .

هذه أشهر أساليب القتال فى العصور الوسطى ، فبأى منها أخذ الفاطميون ؟ مما يؤسف له أن الباحث ليس لديه ما يستطيع تقديمه فى هذا الصدد ، لانعدام المادة العلمية الخاصة بهذه الناحية ، فهى مفقودة كلية من المصادر ، ومع ذلك فيمكن عن طريق تحليل معارك الجيش الفاطمى ، أن نقول : ان طريقتى الكر والفر والصفوف عرفهما الفاطميون فى حربهم لعدوهم ، واستخدموا هذا مرة وذاك أخرى حسب ما يقتضيه الموقف وطبيعة الحال .

هذا ويستظهر الأستاذ « احسان هندى » أن الجيوش الفاطمية كانت تعبأ بطريقة « الكراديس » ويقدم ــ بناء على ذلك ــ تشكيلات

---

(٣٦) احسان هندى : الحياة العسكرية عند العرب ص ٤٦ طبع دمشق سنة ١٩٦٤ م .

يقول انها مجرد فرض من منطقية يعوزها الدليل التاريخى ، ويرى أن بداية هـذه التشكيلات كانت وحدة صغيرة ، هى الصف الذى يحوى ١٦ رجلا ، وأن نهايتها هو المعسكر الأعظم الذى يحوى (١٦٣٨٤ رجلا)، وبين هذين يوجد « الكردوس » ويحوى ثمانية صفوف أى ١٢٨ رجلا ، ثم الجحفل ويحوى ٢٥٦ رجلا ، والكوكبشـة وتحوى ٥١٢ رجلا والزمرة وتحوى ١٠٢٤ رجلا ، والطائفة وتحوى ٢٠٤٨ رجلا ، والجيش ويحوى ٤٠٩٦ رجلا ، والخميس ويحوى ٥١٢ صفا أى ٨١٩٢ رجلا[37] .

ويغلب على ظننا أن هـذا النظام ربما أخذت به الدولة الفاطمية ، لكن بعد أن استقر لها الأمر ، واستتب لها الحكم ، وكثر التابعون والموالون لها ، أما فى البداية فقد استخدمت طريقة الكر والفر ثم قابلت أعداءها وواجهتهم فى صورة صفوف متواحدة متقابلة ، فقضت على عدوها ، وحققت النصر لنفسها .

١٢ — فوق ما مر يعتبر العبيد من أهم ما اعتمد عليه الخلفـاء الفاطميون فى جيوشهم وحروبهم ، وقد كانوا يحصلون على هؤلاء العبيد بطريق الشراء من صقلية وبلاد الروم[38] ، ويربونهم تربية خاصة ، ويعدونهم اعدادا عسكريا معينا ، فاذا ما اطمأنوا الى تدريبهم والى ولائهم ، ضموهم الى حاشيتهم وألحقوهم بجيوشهم ، وأسندوا اليهم مناصب الدولة الهامة ، وقد بلغت عدة هؤلاء العبيد اثنى عشر ألف مملوك فى عهد الخليفة المهدى[39] .

وقد مر بنا مشاركتهم فى الدفاع عن المهـدية عندما حاصرها « أبو يزيد » ومقاتلتهم للثائر ، واستماتتهم على سور تلك المدينـة ، وقد ترددت أسماؤهم فى مناسبات حربية مختلفة ، ووجد من بينهم

---

(٣٧) محمد كرد على : خطط الشـام ج ٦ ص ١٠ وما بعدها ـ دمشـق / ١٩٢٧ م ، احسان هندى : المرجع السابق ص ١٩٥ م

(٣٨) انظر : دائرة المعارف الاسلامية مادتى (صقالبة وصقلية) .

(٣٩) انظر : ابن ابى الضياف : اتحاف أهل الزمان ج ١ ص ١٢٢ .

من بزغ نجمه ، ووصل الى مرتبة القيادة مثل : ميسور الفتى ، وميسور الصقلبى ، و « جوهر » الذى وصل الى مرتبة الوزارة ، وكان موضع ثقة الخليفة « المعز » وحارب باسمه فى بلاد المغرب ، ودانت البلاد « للمعز » تحت قيادته الناجحة وبسببها .

تنظيم الجيش :

أما عن كيفيـة تنظيم الجيش ، فيفهم من المعـارك الحربية ، أن الخليفة كان يتوجه الى ولاته بطلب جمـع القادمين على الحرب ، كما كان يقوم بنفسه بذلك وعندما يتم اجتماع الناس يجتلب رضاهم بالمعاملة الحسـنة وتوزيع الأموال عليهم ومنحهم العطايا والهبـات وامدادهم بالأسلحة والمهمات . ثم يرسلهم بعد ذلك الى محاربة العدو مع قائد يوثق فى ولائه .

ولابد أن يكون أفراد الجيش من النوع الحريص على مصلحة الدولة ، العامل على بقائها ، الواقف بجانبها ضد عدوها .

وكانت الجيوش تنظم أثناء المعركة بالطرق العادية ، فيقف العسكر فى صورة صفوف متراصة متقابلة ، أو ينقسم الى ميمنة وميسرة وساقة ومقدمة وقلب .

وكانت الجيوش تتخذ الكمائن وتحرص على حصار عدوها فى منطقة « ما » ، وتنصب الدبابات والمنجنيقات على أسواره ، وتحرص على مباغتته ، واستمالة ضعاف النفوس من جنده ، ومنع الطعـام والزاد عنه ، وتتخذ لها أسطولا يشحن بالمقاتلة والجنود والامدادات ، ويعاون الجيوش البرية فى محاولة انتزاع النصر والتغلب على العدو .

(ب) دور الجيش الفاطمى فى توسيع رقعة الدولة :

رسمنا صورة للجيش الفاطمى ، تصوره يقمع الثورات ، ويقضى على الخارجين ويقف بالمرصاد لكل من أراد بالدولة سوءا ، فهل اقتصر دوره على ذلك أم اعتمد عليه فى شىء آخر خلاف ما مر ؟ •

الحـــق أن الفاطميين كانوا يهدفون الى السيطرة على العـــالم الإسلامى كله ، وكانوا يودون أن يكون الحكم لهم من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، وتحقيقا لهذا الهدف أخذوا من قاعدتهم فى بلاد المغرب يتحركون نحـــو البلاد الأخرى ، وأرسلوا الجيوش توســـع دولتهم ، وتضيف مناطق جديدة اليها ، والصفحات التالية محاولة لوصف سير الجيش واتجاهاته فى سبيل تحقيق ذلك الهدف •

الجيش الفاطمى يفتح « نكور » :

رغبت الخلافة الفاطمية فى أن يكون لها الحكم فى مناطق بلاد المغرب كلها فكتب الخليفة « المهدى » الى الحكام فى هـــذه المناطق يدعوها الى الدخول فى طاعته ، وأرسل بذلك الى حاكم « نكور » (سعيد بن صالح) ، فرفض الاستجابة للدعوة الفاطمية •

عندئذ أراد الخليفة اخضاعه عسكريا ، فأمر واليه على « تيهرت » (مصـــالة بن حبوس) بتكوين جيش ، والتوجه لفتح تلك المدينـــة ، فاستجاب للأمر ، وســـار على رأس قوات فاطمية ســـنة ٣٠٤ هـ ، وقد التقت بجيش لحاكم المدينـــة • وأثناء احتدام القتال حاول أحد أتباع « ســـعيد » أن يهجم على القائد الفاطمى ويفتك به ، غير أن الجند الفاطمى تمكن من أسره •

وكان أسر ذلك الرجل هو المفتاح الذى صنع نصر الفاطميين ، وهيأ لهم فتح المدينة ، ذلك لأنه أرشد الى جانب من المدينة ، كان خاليا من المدافعين ، وقد فاجأت العساكر الفاطمية جيش حاكم « نكور » من ذلك الجانب فخافوا وتفرقوا ، وقتل « سعيد » نفسه واستباح العسكر الفاطمى مدينته ، ونهبها ، واستمر القائد الفاطمى بها ستة أشـــهر ، ثم استخلف عليها ورجع الى « تيهرت » •

لكن أهل « نكور » ثاروا ضد الوالى الجديد وقتلوه ، واتخذوا خطوة من شأنها أن توسع نطاق الحرب ، وتحولها الى صدام بين الأمويين فى الأندلس وبين الفاطميين ، فقد ارتضوا لأنفسهم واليا جديدا ، وأرسلوا يستنجدون بالخلافة الأموية ، فأمدتهم ببعض المهمات وأيدت حركتهم •

وأرادت الخلافة الفاطمية أن تواجه الوضع الجديد ، وتضع حدا لما يحدث فى هذه المنطقة من بلاد المغرب ، فوجهت « مصالة بن حبوس » على رأس جيش اليها ، وتمكن من دخول المدينة الثائرة وضبطها ثم تركها الى فاس سنة ٣٠٨ هـ •

ولما عاودت العصيان مرة ثانية ، جهزت عساكر بقيادة « موسى ابن أبى العافية » حاصرتها وقتلت أهلها ، وهدمت سورها ، وكان ذلك سنة ٣١٧ هـ

وفى عهد الخليفة « القائم » تم اعداد جيش فى « المهدية » بزعامة « ميسور الفتى » ، أتبع بمدد آخر بزعامة « صندل الفتى » ، وكانت مهمة الجيش التوجه لفتح بلاد المغرب •

ولما علم صاحب « نكور » بخبر ذلك الجيش ، تحول الى احدى القلاع ، واعتدى فيها بالقتل على رسل الفاطميين الذين أرسلوا اليه ، الأمر الذى دفع الجيش الفاطمى الى التحرك نحوه فى قلعته ومقاتلته حتى تم الانتصار عليه ، وغنم كل ما معه وتوجهت الجيوش الفاطمية بعد ذلك الى « فاس » وما أن غادرت القوات الفاطمية « نكور » حتى ثار أهل المدينة بواليهم الكتامى وقتلوه ، وبعثوا برأسه — هو وبعض أصحابه — الى الخليفة الأموى فى الأندلس[٤٠] •

---

(٤٠) عن دور الجيش الفاطمى فى « نكور » انظر :
البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٩٤ وما بعدها ، ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب ج ١ صفحات : ١٨١ الى ١٨٧ •

وهكذا لم تسلم هـذه المدينة للفاطميين ، واستمرت متمردة على حكمهم الى أن أخضعها القائدة « جوهر » فى حملته على بلاد المغرب سـنة ٣٤٧ هـ .

الجيش الفاطمى فى فاس والمغرب الأقصى :

كان الأدارسة قد هاجروا الى بلاد المغرب الأقصى ، وأقاموا لهم دولة هناك سـنة ١٧٢ هـ ، وأراد الخليفة الفاطمى أن يسقط دولتهم ويحكم على أنقاضهم باعتباره الممثل الحقيقى لطائفة الشيعة .

وقد أعدت الخـلافة الفاطمية جيشـا كبيرا جعلت على قيادته « مصالة بن حبوس » وعهدت اليه مهمة فتح « فاس » العاصـمة الأدريسـية .

فتوجه القائد الفاطمى الى تلك المدينة ، وحاصر الامام « يحيى ابن ادريس » بها ، ثم عقـد معه صلحا على مال يؤديه ، وبايع للامام « المهدى » وأصبح بذلك تابعا للفاطميين ، وكان ذلك سـنة ٣٠٥ هـ .

وكان « موسى بن أبى العافية » — ابن عم القائد مصالة — قد شارك الجيش الفاطمى وعاونه فى مهمته بفاس ، ولذلك لما انسحب القائد مصالة من بلاد المغرب ، ولى موسى عليها مكافأة له ، وجعل « ليحيى الادريسى » الحكم فى مدينة « فاس » خاصة[41] .

لكن ذلك التصرف سيسبب للفاطميين كثيرا من المتاعب ، اذ أنه ازدواج فى السلطة سيؤدى الى التنافس واقامة الحروب ، فقد كان « يحيى » يفوق « ابن أبى العافية » بشرفه ونسبه ، ويحول بينه وبين الاستبداد ببلاد المغرب ، ولذلك أخذ يصطنع الحيل حتى أوغر صدر الفاطميين ، وقبض عليه وأهانه ورماه فى سجنه فترة طويلة[42] .

---

(٤١) السلاوى : تاريخ المغرب الأقصى جـ ١ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٤٢) ابن أبـى زرع : الأنيس المطـرب بروض القـرطاس جـ ١ ص ١١٦ .

وقد ثار أهل « فاس » على ولاة الفاطميين ، واحتجوا للمعاملة السيئة التى يلقاها أئمتهم ، وطردوا الولاة الفاطميين وأعادوا حكم الأدارسة مرة ثانية . وكانت هذه الخطوة دافعا للجيوش الفاطمية بقيادة « موسى بن أبى العافية » الى التوجه الى « فاس » ، حيث دخلت مع عسكر الأدارسة فى معارك حامية نجحت بعدها فى السيطرة على بلاد المغرب ، وكسبت مبايعة كثير من القبائل ثم زحفت الى « تلمسان ومليلة ونكور » وغيرها وأتمت فتحها .

وهنا نصادف نقطة تحول خطيرة فى علاقة قائد الفاطميين بدولته . فبدلا من أن يشكر « ابن أبى العافية » للخلافة التى هيأت له سبل المجد ، نجده يتنكر لها ، ويقطع الخطبة الفاطمية ، ويدعو للخليفة « الناصر » — خليفة الأمويين فى الأندلس — ويخطب باسمه .

وهذا العمل من جانبه سيعرض الخلافة الفاطمية لمواجهة الحاكمين فى الأندلس من بنى أمية ، وسيوسع نطاق الحرب .

ومع ذلك فقد أعدت الخلافة الفاطمية عشرين ألف فارس ، وجعلت على قيادتهم « حميد بن يصلتين الكتامى » ، وعهدت اليه بمحاربة « ابن أبى العافية » ، فدخل معه فى حروب عظيمة كان النصر فيها حليف الفاطميين ، وهرب « موسى » الى « تسول »(٤٣) وتحصن فيها .

ولم تنته مهمة الجيش عند هذا الحد ، فقد ثارت البلاد ضد الفاطميين مرة أخرى ، وتم اعداد جند جديد بزعامة « ميسور الفتى » ، حاصر « فاس » ستة أشهر ، ثم صالحه أهلها على ستة آلاف دينار وأشياء أخرى ، وأعادوا الخطبة الفاطمية الى منابرهم ، وتمكن الجيش الفاطمى من انتزاع أكثر ما كان مع « ابن أبى العافية » وأقام

---

(٤٣) تسول : مدينة على بعد عشرة أميال من فاس كانت معقل « موسى بن ابى العافية » .

وقد اعتمدت فى التعريف السابق لأسماء البلدان على كل من : ياقوت البلدان ، البكر : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب .

الدعوة الشيعية فيه ، أما « موسى » نفسه فقد ظل شريدا ببعض بلاد الصحراء الى أن قتل بملوية سنة ٣٤١ هـ أو ٣٢٨ هـ (٤٤) .

استمرت البلاد بعد ذلك تدين بالولاء للشيعة الى أن تجرأ واليها على قطع الخطبة الفاطمية ، وموالاة الأمويين بالأندلس أيام « المعز لدين الله » (٤٥) .

وزاد الموقف سوءا أن « زناتة » والبربر فى هذه النواحى ، أعلنت الحرب على الفاطميين ، وغلب الخليفة الأموى على جميع بلاد العدوة .

ازاء ذلك صمم الخليفة الفاطمى على تأديب الثائرين فى هذه النواحى فأعد جيشا كبيرا يزيد تعداده عن عشرين ألفا من صنهاجة وكتامة وغيرهما ، وجعل الأمرة علية « لجوهر الرومى وزيزى بن بن مناد الصنهاجى » وأمرهما أن يشددا وطأتهما على بلاد المغرب ، وتأديب الثائرين .

وقد توجه ذلك الجيش ، وقام بمهمته خير قيام ، وطهر جميع البلاد المغربية من أعداء الفاطميين .

فقد التقى الجيش الفاطمى بجموع « بنى يفرن » الزناتيين قرب « تيهرت » ، ونجح فى هزيمتهم وقتل أميرهم ، وطارد المهزومين وأحرق مدنهم .

بعد ذلك سار الجيش الى « سجلماسة » وأعادها فاطمية وتخلص من « ابن واسول » الذى كان قد استقل بها .

وبعد أن أمن « جوهر » ظهره بفتح « سجلماسة » والقضاء

---

(٤٤) ابن ابى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، طبع حجر من ص ٥٤ ـ ٥٧ ، احمد ابن ابى العافية (ابن القاضى) : جذوة الاقتباس طبع حجر بخط مغربى من ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩ ، ابن ابى دينار : المونس ص ١٠٠ .

(٤٥) ابن ابى دينار : المونس ص ١٠٠ .

على «زناتة» انتقل الى «فاس» وأدار القتال فيها مدة ، ولما لم تستجب له ، لجأ القائد « زيزى الصنهاجى » الى حيلة جديدة .

فقد انتهز فرصة أمان أهلها ، وأمر جماعة من شجعان قومه ، فنصبوا « سلالم » وصعدوا الى البلد ، وقتلوا الحراس وفتحوا الأبواب ودقوا الطبول ، سمع جنود « جوهر » دق الطبول فدخلوا المدينة ، وهدموا أسوارها وقتلوا بها خلقا كثيرا(٤٦) .

بعد ذلك سار « جوهر » فى بلاد المغرب الأقصى يفتح المعاقل ، ويقتل أبناء المروانيين ، وفرت أمامه « زناته » وغيرها من القبائل ، واستمرت حملة الجيش الفاطمى ثلاثين شهرا أخضع فيها جميع بلاد المغرب ما عدا « سلام وسبت » فانهما كانتا فى يد الخليفة الأموى بالأندلس(٤٧) ، ووصل « جوهر » الى البحر المحيط ، وصاد من سمكه وأرسله الى الخليفة « المعز » وكتب له كتابا من عرض البحر(٤٨) .

وحتى يتخلص « المعز » من « زناته » نهائيا ، قرر أن يلجأ الى الوسيلة المجدية فى القضاء عليها ، فرماها بعدوتها « صنهاجة » فنهض « بلقين بن زيزى » لحربهم ونجح فى اجلائهم عن الزاب ، ثم أجلاهم عن المغرب الأوسط كله سنة ٣٦٣ هـ وفرقهم فى تلول المغرب الأقصى(٤٩) وصحرائه .

وبذلك تمكن الجيش الفاطمى بفضل احكام خططه ، وبراعة قواده ، وشجاعة رجاله ، تمكن من تصفية أعداء الفاطميين فى البلاد ، ونشر دعوتهم حتى شاطىء المحيط الأطلسى .

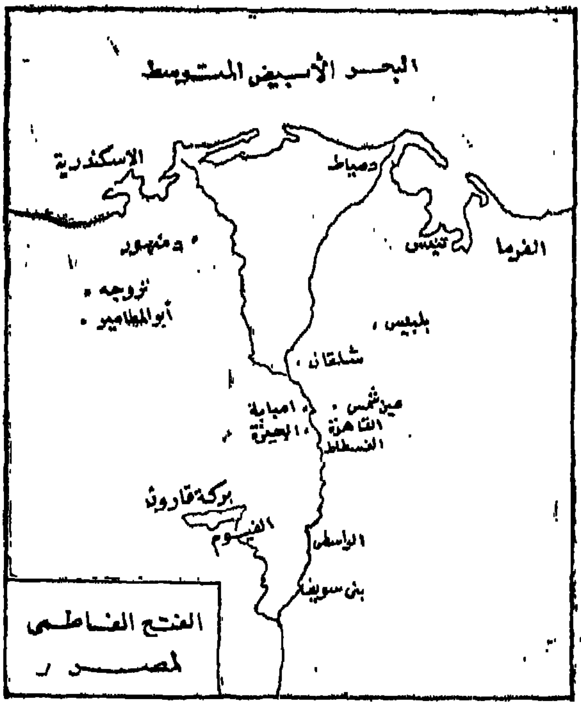
---

(٤٦) انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٨٩ ، نهاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ٣٨ ، تاريخ ابى الفدا مجلد ٢ ص ١٠٧ .

(٤٧) انظر : ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ص ٩٦ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٤٨) انظر : ابن ابى دينار : المونس ص ٦١ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٤٩) انظر : الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٩٢ .


البحر الأبيض المتوسط
الإسكندرية
دمياط
تنيس
الفرما
دمنهور
تروجه
أبو المطامير
بلبيس
شلقان
عين شمس
امبابة
القاهرة
الجيزة
الفسطاط
بركة قارون
الفيوم
الواسطى
بني سويف
الفتح الفاطمي
لمصر

الفصـل الثـالث

الجيش الفاطمى ـ ومحاولات غزو مصر

اهميــة مصرر للفاطميين :

كان الفاطميون يسعون لبسط سلطانهم على العالم الاسلامى كله ، وكانوا يريدون اقامة خلافة علوية يدخل تحت حكمها جميع الشعوب الاســلامية •

وضعوا هــذا الهدف نصب أعينهم منذ عهد أول خليفة لهم فى المغرب ، ويبدو ذلك واضحا فى كتاب أرسله الخليفة « المهدى » الى القرامطة جاء فيه :

« أنا أحلف أيها المؤمنون ــ بكل ما يحلف به ، أن فيما تلقيته ــ مما أطلعنا الله عليه من غيبه الذى استأثر به ، وآثر بعلمه أولياءه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ــ أنه لا بد وأن تحل ولاتنا (بلاد) بنى أمية بالشام ودور بنى العباس فى العراق ، ويكون لنا من الخلفاء مثل ما كان لبنى أمية فى العدد •••• »[1] •

وكان من الطبيعى أن يعتمد الخلفاء الفاطميون على جيشهم فى تحقيق ذلك الهدف ، فكما توجه ذلك الجيش فى اتجاه الغرب يفتح البلاد ويضمها لهم ، كذلك عنيت الخلافة الفاطمية بغزو البلاد المشرقية، وتركزت حملاتها العسكرية على مصر خاصة ، ذلك لأن هذه البلاد عظيمة الأهمية من النواحى السياسية والحربية والدينية •

فامتلاك مصر يعنى السيطرة على القطرين التابعين لها ، وهمــا الشــام والحجاز ، وبحكم الحجاز ، يكتسب الفاطميون مركزا دينيا ممتازا ، لأن هــذه البــلاد موطن المقدســات الدينية وحاكمها يعتبر الحاكم الفعلى للدولة الاســلامية ، لمــا لها من صبغة دينية تضفى على القائمين عليها صفة الرسمية والوقار •

---

(١) انظر : المقريزى : المقفى الكبير جـ ٤ لوحة ٢٢٢ مصــورة دار الكتب المصرية •

يضاف لذلك أن احتلال مصر وبلاد الشام ييسر للفاطمين — عن طريقهما — الزحف الى مركز الخلافة العباسية فى « بغداد » وييسهل مهمة القضاء على العباسيين ، ويهيىء اقامة الخلافة الفاطمية على أنقاض ممتلكاتهم •

ثم ان فتح مصر يضمن للفاطميين تأسيس نظام سياسى دينى « فى ثلاثة من المراكز الاسلامية الكبيرة ، وهى الفسطاط والمدينة ودمشق »(٢) وفوق ذلك فان موقع مصر يجعل منها حاضرة يسهل معها الاتصال بالبلدان الخاضعة للفاطميين ، فمنها يمكن ربط ولايات دولتهم ، وتسهيل مهمة الالتقاء بها ، والاتصال معها بصورة لا يوفرها الحكم من المهدية أو القيروان •

على أن مصر ، وما تمتاز به من ثروات ورخاء بالنسبة لبلاد المغرب ، كان من أهم العوامل التى حفزت الفاطميين الى فتحها •

وفضلا عن كل ما مر ، فان يأس الفاطميين من الاستقرار فى بلاد المغرب وتوالى الثورات عليهم فى مختلف نواحى تلك البلاد ، كان وراء فتحهم لمصر ، واتخاذها حاضرة جديدة لخدفتهم •

لكل ما سبق أعد أول الخلفاء الفاطميين الخطط لغزو هذه البلاد منذ تأسست دولته فى بلاد المغرب ، وتابع الخلفاء من بعده محاولاتهم لتحقيق نفس الهدف — رغم ما كان يشغلهم من مشاكل بافريقية — الى أن نجح الخليفة « المعز لدين الله » فى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ واتخذها مقرا لخلافته سنة ٣٦٢ هـ • وقبل أن يحقق الفاطميون هذا النجاح أرسلوا ثلاث حملات عسكرية — عدا محاولة سلمية — عملت كلها على أن تحل الخلافة الشيعية محل الخلافة العباسية فى البلاد المصرية •

---

(٢) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١١٣ •

وقبل الحديث عن المحاولات الفاطمية ، نقدم صورة مختصرة لمصر من مختلف نواحيها — منذ أن قصدها الفاطميون بالغزو سنة ٣٠١ هـ الى أن تم لهم الاستيلاء عليها سنة ٣٥٨ هـ ، فقد يساعدنا ذلك فى تحليل الحملات الفاطمية وفى فهم سر فشلها أو نجاحها فى مهمتها •

حالة مصر عند مجيىء الغزوات الفاطمية :

ظل الولاة العباسيون يحكمون مصر منذ نهاية الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ الى أن استقل الأخشيديون بها استقلالا اسميا سنة ٣٢٣ هـ •

وعندما أسس الفاطميون دولتهم فى بلاد المغرب ، ولى الخليفة العباسى «المقتدر»(٢٩٥هـ — ٣٢٠هـ) = (٩٠٨—٩٣٢م) على مصر ، أبا منصور تكين بن عبد الله ، وحذره من الخطر الفاطمى القريب منه فى بلاد المغرب ، فجهز الوالى جيشا وجهه الى « برقة » وهناك تصدى له جيش فاطمى قدم لفتح هذه المدينة لصالح الفاطميين • وقد استطاع القائد الفاطمى بالخديعة والدهاء أن يوقع الجفوة والخلاف بين رجال الدولة العباسية وأن يظفر بالمدينة •

وكان استيلاء الفاطميين على « برقة » من أقوى الحوافز التى شجعتهم على التوجه لمصر نفسها ، وقد أنجدت الخلافة العباسية واليها « تكين » بجيوش يتزعمها « مؤنس الخادم » التقت بالعساكر الفاطمية ، وأجبرتها على العودة الى بلادها •

وبعد الانتصار عزل « مؤنس الخادم » « تكينا » عن ولاية مصر — وكان من حق القادة العباسيين عزل الولاة الموفدين لنجدتهم — واستمر القائد يصرف شئون البلاد بصورة مطلقة الى أن أوفدت الخلافة « ذكا الرومى » واليا لمصر سنة ٣٠٢ هـ •

وقد عنى الوالى الجديد بالكشف عن العيون الفاطمية واهتم

بتحصين البلاد خوفا من هجمات الفاطميين ، بيد أن الخليفة « المهدى » أعد جيشا أتبعه بحملة بحرية سنة ٣٠٧ هـ •

وبعد جهد تمكن « زكا » من تكوين جيش وأرضى أفراده ، ووزع الأموال عليهم ، لكنه توفى سنة ٣٠٧ ، فولى « المقتدر » « تكينا » على مصر للمرة الثانية وأرسل نجدة من الخلافة للدفاع ضد الفاطميين ، كما بعثت الخلافة مددا ثانيا وثالثا بزعامة «مؤنس الخادم» و«جنى الخادم» المعروف بالصفوانى ، وكل ذلك ساعد على ايقاع الهزيمة بالفاطميين وحملهم على العودة الى بلادهم سنة ٣٠٩ هـ • وقد كانت مصر مضطربة فى تلك الفترة من تاريخها ، يدل على ذلك انقسام أهلها ، ومكاتبة بعض وجوه الفسطاط للفاطميين ، ومطالبتهم بالتقدم لفتح مصر ، لعدم مقدرة جندها على الدفاع عنها ، كما أن كثرة الجنود العباسية فى مصر كان يكلفها فوق طاقتها ، ويمثل عبئا كبيرا على ماليتها ، وكان أهل مصر يقاسون الأمرين من عسف الجنود ومن ممارستهم السلب والنهب فى أرجاء البلاد •

وكما عزل القائد « مؤنس » تكينا للمرة الأولى ، عزله ثانية سنة ٣٠٩ هـ ، وأقرت الخلافة ذلك العزل ، وأرسلت الى البلاد واليا جديدا هو « هلال بن بدر » •

وفى عهد ذلك الوالى زادت مصر اضطرابا ، وثار عليه بعض الجنود ، وقامت بينه وبينهم الحروب ، وعم الفساد وانتشر النهب والسلب فى البلاد كلها ، مما حمل الخليفة « المقتدر » على عزل ذلك الوالى وتولية « أحمد بن كيغلغ » •

وقد تعرض الوالى الجديد لثورة العساكر أيضا ، لأنه أسقط عددا كبيرا منهم تخفيفا للنفقات ، فثار أولئك عليه وطغوا وأفسدوا فى البلاد ، وفشل الوالى فى علاج ثورتهم ، كما كانت الخلافة ضعيفة وعاجزة عن فعل شىء يؤدب الثوار ، فاكتفت بعزل واليها وتعيين « تكين » مرة أخرى سنة ٣١٢ هـ •

وقد عمل «تكين» على كبح جماح الجند ، وغير كثيرا من معاونيه ، ووضع خططا محكمة تفل شوكة المشاغبين ، وقطع شوطا كبيرا فى اعادة الاستقرار الى مصر •

وعندما قتل المقتدر ، وبويع القاهر بالخلافة (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) أقر « تكينا » على مصر ، فظل واليا عليها الى أن مات سنة ٣٢١ هـ •

وتمثل وفاة « تكين » نهاية للاستقرار الذى شهدته مصر فى أيامه ، فقد عادت الفوضى ، وانتشر الاضطراب ، وثار الجند لتأخر صرف مرتباتهم ، وتقاتل الزعماء وتنازعوا على ولاية البلاد •

وأرادت الخلافة العباسية ارضاء الأطراف المتنازعة ، فعينت « محمد بن تكين » واليا على مصر ، وجعلت « أبا بكر محمد بن على المـاذرائى الفارسى » مسئولا عن النواحى المـالية ، وكانت الخلافة ترمى من وراء ذلك الى أن تتعدد السـلطات الحاكمـة فى مصر ، وألا يتمركز الحكم فيها فى يد واحدة قد تستقل بها وتكرر ما حدث فى العصر الطولونى •

وبرغم ذلك استمرت البلاد فى اضطرابها ، واستمر عبث الجنود بها ، وولت « بغداد » عليها أكثر من وال فى فترة قصيرة دون أن ينجح أحد فى حل مشاكلها •

ولمـا خلع القاهر ، وتولى الخلافة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) ولى مصر « أحمـد بن كيغلغ » ، بينما كان التصريف الفعلى بيـد الماذرائى ، أخذاً بمبدأ سلفه فى توزيع السلطة على أكثر من رجل •

بعد ذلك حدث فى « بغداد » ما أثر على مصر ، فقد تولى الوزارة فيها « الفضل بن جعفر بن الفرات » عدو المـاذرائيين ، ومنح سلطات مطلقة ، عين على مصر بمقتضاها « محمد بن طغج الأخشيدى » فدخل

الفسطاط سنة ٣٢٣ هـ بعد تصفية عسكرية لجميع المعادين له ، وفرض نفسه بجهده الشخصى ، فقد كان لا بد من التغلب على العقبات وحمل الخلافة على اقرار الوالى الجديد •

والخلاصة أن حكم مصر فى الفترة السابقة على تولية الأخشيد ، كان فى أيدى ثلاث من القوات هم : الولاة المعينون من قبل الخلافة ، وقواد الجيش العباسى ، وكان نفوذهم يمتد حتى يشمل عزل الولاة ، أما الناحية المالية فكانت فى يد الأسرة الفارسية « المـاذرائيين » ومنها نفذوا الى السيطرة على النواحى المالية فى البلاد ، وكانوا ذوى نفوذ واسع فيها • ثم استقرت الأحوال فى مصر « لمحمد بن طفج الأخشيدى » وجاءه ابن الفرات يخلع من بغداد تثبيتا له واعترافا بمقدرته •

وكانت الولاية فى مصر مقسمة الى قسمين : الحرب والصلاة ، وعليهما ابن طفج ، أما تدبير المال والخراج فقد أشرف عليه الوزير ابن الفرات بنفسه ، ولما غادر الفضل مصر سنة ٣٢٤ هـ اجتمعت الولايتان للأخشيد ، وصار له من السلطات مثل ما كان لابن طولون •

وكانت علاقة الأخشيد « بابن رائق » برهانا يدل على مدى الفوضى التى سادت الحكومة المركزية فى بغداد •

فقد اتسع سلطان أمير الأمراء واستولى على الأقاليم المتاخمة لبلاد الشام ، وأخذ يطالب الأخشيد بمال عن ممتلكاته فى تلك البلاد ، فوافق ابن طغج ، لكن ذلك لم يكف ابن رائق وأصر على الاستيلاء على البلاد الشامية ، حينئذ لم يجد الأخشيد بدا من الالتجاء الى الخلافة واستئذانها فى محاربة أمير الأمراء • وقد قررت الخلافة أن تتركهما للقتال ، فقد يؤدى ذلك الى ضعفها والتخلص منهما معا ، وبعد حروب تم الصلح بين الطرفين بشروط •

ويهمنا هنا ان الاضطراب كان سائدا فى « بغداد » حتى انها كانت تقف موقف المتفرج من المتنازعين ، كما كانت تعنى بتثبيت المنتصرين على مصر بالذات ، لأنها تريد أن تكون البلاد فى يد حاكم قوى يمكنه صد العدوان الفاطمى عليها •

ولما توفى الخليفة الراضى ، وتولى الخلافة المتقى بالله (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) أقر الأخشيد فى ولاية مصر •

ونشب قتال فى عهد هذا الخليفة بين الترك والديلم ، كما ساءت العلاقة بين أمير الأمراء (توزون) وبين الخليفة ، الشيء الذى حمله على الاستنجاد بالأخشيد فى مصر وكتب اليه أنه سائر للقائه ، واجتمعا معا بالرقة سنة ٣٣٣ هـ •

ومكافأة للأخشيد على خضوعه واجلاله ، خلع الخليفة عليه ، ومنحه تقليدا بولاية مصر وحق توريثها أبناءه مدة ثلاثين سنة ، وأذن له أن يولى ابنه « أونوجور » على مصر من بعده •

ولما تولى المستكفى بالله (٣٣٣ هـ — ٣٣٤ هـ) أقر ابن طغج فى حكم مصر ، وقام الأخير بالدعوة له على المنابر فى أنحاء دولته ، كذلك لم يطرأ تغيير على العلاقة بين الأخشيد وبين الحكومة المركزية فى عهد الخليفة المطيع (٣٣٤ هـ — ٣٦٣ هـ) •

وتعطى العملة المصرية المضروبة فى أيام الأشيد ، تطور العلاقة بينه وبين الحكومة المركزية •

فالدنانير المضروبة فى عهد الراضى وبعض عصر المتقى (ما بين سنتى ٣٢٣ هـ و ٣٢٩ هـ) تدل على أن الأخشيد كان يدين بالطاعة المطلقة للعباسيين ، فقد كان اسم الخليفة ينقش وحده على السكة ، أما منذ سنة ٣٢٩ فاننا نجد اسم الأخشيد مع اسم الخليفة مضروبا على العملة المصرية •

توفى « محمد بن طغج » سنة ٣٣٤ فتولى على مصر ابنه « أونوجور » وقد وصل كتاب الخليفة المطيع الى « أونوجور » بتوليه مصر والشام وكل ما كان لأبيه من الولاية •

وفى عهد ذلك الوالى تحولت مقاليد الأمور فى دار الخلافة الى « معز الدولة ابن بويه » فتوجه اليه وسعى عنده وقدم له الهدايا حتى نال موافقة الحكومة المركزية على تولية أخيه من بعده •

وقد تولى « على بن الأخشيد » على مصر والشام وسائر الحرمين بعد وفاة أخيه سنة ٣٤٩ هـ ، بموافقة « كافور » وسائر القواد •

ولقد كان « كافور » — العبد الذى ترقى فى حاشية الأخشيد حتى أصبح مربى ولديه وموضع ثقته — هو المسئول الحقيقى عن الحكم فى البلاد ، وعن ادارتها وضمان خراجها أمام الخـلافة فى بغداد ، طوال عهد « أونوجور وعلى » •

وحين توفى والى مصر سنة ٣٥٥ هـ تولى « كافور » عليها اما بتولية من الخلافة أو أن الرجل فرض نفسه عليها فاضطرت الى قبول الأمر الواقع وأقرته ، بالرغم من أنه ليس أخشـيديا وليس صاحب حـق شرعى فى حكم البلاد •

وبعد وفاة « كافور » ســنة ٣٥٧ هـ اجتمع القواد وأولو الأمر وعقدوا لصبى اسمه « أحمد بن على الأخشيدى » ، لكن خالفهم فى ذلك — الحسن بن عبيد الله بن طغج — واستولى على ما كان « لكافور » فى « الرملة » ودعا لنفسه ، ثم قدم منهزما من القرامطة فى الشام ، وتولى تدبير أمور مصر فترة •

أخيرا — وضع دخول « جوهر الصقلى » مصر سنة ٣٥٨ هـ ، حدا للدولة الأخشيدية وقضى عليها وعلى سلطان الخلافة العباسية على البلاد المصرية كلها(٣) •

---

(٣) عن تفصيل حالة مصر السـياسية وصلتها بالخلافة العباسية فى عهد الدولة الأخشيدية وفى فترة الولاة قبلها انظر :

سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين والمراجع المبينة من صفحة ٢٤ الى ص ١٠٢ ـ القاهرة سنة ١٩٥٠ م •

ومما سبق يتجلى عجز الخلافة العباسية فى بغداد ، وضعف الجيش المصرى واضطراب أحوال الأمن فى البلاد ، وليس هذا فحسب ، بل ان البلاد تعرضت لكوارث اقتصادية انهكت قواها ونشرت القحط والوباء فيها . فقد وقع غلاء فى مصر على عهد أونوجور الأخشيدى سنة ٣٣٨ هـ ، فثارت الرعية ومنعوه من الصلاة فى جامع « عمرو بن العاص » .

ثم وقع غلاء آخر سنة ٣٤١هـ ، وتلفت الغلال والكروم والمزروعات وانخفضت مياه النيل فسبب ذلك ارتفاعا فى الأسعار ، وتكرر ذلك سنة ٣٤٣ هـ فزادت الأسعار ارتفاعا ، وساء الحال فى البلاد ، وثار الشعب وكسر منبر الجامع بمصر .

بعد ذلك تعرضت البلاد لغلاء فاحش استمر تسع سنين من سنة ٣٥٢ هـ بسبب نقص النيل سنة بعد أخرى ، وعظم الغلاء بسبب ذلك ، وكثرت الفتن ونهبت الضياع والغلال وهاج الناس وماجوا .

ولما مات « كافور » كانت حالة مصر فى منتهى السوء ، وقد زادت فيها الفتن والاضطرابات ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير ، واشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وارتفع السعر بصورة رهيبة ، وانتهبت أسواق البلد ، واستمر سوء الحال الى سنة ٣٦٠ هـ حيث اشتد الوباء ، وتفشى المرض ، وكثر الموت لدرجة عجز الناس معها عن تكفين موتاهم ودفنهم(٤) .

وكانت هذه الحالة السيئة من الدوافع التى جعلت البعض يرسل الى الخليفة الفاطمى « المعز لدين الله » ويدعوه الى فتح مصر .

---

(٤) انظر : المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ـ من ص ١١ الى ص ١٤ ـ نشر وتحقيق محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين الشيال ـ القاهرة سنة ١٩٤٠ .

كما كان أول شيء فعله « جوهر » بعد الاستيلاء على البلاد ، هو النظر في الأسعار واتخذ من الاجراءات ما يكفل لستقرار الأوضاع والقضاء على الجشعين .

أما من الناحية المذهبية فقد كان الشعب في مصر يدين بالمذهب السني الذي تعتنقه الخلافة العباسية وان كان الفاطميون قد أفلحوا في نشر دعاتهم في أرجاء البلاد وكسبوا كثيرا من الأعوان ، تحولوا الى المذهب الشيعي ، ودعوا اليه ، وساعدوا المصريين عند فتحهم لمصر .

فلم يغفل الخلفاء الفاطميون جانب التمهيد الفكري بالدعوة لفتح مصر بل ان دعاة الفاطميين لم يتوقفوا عن الترويج لمذهبهم ، ومحاولة كسب عناصر جديدة من بين المصريين ، وقد حقق هؤلاء قدرا كبيرا من النجاح في عهد الخليفة « المعز » ، الشيء الذي جعله يتحدث لرجال دولته وقادة بلاده عن فتح مصر ، وأكد ذلك الخليفة لهم أن تلك البلاد ستخضع لسلطانه ، حتى انه قال في ثقة : « لتفتحن مصر بالأردية وحتى لو ذهب « جوهر » وحده لفتح مصر من غير قتال »(٥) .

وقد بنى هذا التصور على أساس معلوماته عن مصر ، تلك المعلومات التي بعث بها دعاته ، وكان يشغل وقت فراغه في مكاتبتهم ، وفي الرد على كتب ترد اليه من دعاته في المغرب وفي المشرق(٦) .

وقد كان يحق للخليفة الفاطمي أن يكون على ثقة من فتح مصر ، فقد نجح دعاته في استمالة كثير من الناس والجنود ، بل مال الى المذهب الفاطمي عدد من كبار المسئولين والموظفين في الحكومة .

---

(٥) انظر : اخبار المعز لدين الله لمجهول لوحة / ٣ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٦٢ ، ابن ابى الضياف : اتحاف اهل الزمان جـ ١ ص ١٢٦ .

(٦) انظر : المقريزي : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٧ .

وكان مجىء جيش الفتح الفاطمى بناء على طلب من هؤلاء ، ومثل ذلك أحد الأسباب المباشرة التى شجعت الفاطميين على ارسال رجالهم لمصر ، وثقتهم فى فتحها .

أكثر من هذا استقبل « كافور » نفسه بشىء من الرضى والارتياح مجموعة من الدعاء أرسل بهم الخليفة « المعز لدين الله » يدعونه لطاعة الشيعة والاعتراف بسلطانهم ، كما وعد عدد كبير من موظفيه ورجال بلاطه بتقديم الولاء للخليفة الفاطمى(٧) ولهذا ليس غريبا أن يجنى الخليفة « المعز » ثمرة جهوده وجهود سابقيه ، ويتم فتح مصر على أيامه .

وبعد ، فتلك صورة مصغرة لحالة مصر عند مجىء الحملات الفاطمية اليها ، نأخذ بعدها فى الحديث عن الغزوات ومحاولات الفتح نفسها .

***

الغزوات الفاطمية لفتح مصر

حملة الجيش الفاطمى الأولى (٣٠١ ــ ٣٠٢ هـ ــ ٩١٣ ــ ٩١٤ م) :

شعر الخليفة العباسى « المقتدر » بتعرض مصر للأخطار ، نتيجة لقيام دولة شيعية فى بلاد المغرب ، وعرف أن الفاطميين عازمون على احتلال هذه البلاد ، لذلك ولى « تكينا » على البلاد المصرية سنة ٢٩٧ هـ ، وأخذ يحذره من الفاطميين ويطلب منه الاحتراس من المغرب .

كان لتحذير الخليفة أثره فى نفس الوالى ، فعين على «برقة» ــ باعتبارها باب مصر ــ عاملا حازما ، وبعث معه بجيوش وجموع كثيرة .

---

(٧) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٢٥ ، والذهبى : تاريخ الاسلام ج ٧ ص ١٤١ مخطوط بدار الكتب المصرية .

وقد ترضى ذلك العامل شعب « برقة » وأحسن اليه ، لكن تلك البلاد ما لبثت أن تعرضت للغزو الفاطمى .

وذلك أن والى « توزر » للفاطميين قد بعث اليها بجيش بقيادة « حباسة بن يوسف الكتامى » وقد تمكن من احتلال البلد وهزم حاميها ، وارتكب فيها أفعالا شنيعة[8] .

وساعد الجيش الفاطمى على الانتصار أن البلاد تعرضت لفتنة داخلية أثناء الهجوم عليها ، وعزل وليها أثناء الحرب وتنافس الولاة عليها ، فمكن ذلك القائد « حباسة » من هزيمتهم وردهم جميعا مقهورين الى مصر سنة ٣٠٠ هـ [9] .

وقد رأت الخلافة الفاطمية أن تستغل احتلالها « لبرقة » وتواصل منها الزحف على البلاد المصرية ، فكلف جيش « حباسة » بهذه المهمة وأرسلت اليه مددا جديدا وصل به الى أكثر من مائة ألف مقاتل ، عدا أسطول بلغت وحداته مائتى مركب ، اتخذت مسارها فى البحر نحو الاسكندرية ، حيث تمكن الفاتحون من احتلال تلك المدينة بدون مقاومة[10] .

وبعد أن تجمعت القوات الفاطمية عند تلك المدينة ، واصلت زحفها فى بلاد الوجه البحرى ، فنزلت على مرحلة من فسطاط مصر ،

---

(٩) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٧ وما بعدها ، بيروت سنة ١٩٠٨ م ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ١٤ ، ١٥ ، « لان بول » المرجع والموضع المشار اليه آنفا .

(١٠) انظر : الطبرى ـ تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٤٠٩ المطبعة الحسينية بالقاهرة بدون تاريخ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣١ حوادث سنة ٣٠٢ هـ .

ثم رجعت فاحتلت موضعا بين الاسكندرية والفسطاط[11] عند بلدة تسمى مشتول[12] .

وصل الخطر الفاطمى على مصر ذروته ، فأرسل الوالى العباسى الى الخليفة المقتدر يستحثه ويطلب امداده بالجنود ، ومن ناحية أخرى أخذ ينادى بالنفير فى الشعب بالفساط ، ويجمع الناس ويحمسهم للقتال ، فاستجابت الرعية له ، وكان خروجا لم ير مثله فى الاجتماع والنشاط وحسن التنظيم .

وقد التقت جموع المقاومة المصرية بجيوش « حباسة » واحتدمت المعركة بين الطرفين ، وسلطت العساكر الفاطمية السيف على رقاب المصريين فقتلت الكثير منهم واستمر ذلك أربعة أيام .

ثم طرأ عامل جديد ترتب عليه تحول النصر لصالح العباسيين ، ففى أثناء القتال وصلت نجدة سريعة من « بغداد » ، شاركت فى القتال ونقلت التفوق للجانب المصرى ، وحملت على الجيش الفاطمى ، واضطرت (حباسة) ومن معه الى الفرار بالليل[13] والاتجاه نحو « برقة » حيث مات أكثر الفارين قبل الوصول الى تلك المدينة ،

---

(١١) انظر : الطبرى : تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٤٠٩

(١٢) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٠ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ١٥ . ومشتول السوق : قرية بمركز بلبيس شرقية أما مشتول القاضى فتتبع مركز الزقازيق وانظر : محمد رمزى القاموس الجغرافى للبلاد المصرية القسم الثانى الجزء ١ ص ٣٤ القاهرة ١٩٥٨ . غير انه لا يمكن أن تكون احدى البلدتين المذكورتين عند الاستاذ « رمزى » هى المقصودة هنا والمرادة بلدة بنفس الاسم كانت تقع قرب الجيزة انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٨ وما بعدها وكذلك سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ٢٨ .

(١٣) انظر : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى وهو الجزء الثانى عشر من طبعة تاريخ الطبرى ص ٢٧ و ٢٨ ، وتاريخ الطبرى ج ١١ ص ٤٠٩ .

أما من سلم من جند الفاطميين فقد وصل الى بلاد المغرب فى حالة سيئة[14] ، وقد قتل الخليفة الفاطمى قائده حباسة لما وصل الى العاصمة الفاطمية بسبب هزيمته أمام أعدائه[15] .

وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على هزيمة الجيش الفاطمى :

منها تلك النجدة التى أتت من عاصمة الخلافة العباسية ، ورفعت من معنويات المحاربين وزادت من حماسهم فى القتال .

ومنها حسن تنظيم الجيش المصرى ، وتفانى الوالى فى تهيئته واعداده ، واستماتة أفراده فى ميدان المعركة .

ومنها اختلاف حدث بين الفاطميين فى بلاد المغرب ، وصلت أخباره الى مسامع « حباسة » ودفعه الى الانسحاب[16] .

أضف لذلك أن الخلافة العباسية لم تتوان عن مصر ، وانما أرسلت لها مددا على وجه السرعة ، ثم أخذت تعد جيشا كبيرا ندبت له العساكر الكثيرة ، وجعلت على قيادته « مؤنسا الخادم » وأمدته بالمال والسلاح[17] . وزاد « المقتدر » فكتب الى عمال البلاد الشامية أن تسير مع الجيش العباسى لمحاربة الفاطميين ، ثم خلع على القائد وأرسله الى مصر[18] .

لكن لم يقدر لهذا الجيش أن يلتقى بالجند الفاطمى ، فقد جاءه

---

(١٤) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ١ ج ٢ ص ٣٠٥ تسعة أجزاء فى ثلاثة مجلدات طبع لبنان سنة ١٩٥٩ م ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ١٥٢ ، الكندى الولاة والقضاة ص ٢٦٧ وما بعدها .

(١٥) انظر : النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٥ .

(١٦) انظر : الطبرى : تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٤٠٩ .

(١٧) انظر : تاريخ الطبرى : ج ١١ ص ٤٠٩ .

(١٨) انظر : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٢٧ ، ٢٨ .

الخبر بانهزام هؤلاء وهم فى الطريق ، ولما وصلوا الى مصر وجدوا الجيوش المغربية قد انصرفت منها وعادت الى بلادها [19] .

وقد سرت الخلافة العباسية لانتصار جيشها ، يدل على ذلك تصدق الخليفة العباسى بمائة ألف درهم عند سماعه أنباء النصر ، عدا أربعة آلاف دينار وزعها الوزير العباسى « على بن عيسى » شكرا لله عز وجل[20] .

ومع أن الفشل كان نصيب الحملة الفاطمية الأولى ، الا أنه يلاحظ أن الدعوة الفاطمية نجحت فى كسب بعض الأنصار المصريين فى هذه الآونة المبكرة ، وقد وجد من سكان البلاد من يعطف على الفاطميين ويميل لدعوتهم .

بل كان من العوامل المشجعة على ارسال هذه الحملة ، مكاتبات اشترك فيها الأقباط وأرسلت الى الخليفة الفاطمى ، يدل على ذلك شعر عاصر هذه الأحداث جاء فيه :

وأقبل جاهلا حتى تخطى وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط مصر وغير قبطى
وكل كاتبوه وكاتبونا وكل فى البلاد له موطى[21]

كما يدل على ذلك أيضا أن الوالى العباسى تتبع سنة ٣٠٢ هـ كل من أتهم بموالاة الفاطميين ومراسلاتهم ، وسجن كثيرا منهم ، وقطع أيدى وأرجل بعضهم[22] بل ان الدعوة الفاطمية وصلت مدى

---

(١٩) انظر : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٢٧ و ٢٨ .
(٢٠) انظر : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٢٨ .
(٢١) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٢ ، والضمير فى « اقبل » يعود على « حباسة » القائد الفاطمى .
(٢٢) انظر : المصدر نفسه ص ٢٧٤ ، المقريزى : الخطط مجلد ١ جـ ٢ ص ٣٠٥ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ١٥ .

أبعد من مصر بكثير في عهد الخليفة الفاطمي الأول ، فقد أرسل اليه نصر بن أحمد أمير خراسان يقول :

« أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني ، وليس على المودى بهم كلفة ولا مؤونة ، فان أمرني بالمسير سرت اليه ، ووقفت بسيفي ومنطقي بين يديه ، وان أمرني أن أدخل أهل الأرض في طاعته » ، وكتب اليه آخرون غير « نصر » وأرسلوا اليه الأموال ، فرد عليهم أن « الزموا مراكزكم لكل أجل كتاب ... »(٢٣) .

يلاحظ كذلك أنه على الرغم من استعدادات الفاطميين ، وعنايتهم باعداد الجيش القوى المدعم باسطول بلغت وحداته مائتي مركب حربية لم يتم لهم فتح مصر ، ذلك ان الدولة العباسية كانت ما تزال تحتفظ بشيء من القوة ، وعرف الخلفاء مدى ما تتعرض له خلافتهم من أخطار اذا سقطت مصر في يد الفاطميين .

لذلك سارعوا الى نجدة المصريين ، وقدموا خيرة الرجال وأكفأ القواد ولم يبخلوا بالعساكر العديدة المجهزة بالمال والسلاح .

أما مصر فسرعان ما تماسكت ازاء الخطر النازل عليها ، والتف عدد كبير من أهلها حول الوالي العباسي ، ولبوا نداءه في الدفاع عن البلاد ببسالة وهمة ، وقد أثر على معنويات الشيعة ما انتشر بينهم من نشوب خلاف في عاصمتهم ، الشيء الذي عجل برحيلهم وجعل هزيمتهم سهلة ميسرة .

يلاحظ أن تلك الحملة قد اتخذت خطا معينا وسارت فيه ، فاخترقت الصحراء ، واحتلت طرابلس وبرقة ، ثم واصلت زحفها الى الاسكندرية ، حيث تابعت منها سيرها في بلاد الوجه البحري حتى وصلت الى الجيزة ، وقابلت العسكر العباسي وانهزمت أمامه .

---

(٢٣) انظر : المقريزي : المقفى الكبير جـ ٤ لوحة ٢٢١ .

وواضح أن الاسكندرية كانت مقصد الحملة ، وأن دخولها البلاد كان من جانبها الغربى ، وسوف نرى أن ذلك الطريق ، وتلك الخطة ، هى نفسها التى سارت عليها الحملات الفاطمية التالية ، كما اتبعتها كذلك بعض الحملات العسكرية التى تعرضت لها مصر فى تاريخها الحديث .

حملة الجيش الفاطمى الثانية (٣٠٧ — ٣٠٩ هـ : ٩١٩ — ٩٢١ م) :

لم تيأس الخلافة الفاطمية لفشل جيشها فى فتح مصر ، وانما أخذت تستعد من جديد وترقب الفرصة المواتية لغزو البلاد المصرية . وقد أعدت لهذا الغرض جيشا جديدا قصدت به تطويق البلاد المصرية ومهاجمتها برا وبحرا .

وقد أعدت الخلافة حشودا كبيرة من كتامة ومن عرب افريقية وبربرها[٢٤] وتولى القيادة عليها أبو القاسم القائم ولى العهد .

أما البحرية فكانت عبارة عن أسطول يتكون من مائة مركب حربية منها ثمانون طرادة وعشرون عشارى[٢٥] وكان مقدمه «سليمان الخادم» . وقد سارت الجيوش الفاطمية الى مصر ، وتمكنت مقدمتها من احتلال « لوبية ومراقية »[٢٦] مما حمل أهل الاسكندرية على الرحيل عنها ، وتركها واليها وخرج فى خمسة آلاف رجل ، فسهل ذلك على المعسكر الفاطمى دخول تلك المدينة واحتلالها فى صفر سنة ٣٠٧ هـ .

---

(٢٤) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٨٤ .

(٢٥) انظر : العينى : عقد الجمان جـ ١٤ ص ٢٢٣ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ ورقة ١٥ . والشوانى والطرادات من انواع السفن ، انظر تفصيل وصفها فى : العدوى : الأساطيل العربية ص ١٥٣ ، عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الاسلامى ص ٤ ، ص ٦ القاهرة سنة ١٩١٣ .

(٢٦) لوبية مدينة بين الاسكندرية وبرقة أما مراقية فهى أول بلد يلقاه المتجه من الاسكندرية الى افريقية وانظر تعليق النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٨٦ .

وقد كان الجيش الفاطمى قويا ترامت أنباؤه الى أهل الفسطاط فأصابهم الرعب ، وهاجروا الى الشــام برا وبحرا ، كما فر بعضهم الى القلزم والحجاز (٢٧) •

وزاد من صعوبة الموقف على الوالى العباسى « ذكا الأعور » أن الجند فى العاصــمة ثاروا عليه ، وطالبوه بمرتباتهم وعطاياهم ، وامتنعوا عن الخروج معه الى الجيزة للقاء المهاجمين •

وقد حاول الوالى ترضيتهم ، فدفع لهم مرتباتهم ، وخرج فى طائفة منهم الى « الجيزة » واستعد للحرب ، فبنى حصنا على الحائط الغربى للمدينة ، وحفر خندقا حولها لحماية عسكره ، لكنه مات قبل وصول الجيش الفاطمى اليه (٢٨) •

توالى بعد ذلك مجىء المدد من الخلافة العباســية ، فجاء أمير الشــام بعساكره نجدة للمصريين ، كما أرسل الخليفة نجدة قوية ، وولى « تكينا » على مصر • ونزل الوالى الجديد «الجيزة» وحفر خندقا ثانيا حولها (٢٩) وأتم استعداداته للقاء عدوه •

ثم قدمت الجيوش الفاطمية والتقت بجيوش العباسيين وقامت معركة بين الطرفين سنة ٣٠٧هـ ، قتل فيها أربعة آلاف فاطمى ومثلهم من العباسيين ، ثم تقهقر العباسيون نحو الفسطاط ، واستطاع الشيعة أن يستولوا على الفيوم وعدة بلاد من الصعيد ، وأن يحصلوا الخراج منها ، وأن يبعدوا جند مصر عن هــذه النواحى (٣٠) •

---

(٢٧) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٩٦ •

(٢٨) انظر : العينى : عقد الجمان جـ ١٤ ص ٢٢٢ ، النويرى : نهاية الأرب ٢٦ ورقة ١٥ •

(٢٩) المصدرين والموضعين السابقين •

(٣٠) المقريزى : الخطط مجلد ١ جـ ٢ ص ٣٠٥ ، وعريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٤ •

فزعت الخلافة العباسية لهذا الزحف الفاطمى ، وأدركت أن مصر قاب قوسين أو ادنى من الضياع ، فأعدت قوة عسكرية جديدة قوامها ثلاثة آلاف جندى ، جعلت عليها « مؤنسا الخادم » جاءت الى البلاد المصرية ، وحفرت خندقا ثالثا فى الجيزة(٣١) .

ووجد القائد العباسى الجديد أن خير طريق لاكتساب النصر ، هو ترضية الجند فأغدق عليهم الأموال ، حتى طابت نفوسهم ، وكثر جمعه ، وارتفعت معنويات أصحابه .

وكان الجيش الفاطمى قد تفرق فى نواحى الصعيد والوجه البحرى ، فقرر العباسيون الإستفادة من هذا التفرق ، ووضعوا خطتهم على أساس حرب عدوهم فى جبهات متعددة وقسموا أنفسهم الى مجموعات باغتت الفاطميين وأخذتهم على حين غرة .

فذهبت مجموعة مع القائد « جنى الخادم » المعروف بالصفوانى(٣٢) وعسكرت فى الجيزة لحمايتها ، وزحف « ثمل الفتى » على رأس قوة الى الاسكندرية ، فحارب رجال الشيعة من كتامة فى هذه المدينة ، واستولى على أسلحتهم وأمتعتهم ثم عاد الى « الفسطاط » وأرسل القائد العباسى كذلك بعض جنده الى نواحى الفيوم حيث ينزل الفاطميون ، فتمكنوا من قتل عدد من عساكر الجيش الفاطمى وغنموا كل ما كان معهم .

اطمأن « مؤنس الخادم » بعد ذلك الى قوة أصحابه وضعف عددهم ، فسار على رأس الجموع سنة ٣٠٩ للقاء القائد الفاطمى ، وصادفت مقدمة الجيش العباسى بعض رجال الشيعة فهزمتهم وقتلت كثيرا منهم ، وفر الباقون الى « أبى القاسم » فراعه أمرهم ، وعلم

---

(٣١) العينى : عقد الجمان ج ١٤ ص ٢٢٣ .

(٣٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهر ج ٣ ص ١٩٦ وهامشها الثانى : طبعة وزارة الثقافة ـ القاهرة ١٩٦٣ .

باستعدادات الجيش العباسى ، كما تعرض الجند الفاطمى للأمراض والأوبئة ، وفقد أسطوله وحاميته فى الاسكندرية ، كما هزمت جنده فى غيرها .

كل هـذا حمل الأمير الفاطمى الى الفرار من مصر الى افريقية ، حاملا كل ما سهل حمله من المتاع وأحرق باقيه . وسار فى طريق قليل المياه ، فمات أكثر رجاله عطشا .

وهكذا عاد القائم الى بلاد المغرب سنة ٣٠٩ هـ بعد عامين وثمانية أشهر استغرقتها حملته دون أن تحقق نجاحا ، واستعاد العباسيون سيطرتهم على كل البلاد المصرية(٣٣) .

تلك كانت نهاية الحملة البرية — فماذا كان مصير الأسطول ؟

وضعت خطة الجيش الفاطمى على أساس أن تتحرك القوات البحرية من قاعدتها ، بعد وصول مقدمة الجيش الى الاسكندرية ، فذلك يساعدها على القيام بواجبها وهى فى كامل قوتها . ويخفى دورها عن عيون المصريين والعباسيين ، وقد تم وصول هذه القوات الى الاسكندرية سنة ٣٠٧ هـ . وعلى قيادتها « سليمان الخادم ويعقوب الكتامى »(٣٤) .

وعلم العباسيون بخبر الأسطول الفاطمى ، فأرسلوا الى عاملهم على « طرسوس »(*) يطلبون انجادهم بالعساكر والمراكب ، فبعث لهم خمسة وعشرين مركبا غنية بالمعدات والنفط وقد وصلت الى « رشيد » ، واشتبكت فى معركة بحرية مع الفاطميين واقتتل الطرفان قتالا شديدا .

---

(٣٣) انظر : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٤ .

(٣٤) انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٩ حوادث سنة ٣٠٦ هـ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٣ .

(*) طرسوس : مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم ياقوت : معجم البلدان .

كانت العوامل الجوية فى صالح المراكب العباسية ، فقد هبت ريح شديدة ألقت بوحدات الأسطول الفاطمى الى البحر ودمرتها ، واستسلم من فيها ، وأسروا بالأيدى ، وقتل منهم الكثير ، وكان من بين المأسورين أمير الأسطول نفسه ورؤساء المراكب ، وقد نزل الجميع « الفسطاط » •

وأمر والى مصر فأطلق سراح أهل برقة وطرابلس والقيروان وصقلية ، أما أهل كتامة وزويلة فقد قتلوا جميعا ، وقيد قائد الأسطول ورؤساء المراكب وطيف بهم فى الفسطاط ثم قتل بعضهم وسجن الآخرون •

وكانت هزيمة الأسطول هذه واستيلاء العباسيين على شاطىء الاسكندرية ، وحصر القائم وعزله عن بقية جنده ، بالاضافة الى الامدادات المتوالية على مصر ، وانتشار الأمراض والأوبئة فى الجيش الفاطمى ، كل هذا فت فى عضد القائم ، وجعله يجبن عن لقاء الجند المصرى العباسى ، وآثر أمام الحشد والاستعداد الحربى لعدوه ، العودة الى « برقة » ومنها الى بلاد المغرب سنة ٣٠٩ هـ كما قدمنا(٤٥) •

ولم يكن اللون العسكرى هو كل شىء فى حملة الجيش الفاطمى الثانية ، وانما وجد بجانبه لون آخر تمثل فى الحروب الكلامية ، وحملات الدعاية بين الفاطميين والعباسيين •

يوضح ذلك المكاتبات والأشعار التى بعث بها « أبو القاسم الشيعى » الى أهل مصر ، يوبخهم ويعيب عليهم نكوصهم عن نصر

---

(٣٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٨ ، العينى : عقد الجمان ج ١٤ ص ٢١٧ و ٢١٨ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٥ ، تاريخ أبى الفدا مجلد ٢ ص ٧٣ و ٧٤ •

الشيعة مع علمهم بأنهم ينتصرون للحق ، ويتحملون المشاق فى سبيل اعزاز كلمة الله(٣٦) •

ومع تكريس الفاطميين كل جهودهم ــ عسكرية ودعائية ــ الا أن الفشل كان نصيبهم فى هــذه الحملة ، كما كان فى سابقتها ، ومرد ذلك عدة أمور :

١ ــ الفجيعة الكبرى التى منوا بها فى أسطولهم ، فقد دمر تماما بكل سفنه ، وقتل قائده وخيرة رجاله ، وأذل العباسيون من أسر منهم •

وقد أوقع هــذه النكبة بالأسطول الفاطمى وحدات عباسية لم تتجاوز ربع سفنه ، وهــذا من شأنه أن يوهن قوى الفاطميين ويؤثر على معنوياتهم ، خاصة وقد تعرضوا لذلك فى بداية الحملة ، فشلت حركة بحريتهم فى هــذه الفترة المبكرة ، وضاع على الجيش الدور الذى رســم له للقيــام به •

٢ ــ الامدادات المتوالية والرجال الأقوياء الذين ظلت « بغداد » توفدهم الى مصر •

فلقد قابلت الخلافة العباســية محاولة الفاطميين احتلال مصر بكل قوتها ، ووجهت خــيرة الرجال وأقوى العســاكر للدفاع عنها ، لأنها كانت تعرف أن ضياع مصر يعنى زلزلة الخلافة العباسية واختلال مركزها ، ولهــذا لم تبخل بقوادها وخيرة أفرادها بصــورة أرهبت « القائم » الفاطمى وحملته على مغادرة البلاد •

٣ ــ كانت العوامل الطبيعيــة والجوية كذلك ضد الفاطميين ، فقد قابت الريح أســطولهم وساعدت على تحطيمه ، كما أن الأوبئة

---

(٣٦) انظر امثلة لهذا اللون عند : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٢ وما بعدها •

والمجاعات عرضت الكثير من أفراد الجيش الفاطمي وفرسانه للموت ، وأضاعت فاعليتهم ، وجعلت القائد الفاطمي يفضل الإنسحاب حتى لا يتصدى لعدو كامل العدة تام السلاح وهو في حالة لا تمكنه من مواجهتــه ٠

٤ ـ احتلال رجال الأسطول العباسي للاسكندرية ، وقضاؤهم على حامية الفاطميين فيها ـ بعد تحرك القائم ومسيره نحو العاصمة ـ جعل قوات الشيعة محصورة بين قوتين عباسيتين ، تلك التي احتلت الاسكندرية وحطمت الأسطول الفاطمي فيها ، ثم زحفت في اتجاه العاصمة ، والقوات الأخرى التي كانت معسكرة في الجيزة ، وقد ترك هــذا الوضع الفاطميين في حالة ســيئة ودفعهم الى العــودة من حيث أتوا ٠

٥ ـ لم ينجح الفاطميون في استمالة كثير من الناس وتحويلهم للمذهب الشيعي ، فقد كانت ميول أغلبية الناس سنية ، يدل على ذلك التفافهم حول « مؤنس الخادم » حين قدم نجدة من « بغداد » ، فقد قويت نفوسهم به ، بعد أن ترضاهم ودفع لهم مرتباتهم ٠

حقيقة تجمع قوم واتفقوا على الخروج على والي مصر العباسي ، عنــدما جاء القائم الفاطمي الى الفيوم[٣٧] ، لكن عــدد هؤلاء كان محدودا ، ولا يعني خروجهم على العباسيين أنهم قد تحولوا الى المذهب الشيعي ، وانما يمكن تعليل ولائهم بذلك ، كما يمكن رده لأسباب أخرى ٠

وعلى كل حال فلم يشكل هؤلاء خطرا ، وأمكن القبض عليهم في ســهولة ودون أن يســببوا ارتباكا في الجيش المصري العبــاسي ، ويتضح من العرض السابق أن الجيش الذي تولى الدفاع عن مصر ضد الفاطميين في هــذه الحملة جيش كان يتألف من عناصر ثلاث تضافرت وتعاونت فيما بينها على القاء الهزيمة بالجيش الفاطمي ، هــذه العناصر هي :

---

(٣٧) انظر : الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٧٧ و
Lone Roolee : the history of egypt. p. 80.

(١) جيوش الخلافة العباسية التى قدمت من « بغداد » •

(٢) الجيش الشامى الذى بعث به أمير الشام بناء على رغبة الخلافة العباسية •

(٣) المصريون الذين اشتركوا فى الدفاع عن بلدهم ، ورضوا عن واليهم بعد أن أراح نفسياتهم ، ودفع لهم رواتبهم المتأخرة •

على أن ينبغى الا نغفل دور أسطول « طرسوس » الذى أنجد الخلافة العباسية وألحق هزيمة مرة بأسطول الفاطميين •

حملة الجيش الفاطمى الثالثة (٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م) :

شغلت الأحداث فى بلاد المغرب الخلافة الفاطمية ، وصرفتها عن فتح مصر بعد فشل حملتها الثانية ، وآثرت أن تصرف النظر عن هذا الهدف الى حين وأن تكرس كل جهدها لتثبيت حكمها والقضاء على الخارجين عليها •

وظل الوضع كذلك حتى كانت سنة ٣٢٣ هـ حيث وجد ظرف حاول الفاطميون استغلاله والاستفادة منه فى احتلال الديار المصرية •

ذلك أن مصر كانت فى حالة من الفوضى بسبب التنافس والتقاتل على ولايتها ، وقد نجح « محمد بن طغج الأخشيد » فى الانتصار على منافسيه ، وصدر مرسوم من الخلافة العباسية بتوليته على مصر ، لكن ذلك لم يرق لبعض الأهالى فى البلاد ، وأعلنوا احتجاجهم وخرجوا ناحية الفيوم ، فأرسل اليهم الوالى جيشا تمكن من هزيمتهم •

توجه بقايا المهزومين نحو « برقة » وأرسلوا الى الخليفة الفاطمى يغرونه بارسال جيش من عنده ليستولوا به على مصر باسم الفاطميين ، وبرروا طلبهم بأنهم يعرفون البلاد ويدرسون المداخل والطرق التى تمكن من السيطرة عليها ، ولقى الطلب استجابة من جانب

الفاطميين ، وقررت الخلافة الفاطمية امداد الفارين بالعساكر ، وأرسلت بنى « كتامة » الذين « ببرقة » تطلب منهم الانضمام اليهم ، وبعثت من العاصمة بقوات كذلك ، وتجمع كل هؤلاء وساروا الى الاسكندرية .

بلغ ذلك للوالى « محمد بن طغج » فاستعد للقاء الفاطميين ، وندب الناس للقتال ، وأخرج العساكر ، ووزعها على مداخل البلاد فى الاسكندرية وفى بلاد الصعيد .

ثم التقى الجيش العباسى بجيش المغاربة فى المنطقة ما بين « تروجة وأبلوق »(٣٨) وقامت بينهما معركة انهزم فيها جيش الفاطميين وقتل منهم عدد وأسر آخر ، وفر من نجا الى « برقة » وقضى على كثير من المتمردين .

ثم تتبع الجيش الأخشيدى الفارين وقتل من أدركه ، وعاد بالأسرى فطيف بهم فى الجيزة وكان فيهم عدد من وجود الفاطميين ومن مشاهير قوادهم(٣٩) .

وهكذا كان حظ هذه الحملة الإخفاق كسابقتها ، لأنها صادفت فى مصر واليا حازما استطاع أن يجمع الناس من حوله ، وأن يكون جيشا قويا بلغ خمسة عشر ألفا ردت المهاجمين والمتمردين .

وقد صادف اعداد هذه الحملة العام الأول من خلافة القائم بعد وفاة والده ، وكان عندئذ مشغولا بتأمين الحكم فى بلاد المغرب .

فقد أرسل قائده « ميسورا الفتى » فى نفس الظروف لمحاربة

---

(٣٨) تروجه محلها الآن كوم تروجة تبع زاوية صقر مركز أبى المطامير بحيرة ، وانظر تعليق النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣٠ وابلوق الآن هى كفر سليم مركز كفر الدوار بحيرة انظر محمد رمزى القاموس الجغرافى القسم الثانى جـ ٢ ص ٣٢٠ .

(٣٩) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

الثائر « ابن أبى العافية » كما بعث بأسطوله لفتح « جنوة » وبلاد الروم[٤٠] .

لذلك لم يتمكن من اعداد جيش يصل الى المدى الذى وصلت اليه الجيوش السالفة ، عندما كانت تعد الحملة أصلا لفتح مصر ، ومع ذلك فقد كان استنجاد الثوار بالخليفة فرصة لم يرد لها أن تفلت من بين يديه وان لم تفده شيئا .

محاولة سلمية :

توطد مركز « ابن طغج » فى مصر والشام بعد هزيمته الفاطميين، وأعاد للبلاد الأمن والنظام ، وقضى على كل المعادين والمنافسين له ، الشيء الذى جعل الخليفة العباسى يكافئه باضافة لقب « اخشيد » — ويلقب به ملوك فرغانة — الى اسمه ، ودعى له بذلك على المنابر المصرية والشامية[٤١] .

كل ذلك جعل الخليفة الفاطمى « القائم » يترك أساليب العنف والقتال ، ويلجأ الى سياسة المسالمة واللين ، فقد يكون ذلك أجدى وأعود على الخلافة بالفائدة والنفع .

لذلك أرسل كتابا الى « محمد بن طغج الأخشيد » يستجلب مودته، ويدعوه لما فيه منفعته ، ونثبت هنا هذا الكتاب ، لأنه يمثل تحولا فى سياسة الفاطميين نحو مصر ، خلال فترة قوتها أيام محمد الأخشيد :

« قد خاطبتك — أعزك الله — فى كتابى المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجز لى فى عقد الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون ، وضمنت رقعتى ما لم يطلع عليه أحد من كتابى

---

(٤٠) انظر : ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٢١٧ .

(٤١) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٨ ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ١٣٧ .

وذوى المكانة عندى ، وأرجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك الى ما أدعوك اليه ، فقد شهد الله على ميلى اليك ، وايثارى لك ، ورغبتى فى مشاطرتك ما احتوته يمينى ، واحتوى عليه ملكى ، وليس يتوجه لك المعذر فى التخلف عن اجابتى ، لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يردون احسانك ، ولا يشكرون اخلاصك ، يخلفون وعدك ، ويخفرون ذمتك ، لم يعتقد فيهم أحد حسن المكافأة ، ولا جميل المجازاة ، وليس ينبغى لك أن تعدل عن منهج من نصحك وايثار من آثرك الى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك ، وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره اليك العدول عنهم ، فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق ، فاننى أراضى منك بالمودة والأمر والطاعة ، حتى تقيمنى منك مقام رئيس من أهلك تسكن اليه فى أمرك ، وتعول عليه بمثل ذلك ، واذا تدبرت هـذا الأمر علمت أن الذى يحملنى على التطاطى لك وقبول الميسور منك ، انمـا هو للرغبـة فيك ، وأنت حقيق على حسن مجازاتى على ما بذلته ، والله يريك حسن الاختيار فى أمرك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل »[٤٢] •

وواضح من الرسالة أن الأخشيد قد ارتفعت مكانته حتى خطب وده الخليفة الفاطمى ورجاه أن ينضم الى جانبه ، كما أنها تدل على أن الفاطميين لم يكن يعنيهم الا طاعة الناس لهم ، ولو كان ذلك على حساب الدين •• « قد خاطبتك بما لم يجز لى فى عقد الدين » •

ومهما يكن من أمر فقد وقف والى مصر ، موقف المتردد من هذه الرســالة وأجل الاجابة عليها يوما بعد يوم ، الى أن ساءت العلاقة بينه وبين الخلافة العباسية ، بسبب موقفها السلبى من نزاعه مع أمير الأمراء « ابن رائق » عندئذ فكر فى أن يحول مصر فاطمية ، ويخطب

---

(٤٢) ابن سعيد الأندلسى : المغرب ص ١٧٥ ، ١٧٦ جـ ١ طبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٥٣ تحقيق زكى محمد حسن وآخرين ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١١٩ ، ١٢٠ •

فى البلاد باسم الفاطميين ، فأرسل الى خطيب المسجد ، والى الشخصيات العلوية المهمة وفاوضها فى ذلك(٤٣) .

ومع ذلك فيرجح أن الخطبة الفاطمية والدعاء لهم ، لم يتم ، ذلك لأن أهل السنة كان نفوذهم ما يزال قويا فى البلاد ، ولم يكن الرأى العام فيها قد اتجه الوجهة الشيعية .

وقد انتهت المشكلة بتولى « ابن رائق » على معظم الشام ، وتولى « الأخشيد » « مصر والرملة » ، وعمل كل منهما باسم العباسيين ثم مات والى الشام فى حرب مع الحمدانيين فزحف الأخشيد الى دمشق وضمها ثانية لأملاكه سنة ٣٣٠ هـ (٤٤) .

حملة الجيش الفاطمى الرابعة والأخيرة على مصر :

توقف ارسال الحملات العسكرية الى مصر ، فى الفترة التى بقيت من حكم القائم (٣٣٤ : ٣٤١ هـ) ، لأن الحوادث فى بلاد المغرب ، كانت قد استنفذت كل مجهودات الدولة ، وأتت على قدراتها المالية .

كذلك عنى الخلفاء الفاطميون باعداد جيوش بعثوا بها الى المغرب الأقصى والأوسط ، لتعيد هذه البلاد الى قبضتهم ، وتنتقم من الخارجين عليهم .

ولم يكد الخليفة « المعز » ينجح فى تحقيق ذلك ، وتدين له البلاد ما بين برقة والمحيط الأطلسى ، حتى أخذ يتوجه بنظره نحو

---

(٤٣) انظر نصا لمحادثة بين الأخشيد وداع فاطمى حول هذه القضية فى :

ابن سعيد : المغرب ص ١٧٦ و ١٧٧ ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٢١ و ١٢٢ .

(٤٤) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٣ من ص ٢٥١ الى ص ٢٥٤ .

مصر ، ويعمل للاســـتيلاء عليها ، وأنشــأ يعد العدة لذلك منــذ ســنة ٣٥٥ هـ [٤٥] .

فأمر بحفر الآبار فى الطريق من القيروان الى مصر[٤٦] كما أمر باتخاذ الأماكن على طول ذلك الطريق لاراحة الجند .

وكانت أحوال مصر قد اختلت ، واضطربت أوضاعها بشــكل يشجع على غزوها ، فقد توفى والى مصر « كافور » سنة ٣٥٧ هـ ، وتولى من بعــده ، طفل على البلاد ، وعهــد بالادارة المــالية الى « أبى الفضل جعفر بن الفرات » فآذى الناس وصادر أموالهم وقبض على جماعة منهم ، وتعرض لثورة العساكر الأخشيدية والكافورية[٤٧] وطالبــوه برواتبهم فى الوقت الذى لم تصــل فيه أموال الخراج والضــمانات الى الخزانة[٤٨] ، كمــا وصل فى هــذه الأثناء جيش الاخشيديين منهزما من القرامطة .

وهــذا الجو السيء فى مصر حمل جماعة الى مكاتبة الخليفة « المعز لدين الله » ، يطلبون منه ايفاد عساكره اليهم ، وتخليصهم مما هم فيه من فوضى .

كما هرب الى بلاد المغرب « يعقوب بن كلس » وكشف حقيقة الواضــع الداخلى فى مصر ، وشرح نواحى ضعفها ، وهون عليــه أمر احتلالها[٤٩] .

---

(٤٥) انظر : المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٨ .
The histors of egypt. p. 101.

(٤٦) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٨ ، وليبنبول :
(٤٧) الأخشيدية مماليك الأسرة الأخشيدية وانصارها ، والكافورية : انصار كافور الذين رقاهم الى المناصب العالية فى الدولة ـ حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٢٣ .
(٤٨) اخبار المعز لدين الله لمجهول لوحة رقم ٢ و ٣ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية .
(٤٩) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١ .

بل ان أحد الاخشيديين ، شارك فى مكاتبة « المعز » حين نصحه داع فاطمى بذلك ، وأرسل اليه يدعوه لأخذ البلاد .

وقد أكد دعاة الشيعة فى مصر اضطراب الوضع فيها ، وأن الفرصة قد أصبحت مواتية لارسال جيش اليها وقالوا : ان كافورا كان الحجر الذى يمكن أن تتحطم عليه محاولات الفاطميين لفتح مصر ، وما دام قد مات فقد أصبح أمر الفتح ســهلا : « اذا زال الحجر الأسود ، ملك مولانا « المعز » الأرض كلها ، وبيننا وبينكم الحجر الأسود يعنون كافورا »(٥٠) .

وقد أرســل الخليفة « المعز » بنودا الى دعاته ، وطلب منهم توزيعها على من يبايع من الجند ، فاذا ما قربت العساكر الفاطمية نشروها(٥١) .

تخلص من ذلك كله بأن الحالة فى مصر كانت مهيأة والظروف مناسبة لفتح ذلك البلد الهام ، وقد اتخذ الخليفة « المعز » الخطوات العملية اللازمة لتحقيق ذلك الهدف .

فأمر قائده « جوهر » ــ بعد أن جاء فى عسكر عظيم من كتامة والبربر من بلاد المغرب ــ أمره بأن يستعد للتوجه نحو البلاد المصرية ، فحشــد ذلك القائد الكتامين والزويليين وعامة البربر فى جمع كبير برز به الى « رقادة » .

وأراد الخليفة الفاطمى أن يترضى كل أولئك الجنود ، ففتح لهم بيت ماله ، ووزع عليهم جميعا من عشرين الى مائة دينار ، وعم عطاؤه كل الناس ، وفتح أسواق « القيروان » ليبتاع الجند منها ما هم فى حاجة اليــه .

---

(٥٠) انظر : سبط ابن الجــوزى : مرآة الزمان ج ٧ ص ٣٠ مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٥١) انظر : المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٧ .

وجهز أكثر من مائة ألف — هم عدة الجند الفاطمى — بالأسلحة والمعدات ، وزود حملتهم بأكثر من ألف ومائتى صندوق من المـــال ، وزاد « المعز » فأمر « جوهرا » أن يأخذ من بيت المـــال ما يريد زيادة على ما أعطاه ، وجعل يخلو به كل يوم ويوصيه ويؤكد له أن فتح مصر سيكون على يديه .

وحيث أن فتح مصر ، قد ارتبط بالقائد « جوهر » ، وتم على يديه تحقيق الأمل الفاطمى ، فان من المناسب أن نقدم ترجمة لذلك القائد هدفها التعريف به :

هو « جوهر الصـــقلى » : ولـــد فى أرض الروم فلقب بالرومى وعاش فى صقلية فلقب بالصقلى .

وقد كان الســـلاف أو الصقالبة — وهم ســـكان المنطقة ما بين القسطنطينية وأرض البلغار — يدخلون البلاد الاسلامية أرقاء .

واشتهرت صقلية خاصة بكثرة العبيد فيها ، لطبيعة هذه الجزيرة ، ولأنها المركز الأساسى للقمح الذى كانت تحتاجه روما(٥٢) .

وينتمى « جوهر » قائد الفاطميين الى طائفة العبيد من هـــذه الجزيرة ، وقد أحضره الى القيروان خادم يعرف بصابر ، انتقل منه الى خادم يعرف بخيران ، ثم انتقل الى خفيف الخصى ، وقد توســـم فيه النجابة فأهداه الى الخليفة الفاطمى « المنصور » فجعله حارسه الخاص(٥٣) ثم انتقل الى الخليفة المعز بعد وفاة المنصور ، فأعتقه ذلك الخليفـــة ، وسرعان ما ترقى فى المناصب على أيامه حتى تولى الكتابة له ، ولقب بالكاتب ، واختص بالمعز ، وكان كوزيره الخاص ،

---

(٥٢) انظر : دائرة المعارف الاسلامية مادتى صقالبة وصقلية .

(٥٣) انظر : ميشيل امارى : المكتبة الصقلية جـ ١ ص ١٩٧ نقلا عن القضـــاعى .

وكنى بأبى الحسن ، ثم تولى قيادة الجيوش وأضحى من أبرز القواد الفاطميين •

وكان أول عمل حربى قام به هو حملته على بلاد المغرب سنة ٣٤٧ هـ ، فقد استطاع أن يفرض هيبة الفاطميين على تلك النواحى وأعاد فتح سجلماسة وتيهرت واستولى على فاس وواخضع سبتة وطنجة ، وانتهى فى حملته الى المحيط ، وكانت تلك الحملة بداية مجده الحربى وشهرته كقائد عسكرى •

ثم نجح بعد ذلك فى تحقيق أمل الفاطميين الأكبر حيث تمكن من فتح مصر كما سيأتى ، واستمر يحكم من القاهرة نيابة عن « المعز » حتى سنة ٣٦٢ هـ ، وقد تمكن من هزيمة جيش للقرامطة على أبواب مصر ، وفتح بلاد الشام وحول مصر تدريجيا الى شعائر الشيعة •

ولما حضر الخليفة « المعز » الى مصر استقبله بحفاوة بالغة ، لكن يبدو أن الخليفة رأى سيطرته على كل شىء ، فآثر ابعاده عن مجرى الحوادث حتى لا يؤثر ذلك على سلطانه ، واستمر « جوهر » متواريا عن الأنظار طوال عهد الخليفة المعز ، ثم ظهر على مسرح الحوادث ثانية حين ندبه الخليفة العزيز لمقاتلة « الفتكين » كما سيأتى •

ولما تحالف « القرامطة والفتكين » عليه انسحب الى مصر ، وطلب من « العزيز » الخروج بنفسه ، فكون الخليفة جيشا خرج على رأسه ، وكان « جوهر » على رأس الطليعة فى ذلك الجيش ، وقد استطاع الفاطميون احراز النصر على أعدائهم لكن « جوهرا » عاد بعد ذلك الى زوايا النسيان ثانية ، واستمر فى شبه عزلة الى أن توفى سنة ٣٨١ هجرية (٩٩٢ م) •

وقد كان الرجل سمحا محسنا للناس ، ولذلك لم يبق شـاعر الا رثاه(٥٤) .

مهما يكن من أمر فقد أذن الخليفـة للجيش بالمسير ، وخرج بنفسه ــ ومعه كل أولاده وحاشيته ــ لتوديع « جوهر » ، وأمرهم بالترجل اكراما له ، وحتى تكون معنويات القائد عالية ، زاد الخليفة فى تقديره وتشريفه ، فرجع الى قصره ، وأرسل اليه كل ما يلبسه سوى سراويله وخاتمه ، وأمر والى « برقة » بالترجل لقائده عند مروره عليه ، ولم يقبل منه مائة ألف دينار مقابل أن يعفى من ذلك(٥٥) .

أخـذ الجيش الفاطمى فى المسـير يوم السبت ١٤ ربيع أول سنة ٣٥٨ هـ ، وأغـذ السـير فوصل الى البلاد المصرية فى جمادى الآخرة ، ووصلت أخبار مجيئه الى مصر فازداد اضطراب أهلهـا ، وتضاعف رعبهم ، واجتمع أصحاب الرأى يرأسهم الوزير « جعفر بن الفرات » واستقر رأيهم على مراسلة « جوهر » فى طلب الصلح على أن تبقى لهم ضياعهم واقطاعاتهم ، واشترطوا لأنفسهم شروطا .

ثم سار جماعة من الأعيان ــ فيهم القاضى والشريف أبو جعفر مسلم ــ الى القائد الفاطمى ، فالتقوا به عند « تروجة » بالقرب من الاسكندرية ، وعرضوا عليه أمان المصرين وشروطهم فأكرمهم ووافق على طلبهم .

---

(٥٤) انظر : دائرة المعارف الاسلامية مادة « جوهر » ، خطط المقريزى مجلد ٢ جـ ٢ ص ٢٠١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ــ أجزاء ــ جـ ١ ص ٣٢٥ ترجمة ١٤١ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ــ القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

(٥٥) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٢٥ ، واخبار المعز لدين الله لمجهول لوحة / ٤ ، وابن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان جـ ١ ص ١٢٦ ، ولينبول : The history of egypt. p. 55.

بيد أن الأمور لم تسر فى العاصمة كما أراد لها القادة أن تسير ، وأخذ الاخشيدية والكافورية — بعد ذهاب الوفد الى جوهر — يخرجون ممتلكاتهم ويستعدون لحرب الفاطميين ، وقام فى المساجد من يحمس المصريين ، ويحرضهم على قتال الشيعة ، ويذكر مساوئهم فى بلاد المغرب ، واتهموا الوزير بقلة المعرفة وأنه شرع فى اتلاف البلاد وسفك دم أهلها حينما راسل « جوهرا » ، وترك هذا الكلام أثرا عند بعض الناس ، فرجعوا عما سألوه من الأمان •

ولما عاد اليهم الشريف وصحبه ، وقرأوا سجل الأمان عليهم ، وبينوا لهم استجابة القائد الفاطمى لما طلبوه من الولاية والاقطاع ، احتدم النقاش بينهم وبين الشريف ، وحاول أن يغريهم بالتسليم ولكن ذلك لم يجد شيئا ، فقد أصر القوم على القتال ، ونظموا عساكرهم وهيأوا صفوفهم ، وولوا على أنفسهم « نحرير سويدان » وقالوا ما بيننا وبين « جوهر » الا السيف ، ثم ساروا نحو الجيزة للقاء الفاطميين بعد أن أعدوا للأمر عدته •

وصل جيش الفاطميين الى جموع المدافعين ، وقامت معركة أسر فيها رجال ، وأخذت خيول •

ثم وضع « جوهر » خطة للحرب والوصول الى الفسطاط ، ومضى نحو « منية الصيادين » حيث استأمن اليه من بها من الاخشيدية وأمدوه بعشاريات ، وسار الباقون نحو « منية شلقان »(٥٦) ليحاربوا الفاطميين عندها •

---

(٥٦) انظر : تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٢ طبع بيروت سنة ١٩٠٩ م ومنية الصيادين هى الآن ميت النصارى المشتركة فى السكن مع ناحيتى امبابة ووراق الحضر مركز امبابة ، ومنية شلقان هى اليوم قرية شلقان الواقعة شرقى القناطر الخيرية مركز قليوب انظر تعليق النجوم الزاهرة فى ج ٤ ص ٣١ •

نظر « جوهر » فرأى تجمع أعدائه على الجانب الآخر من النهر ، فقرر أن يعبر اليهم مهما كلفه ذلك من ثمن ، ولذلك ندب أحد قواده — جعفر بن فلاح — وأمره بعبور النهر الى الاخشيدية قائلا « لهذا اليوم أرادك المعـز » ، فعبر الرجل فى بعض أصـحابه ، وخرج اليـه الاخشيديون ، ووقع قتال مات فيه كثير من الاخشيديين وأتباعهم . وهرب من بقى منهم نحو مصر ، فدخلوها فى الظلام ، وأخذوا ما قدروا عليه ثم ولوا الأدبار .

تجمعت النسـاء والعامة بالعاصمة المصرية بعد معرفتهم بهزيمة الاخشيدين ، وسألوا الشريف أبا جعفر مسلم أن يتوسط لهم عند « جوهر » لاعادة الأمان ، فأجابهم القـائد الفاطمى الى طلبهم ، وبعث رسـولا معه علم أبيض طاف به فى العاصمة ، وطمأن الناس ومنع السلب والنهب عنهم ، وساعد ذلك على هدوء البلد ، وسكون شـعبها ، خاصـة حين قرىء عليهم سـجل الأمان الذى بعث بـه « جوهر » اليهم .

وقد أكد ذلك السـجل وحدة المسلمين ، ورسـم صورة لحال الدولة العباسية فى ذلك الوقت ، وحدد الأهداف والمقاصد التى بعثت الفاطميين على فتح البـلاد ، ووضح سياستهم ومذهبهم الدينى ، واحترامهم عقائد المسلمين ومشاعرهم ، ودعا الناس الى تقوى الله ، والى الخلق القويم ، ونشر العـدل فى الناس باعتبـار ذلك ركيزة أساسية لحكم سـليم(٥٧) .

وظل « جوهر » حريصا على مشاعر الناس فى مصر ، وتدرج فى عملية قلب البلاد الى بلاد شيعية ، وجعل ذلك على مراحل بدأت

---

(٥٧) انظر نص سـجل الأمان فى :

المقريزى : اتعاظ الحنفا من ص ١٤٨ الى ١٥٤ ، والدواداري : زبدة الفكرة ج ٦ لوحة ٢٠١ وما بعدها .

بذكر اسم « الخليفة المعز » فى الخطبة ، وانتهت باقامة الشعائر الفاطمية فى الصلاة والأذان بجامع « ابن طولون » سنة ٣٥٩ هـ ، ثم جامع مصر العتيق (عمرو بن العاص) وبقية الجوامع بعد ذلك[٥٨] .

مهما يكن من أمر ، فقد بدأ الجيش الفاطمى عبور الجسر الى العاصمة المصرية ، مع عساكره بالسلاح والدروع والجواشن ، وقد استغرق دخول الجند سبعة أيام متوالية ، وكان بين أيديهم مال وصل الى أكثر من ألف صندوق[٥٩] .

ثم بعث « جوهر » الى الخليفة « المعز » يبشره بالفتح ، وأزال شعار العباسيين ، ووضع مكانه الشعار الفاطمى الأبيض ، وصك العملة باسم الخليفة الفاطمى[٦٠] .

ولم ينس القائد الفاطمى أن يتتبع أعداء الفاطميين من الأخشيدية والكافورية ، فقتل كثيرا منهم ، وأرسل رءوسهم الى « المعز » ، وقد اكتمل له من هؤلاء الأعداء خمسة آلاف فى نهاية سنة ٣٥٨ هـ ، وسألوه الأمان فأمنهم ، وبعث بهم مأسورين الى الخليفة فى افريقية .

كان من بين المأسورين « الحسن بن طغج » ، وقد استدرجه الخليفة « المعز » حتى عرف منه كبار أعداء الشيعة ، ومن يضمر له السوء فى البلاد ، وقد ظن الرجل أن « المعز » لا يريد بأحد سوءا ، فذكر له جماعة من قواد مصر وأرباب الأموال « كانوا كثارون فى المغنى » فكتب « المعز » الى « جوهر » يطلب استئصالهم وأخذ أموالهم فنفذ القائد ارادة خليفته[٦١] .

---

(٥٨) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٢٩ .

(٥٩) انظر : العينى : عقد الجمان جـ ١٥ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٥٨ .

(٦٠) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٢٩ .

(٦١) انظر : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٧ ص ٣١ .

وبذلك استطاع الفاطميون أن يطهروا البلاد ، ويخلصوها من أعدائهم ، وأن يقضوا على كل المخالفين لهم .

وقد اختط « جوهر » مدينة القاهرة فى المكان الذى أناخ فيه عساكره ، وفى الليلة التى عبر فيها الى مصر .

وكان هدفه من اقامتها أن تكون معسكرا يقيم فيه الجنود ، وقد جعل كل جانب من جوانب المدينة الجديدة لأمير من الامراء ، وكلفه ببناء حارة فيه — حسبما أمره المعز لدين الله — وسميت كل حارة باسم مقدمها أو الطائفة التى نزلت فيها ، فهذه الحارات اذن ستكون بمثابة معسكرات للجيش الفاتح ، وسيأتى حديث عن توزيع الجيش على هــذه المعسكرات أو الحارات بعد تمام الفتح . كذلك أدار «جوهر» المدينة بســور من اللبن ، وأسس قصرا للخليفة ينزل فيه عند مجيئه الى مصر(٦٢) .

وقد مر بنا أن حالة الاقتصاد فى مصر كانت ســيئة ، وكان بها غلاء فاحش عند نزول العســكر الفاطمى ، لذلك أمر القائد « جوهر » بتوزيع الصدقات على الناس ، ونادى قاضى عسكره « من أراد الصدقه فليصل الى دار أبى جعفر » فاجتمع خلق من المحتاجين والفقراء وتوجهوا الى الجامع العتيق ، حيث وزعت عليهم الصدقات والأموال .

كذلك استحث « جوهر » الناس على اخراج ما عندهم من القمح ، كوســيلة لعلاج الأزمة وتخليص الشعب من مجاعته وبؤسه ، ولم يال القائد الفاطمى جهدا فى ارضاء الشعب وللتقرب اليه .

ويلاحظ أن الجيش الذى فتــح مصر كان من كتامة والبربر ، ولم تمثل فيه قبيلة « صنهاجة » مع انها كانت للذراع الفاطمى الثانى .

---

(٦٢) انظر : المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٥٨ ، ٦٠ر .

ويظهر أن الخليفة الفاطمى « المعز » كان يدخرهم لحكم بلاد المغرب بعد رحيله عنهـا ، فهم الذين فى مكنتهم القبض على زمام السلطة فى البلاد المغربية ، وهم الذين يستطيعون منافسة « زناتة » عدوة الفاطميين ، ولذلك ترك الصنهاجيون فى بلاد المغرب ، وتضمن الجيش الفاطمى كثيرا من الكتاميين ليستمروا عونا للخلافة الفاطمية فى مقرها الجديد .

وهكذا نجحت هذه الحملة فى اسقاط حكم الخلافة العباسية فى مصر ، وحولتها الى ولاية فاطمية تدين بالولاء للخليفة الشيعى المقيم فى بلاد المغرب ، وستبقى مصر على هـذه الحال مدة لن تتجاوز اربعة أعوام ، تصبح بعدها كنهـا للخلافة الفاطمية ، ومركز الحكم الفاطمى الشيعى ، وذلك عنه ما ينتقل اليها الى الخليفة الفاطمى ، ويجعل مقر حكمه فيها سـنة ٣٦٢ هـ .

ونجاح هـذه الحملة فى مهمتها ، يدفعنا الى تلمس أسـباب نجاحها ، وعوامل توفيقها ، ونشرع فى ذلك منذ الان :

١ ـ أول هـذه الأسباب هو استقرار الحكم الفاطمى فى بلاد المغرب ، فقد دانت كل قبائله وبلاده « للمعز لدين الله » حتى هؤلاء الذين استعصوا على سابقيه (مثل بنى كملان ، ومليلة) أتوه طائعين ، وأسرهم بجوده ولينه ، وصح لهذا ان يصفه واحد من المؤرخين بأنه سعد سعادة لم ينلها أحد من الفاطمين لا قبله ولا بعده[٦٣] .

وليس من شك فى أن هـذا الاستقرار جعله يفرغ لفتح مصر ، ويوجه ما تحت يده من امكانات بشرية ومادية وعسكرية لهذا الفتح عله يحقق املا طالمـا راوده كما راود آباءه من قبل .

---

(٦٣) انظر : ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ص ٩٩ مخطوط بدار الكتب المصرية .

٢ ــ أعد ذلك الخليفة العساكر للجرارة والجيوش الكثيرة التى تجاوز تعدادها المــائة ألف ، ووجد من وصفها بأنها كانت مثل جبل عرفات كثرة وضخامة وعظما(٦٤) .

ويكفى تعبيرا عن حجم ذلك الجند أنه دخل مصر أفواجا بعــد الفتح ، وفى مدة اســتمرت أياما سبعة ، وأن شـــاهد عيان له هو ابن هانىء الأندلسى ــ شاعر المعز لدين الله ــ وصفها بأنها سدت ما بين المشرق والمغرب ، وأنها أعادت الى ذهنه يوم مبعث الناس حين يحشر كل خلق الله أجمعين :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع   وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غــداة كأن الأفق ســـد بمــثله   فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

ولم يرض الخليفة بالكثرة العددية وحدهــا ، بل حرص كذلك على أن يهيىء لعسكره للراحة التامة على طول الطريق الى مصر ، فأعد منازل يستريح فيها الجند ، وحفر لها الآبار لتوفير حاجتها من المــاء ــ بسبب موت أكثر الحملة الثانية تأثرا بالعطش ــ وكل ذلك كى يصل الجيش الى هدفه محتفظا بقواه ، لم يضنه طول الطريق ، أو تنال منه جسامة الرحلة ومشقتها .

واهتم الخليفة فوق ذلك بنفسيات الجنود ، وايمانهم بمهمتهم ، فزود الحملة بمبلغ ضخم من المــال ، بلغ ــ على أقل تقدير ــ مائتان وألف صندوق اشتملت على أربعة وعشرين مليونا من الدينارات(٦٥) وأفاض فى الاغداق على رجال الجيش ، وأكثر من هــذا فتح خزائنه لقائده « جوهر » وأمره أن يأخذ منها ما يكفيه زيادة على ما أعطاه .

---

(٦٤) هــذا الوصف لأبى جعفر الشريف عندما ســأله المؤرخ « ابن زولاق » عن العسكر الذى فتح مصر ، وانظر : المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٥٤ .

(٦٥) انظر لينبــول : The history of Egypt, p. 101.
والمقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٩ .

ولا ريب فى أن هـذا فرغ الجنود لمهمتهم ، وجعلهم لا يدورون الا حولها ، ولا يفكرون الا فيها ، وأنشأ عندهم عزما أكيدا ، ورغبة صادقة فى فتح مصر ، استجابة لرغبة خليفة لم يبخل عليهم بشىء .

٣ ـ سبق أن قلنا أن الحكم كان مضطربا وفاسدا فى البلاد المصرية بعد موت « كافور » فالبلد يموج بتيارات الفتنة ، والجند ثائرون على الحكومة ، والحكومة عاجـزة عن مطالب الجند . والمتقبلون لم يؤدوا ما عليهم للدولة ، والشعب أنهكه الجوع والمسغبة ، وقضى عليه الغلاء والمجاعات ، وما تبع ذلك من أوبئة وأمراض ، هـذه الحالة للسياسة السـيئة ، وهـذه الأحوال العسكرية والاقتصادية المنهارة ، جعلت الشعب يستسلم بسـهولة عندما جاءه الجيش الفاطمى .

حقيقة صادف الفاطميون مقاومة يسيرة ، لكنها كانت من بعض الأخشيدية والكافورية ، فقد عز عليهم أن يضيع نفوذهم السياسى ، وتنهار سـلطتهم ومالهم ، فوقفوا ضد الفاطميين تأمينا لمصالحهم ، وحتى هؤلاء كانوا أقلية ، وما لبث بعضهم أن استأمن « لجوهر » وعبر فى القوارب اليه ، وفر بقيتهم مذعورين عند أول لقاء حربى .

أما الشعب المصرى نفسه فلم يبد منه أنه عارض فى التحول الى الخلافة الشيعية ، لأنه أدرك أن تحويل السلطة من العباسيين الى الفاطميين ، لن يترتب عليـه تغير فى سياسته ، فالمصريون فى كلتا الحالتين ، سيخضعون لسلطان حاكم . وليس يضيرهم بعد هـذا أن يكون شـيعيا أو سنيا .

على العكس ربما كان انتقالهم الى الفاطميين ، معينا لهم على التخلص من الأخطار التى تحيط بهم ، والخروج من حالة الشـقاء التى عاشوا فيها ــ كما وعدهم بذلك « جوهر » فى كتاب أمانه(٦٦) .

---

(٦٦) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٧ .

ولقــد ساعدت حالة الشعب هــذه على تذليل الصعاب أمام « جوهر » وجعلت فتح مصر ســهلا ميسرا على يديه .

٤ ـ رأينا فى الحملات السابقة كيف تتابعت الجيوش تلو الأخرى من « بغداد » مددا للمقاومة المصرية ، وتمكينا لها من طرد المغيرين ، فقد وفدت القوات البرية والأساطيل البحرية الى مصر ، ترد عسكر أصحاب افريقية وتمنع ســقوط مصر فى أيديهم .

ومرد ذلك أن الدولة العباسية ـ وولايتها مصر ـ كانت ما تزال تحتفظ بشىء من القوة يجعلها قادرة على التصدى للجيوش المعتدية وعلى ايقاع الهزيمة بها .

أما الآن فالدولة العباســية تعــانى تمزقا فى الداخل وهجوما سافرا من الخارج ، ففى الداخل تشغلها الفتن بين مختار بن معا للدولة وبين عضد الدولة ابن عمه(٦٧) ويستبد البويهيون بالحكم فيها ، ولا يتركون للخليفة الشرعى شيئا ، بل ان «بنى بويه» الشيعة قد امتد شرهم الى حياة الخلفاء نفسها ، ولم يعد للخليفة معهم ســوى السلطة الدينية متمثلة فى ذكر اسمه فى الخطبة ونقشــه على السكة ، وحتى ذلك كانت غايته سياسية وهى احتفاظ هؤلاء بمراكزهم أمام الجمهور .

وقد قدم « جيبون » وصفا لحالة للدولة العباسية فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى الذى فتحت فيه مصر جاء فيه :

« لم تكن حالة الضعف التى وصلت اليها الخلافة العباسية راجعه الى السياسة فحسب ، بل تعدتها الى الدين أيضا ، فقد نشــأ من المذهب الشــيعى على مر الســنين مذاهب متعــددة أهمها المذاهب الفاطمى ....

وقد ظهر فى الأزمنة الحديثة كذلك الاختلافات الدينية فى بغداد ، فقام أنصار « ابن حنبل » وانقضوا على بيوت الأمراء ، وذوى اليسار ،

---

(٦٧) انظر : ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٤٨ .

وكسروا أوانى الخمر ، وحطموا الآلات الموسيقية ، وضربوا المغنيين ، وأهانوا الفتيان والفتيات وأساءوا بهم الظنون ، ولم يكن من سبيل للقضاء على هذه الفئة الا بقوة حربية ، ولكن من ذا الذى يمكنه أن يسد جشع طائفة المرتزقة أو يؤيد النظام بالقوة بين أفرادها • ؟

هذا الى ما كان من سل الحرس من الأتراك وأهل افريقية السيف كل فى وجه الآخر ، وأصبح فى يد أمير الأمراء حبس الخليفة وخلعه وقتله ، فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة فى النفوس ، ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى الا هربه الى معسكر أحد الأمراء ، فكان انقاذه تحولا عما هو فيه من مذلة الى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس الى دعوة بنى بويه لمعونته وتخليصه مما هو فيه ، فاذا وقع تحت رحمتهم صار ألعوبة فى أيديهم(٦٨) •

ولم تكن حالة الدولة العباسية سيئة فى الداخل فحسب ، بل كانت كذلك فى الخارج ، فقد تعرضت لكثير من هجمات الدولة الرومانية البيزنطية ، وضاع منها كثير من ممتلكاتها خاصة فى الشام والعراق(٦٩) •

وقد أعلن الخليفة العباسى نفسه أن أسلحته وخراج دولته قد انتزع من يديه ، وأنه لم يعد قادرا على الدفاع عن بغداد(٧٠) •

---

(٦٨) انظر
Gibbon : Decline and Full of the Roman embire , 4 ed Vol . Vl, pp : 54 - 56.

وحسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٣٠ و ١٣١ •

(٦٩) انظر : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٧ ص ٣٠ ، يحيى بن سعيد : تاريخ يحيى بن سعيد : صفحات ١١٨ و ١٢٠ و ١٢١ و ١٣٩ و ١٤٠ — وكذلك :

وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٢ •

(٧٠) انظر : الريس : الخراج ص ٤٩٠ •

وهكذا تعرضت الدولة العباسية لاستبداد البويهيين فى الداخل ، ولغارات رومانية قوية ، شلت حركتها وسلبتها أعز ولاياتها •

فاذا ما أضفنا لذلك استقلال كثير من بلدان الخلافة عنها ، أو على الأقل تفويض الحكم فيها لأسر تستقل بها ، ولا يربطها بالخلافة الا الدعاء فى الخطبة ونقش اسم الخليفة على السكة ، لتبين لنا كيف كان من الصعب على الخلافة العباسية فى « بغداد » أن تقوم بحماية مصر ، أو تتمكن من ارسال جيش يذود عن هذه الولاية •

لقد « أصبحت الأمور فوضى ، وفرغت الخزائن ، وأخذت تنحصر رقعة الخلافة وتتجزأ الإمبراطورية التى كانت موحدة »(٧١) •

لقد كان لدى الخلافة ما يشغلها عن مصر وما فيها ، وأصبحت غير قادرة على حماية حتى عاصمتها ، كما بان ذلك من كلام الخليفة نفسه •

وليس من شك فى أن هذا كان عاملا مهما سهل وقوع مصر فى يد الخليفة الفاطمى القوى ، بل انه استغل هذا الضعف ، وتعرض البلاد بسببه للمغيرين من الروم والعابثين من القرامطة وغيرهم ، استغل ذلك لتبرير دخول مصر ، حتى يخلص المشرق من أعدائه ، ويؤمن الطريق الى الحجاز تمكينا للناس من أداء مناسك الحج الى بيت الله الحرام ، وقد ظهر ذلك فى كتاب أمان « جوهر » للمصريين •

٥ ــ أعان « بنو بويه » الجيش الفاطمى بطريقة غير مباشرة على فتح مصر ، فقد سيطروا على الحكم فى « بغداد » وحالوا بين الخليفة وبين تصريف شئون الدولة ، وتسببوا فى فساد الحياة الداخلية •

وليس بعيدا أن يكونوا بميولهم الشيعية ، ومجارلة منهم لمواقيهم

---

(٧١) نفسه •

فى المذهب الدينى ، قد ساعدوا على تثبيط همة « بغداد » وحملوها على أن تقف موقفا سلبيا من جيش الخلافة الفاطمية .

وليس من المغالاة أن نقول أن تشيع هؤلاء مع تسلطهم على الخليفة العباسى كان من بين العوامل التى يسرت الفتح الفاطمى لمصر .

٦ ـ كان التمهيد الفكرى للغزو ، وتجنيد الدعاة لنشر المذهب الفاطمى فى مصر ، قبل ارسال الحملة العسكرية اليها ، من أهم الأسباب التى سهلت الفتح الفاطمى ، وهيأت الأذهان لقبوله ، وقد مر بنا الحديث عن ذلك .

بقى أن نتحدث عن خط سير الجيش الفاطمى من افريقية الى مصر ، وأن نقارن بينه وبين غيره من الجيوش الفاتحة لهذه البلاد .

اتضح مما سبق أن جيش الفاطميين فى أول مرة قدم فيها الى مصر ، كان يركز جهده للاستيلاء على الاسكندرية أولا ، ثم يتخذ تلك المدينة مركزا يزحف منه على العاصمة ، ويعمل على احتلال بلاد الوجهين البحرى والقبلى .

وكانت الجيزة هى المنطقة الفاصلة بين شطرى البلاد المصرية ، يصل اليها الجيش ثم ينساح منها جنوبا فيحتل بلاد الصعيد ، كما يعبر الجسر عندها فيصل الى العاصمة المصرية ، وتتفرق العساكر بعد ذلك الى بلاد الوجه البحرى ، فتستولى عليها ، ويتم لها احتلال البلاد .

وقد تم للجيش الفاطمى احتلال الاسكندرية بواسطة القوات البرية وبمعاونة الأسطول فى كل الحملات التى جاءوا بها الى القطر المصرى .

ومن الاسكندرية زحفت القوات فى اتجاه العاصمة حتى وصلت الى « الجيزة » ، بل وسارت نحو الفيوم ، واحتلت الأشمونين

والبهنسا[٧٢] وبعض بلاد الصعيد فى حملة الجيش الثانية (٣٠٧ — ٣٠٩ هـ) ، وجبت الخراج هناك وسيطرت على جزء من البـــلاد ، لكن هـــذه الجيوش ما لبثت أن سقطت أمام المقاومة المصرية المعانة بجيوش الخلافة العباسية وآثرت الرجوع الى بلاد المغرب دون أن يقدر لها نجاحا •

أما فى الحملة الأخيرة فقد سلمت الاسكندرية دون أن تســمع عن أية مقاومة لقيها الفاتحون من أهلها ، ومنها سار الجيش الفاطمى الى منية الصيادين فمنية شلقان حيث عبر اليهم جماعة من عسكر مصر فى القوارب ، وأعلنوا التســليم وطلبوا الأمان ، واستمر غيرهم فى الجانب الآخر من النهر مصرا على القتال •

ازاء ذلك خلع بعض الجنود الفاطميين ملابسهم الخارجيــة ، وعبروا الى الشاطىء الآخر من النهر ، وقاتلوا عدوهم واضطروه الى الهرب فى الظـــلام •

ثم دخل « جوهر » العاصمة ، ومنع جنده من السلب والنهب وسكن الناس فهدأت حالة المدينة ، ورجع الاستقرار اليها ، وفتحت أسواقها ، وعادت الحركة التجارية فيها بصورة عادية[٧٣] •

وبالاستيلاء على العاصمة أصبحت مصر ولاية فاطمية ، يخطب للخليفة الفاطمى على منابرها ، وينقش اســمه على سكتها ، ويجبى خراجها باســمه •

---

(٧٢) الأشمونين : مدينة كانت عاصمة الاقليم المسمى باسمها وتقع بين بحر يوسف والنيل وبجوار اطلالها الآن قرية الأشمونين بمركز ملوى محافظة أسيوط ، والبهنسا اقليم محله الآن محافظتا بنى سويف والمينا ، انظر محمد رمزى القاموس الجغرافى القسم الثانى ج ٣ ص ١٦ ، ج ٤ ص ٥٩ ، ٦٠ •

(٧٣) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٨ ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٢ •

وأكد فتحها بهذه السـهولة صحة ما توقعه « المعز » بشأنها ، ودل على أنه كانت تأتيه حقيقة كتب من المشرق يشغله الرد عنها ، كما ذكر فى اجتماع عقده مع كبار الكتاميين ، شرح لهم فيه أمور دولته ، وكيف أنه كانت تأتيه كتب من المشرق تشغله ويهتم بالرد عليها .

واذا كان « جوهر » ــ كغيره من الفاتحين الشيعة السابقين ــ قد هدف الى احتلال الاسكندرية أولا ، فقد كان هـذا شأن كثير من الجيوش التى حاولت غزو مصر فى عصورنا الحديثة .

واذا كانت الجيوش الأوربية قد شهدت شـيئا من التنظيم ، فقد كانت جيوش « جوهر » منظمة تنظيما دقيقا ، بل كان النظـام فى وحدات جيشه يدعو الى الاعجاب(٧٤) .

وقد اسـتطاع القائد الفاطمى أن يكبح جماح عسكره باغداق الأرزاق عليهم ، وكان العسـكر مجهزا بالعتاد والرجال والأمـوال الضخمة ، والمؤن الكثيرة حتى لا يتطرق الضعف الى رجاله .

وهناك فرق بين الحملات الأوروبية وحملة « جوهر » .

حملة « جوهر » جاءت لتخليص المصريين من ظلم العباسيين ومن استبداد ولاتهم ، ولتزيل عنهم خطر القرامطة والروم ، ولتجود عملتهم وتنشر العدل فيهم ، كما ذكر قائد الفاطميين فى منشوره ، ثم لتقيم دولة مستقلة تنافس العباسيين ، وتقف فى وجـه من يريد السـوء بالمسـلمين(٧٥) .

---

(٧٤) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٠ .

(٧٥) انظر : حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله الفاطمى ص ٨٤ و ٨٥ .

أما الأوروبيون فقد جاءوا لنهب خيرات البلاد ، وجنى ثمارها ، واحتلال أراضيها ، واذلال شعبها ، جاءوا ليضعوا غشاء كثيفا من الجهل والفقر والمرض فوق أعين المصريين ، فى الوقت الذى ينهبون فيه كنوز البلد ويقضون عليه بالهوان ، ويحكمونه بكل عسف وطغيان واستبداد .

ومن كل ما سبق يتبين أن قادة الفاطميين ، كانت لديهم دراية عسكرية ، وخبرة باستراتيجية البلاد ، ومعرفة بمنافذها ، وبالمناحى التى يعول عليها فى الدخول الى مصر ، وقد وصلت عقليتهم العسكرية وتنظيمهم الحربى ، واعدادهم الخطط الى مستوى أشـــهر الرجال العسكريين ، وأبرز القادة فى السجل الحربى لعصرنا الحديث .

وواضح أن دخول الفاطميين مصر ، كان من الجانب الغربى للبلاد ، على عكس جيوش الفتح الاســـلامى ، فقد أتت عن طريق الشام ، ثم عبرت صـــحراء ســـيناء ، وانتصرت على المقـــاومة الرومية فى « عين شمس وبابليون » ، ثم دخلت العاصـــمة من المدخل الشرقى للبـــــلاد .

* * *

الفصــل الــرابع

الجيش الفاطمى فى الشــام


البحر الأسود
أرمينية
البحر الأبيض المتوسط
المغرب الأدنى

الجيش الفاطمى فى الشـام

تم « لجوهر » فتح مصر ، واستقرت أموره بهـا ، ففكر فى توسيع الرقعة الخاضعة للحكم الفاطمى ، وتوجه بنظره نحو « بغداد » محاولا تمهيد الطريق للاستيلاء عليها والقضاء على خلافتها •

وكخطوة أولى فى سـبيل تحقيق ذلك الهدف ، أعد « جعفر بن فلاح » وسيره فى جيش كبير لفتح بلاد الشـام ، فذهب ذلك القائد الى « الرملة « سنة ٣٥٩ هـ وتمكن من فتحها عنوة بالسيف ، وقبض على من كان فيهـا من الاخشـيديين[١] ثم آمن أهلهـا ، وقبض الخراج منهـا •

استقرت أوضاع « جعفر » فى الرملة ، فتركها وتوجه منها الى « طبرية » فسلم له أهلهـا ، وأقاموا الدعوة الفاطمية بدون قتال •

بعـد ذلك واصل جيش الفاطميين زحفه نحو « دمشـق » ، ودار قتال بينه وبين حامية تلك المدينـة ، ونهب بعض نواحيهـا ، فاضطر شـعبها للتسليم وقطعت فيها الخطبة العباسية ، ودعى للخليفة الفاطمى على المنابر •

غير أن أهلها ما لبثوا أن ثاروا على الحكم الفاطمى ، فتصدى لهم الجيش الفاطمى ، وعاملهم بقسوة وعنف ، وقتل منهم كثيرا ، وأحرق دورهم ، ونهب ما عندهم ، الشىء الذى حملهم على طلب الصلح من القائد الفاطمى فاستجاب لهم ، وطمأنهم ، ثم قبض على رءوس الثورة وبعث بهم الى مصر ، وبذلك استقرت أحوال « دمشق » ، ونجح الجيش فى فتحها وفى تسـلم زمام السلطة بها[٢] ، وقد استعان

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٨ •

(٢) بيبرس الدواداري : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة • لوحة ٢٠٥ ، مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٦ ، ٢٧ •

« جعفــر » بجيش يتكون من العناصر التى وفدت معهم من بــلاد « المغرب » ، والتى سيأتى الحديث عنها فى الفصل السادس •

ولقد برز اسم جعفر مرتبطا بفتحه للبلاد الشامية ــ ومن المناسب أن نقــدم ترجمة له فى هــذا الصدد •

جعفــر بن فــلاح :

هو أبو جعفر بن فلاح الكتامى أحـد قواد المعز الشـجعان ، قدم مع جوهر لفتح مصر . وعبر المخاضة عند « منيه شلقان » امام الجند الفاطمى ، وســاهم بنصيب موفور فى دخول الجيش الفاطمى للبــلاد المصرية •

ثم بعثه « جوهر » الى بلاد الشــام حيث فتح الرملة سنه ٣٥٨ هـ ، ثم دمشق سنة ٣٥٩ هـ ، وظل بهــا الى ان دهمه القرامطة وقتلوه فيهــا سنة ٣٦٠ هـ •

وقد كان الرجل جليل القدر ، رفيع المكانة ، أهلا لامتداح الشعراء وقد قال فيه ابن هانىء الأندلسى :

كانت مساءلة الركبــان تخبرنى عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى (٣)

الجيش الفاطمى يحارب القرامطة

القرامطة طائفة سياسية ، دعت الى امامة « اسماعيل بن جعفر الصادق » وعرفت بذلك الاسم نسبة الى أحد دعاتها « قرمط » (٤) •

---

(٣) انظر : الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٢٠ ص ٣١٠ ، ووفيات الاعيان : جـ ١ ص ٣١٢ و ٣١٣ ــ ترجمة ١٣٤ •

(٤) انظر : النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٣ ورقة ٥٦

وقد نجح هؤلاء فى اقامة دولة لهم فى « البحرين » فى القرن الثالث الهجرى •

وكانت صلات المودة والصداقة ، تربط ما بين دولة القرامطة هؤلاء وبين الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، فكلتا الدولتين شيعيه تدعو لامامة آل البيت ، وتعترف بأحقيتهم فى الخلافة ، بل ان قرامطة « البحرين » كانوا يعتبرون الخليفة الفاطمى فى المغرب ، امامهم ، اليه يرجعون عند اختلافهم ، وبرأيه يعملون فى تولية أمرائهم ، واقامة ولاتهم •

وقامت سياسة الدولتين على أساس من التنسيق ضد الخلافة العباسية ، فكان القرامطة يشغلون العباسيين بحروب فى المشرق حتى يتاح للخلفاء الفاطميين تثبيت حكمهم فى بلاد المغرب وحتى يتسنى لهم فتح مصر أثناء انشغال الخلافة العباسية عنها •

وكان أبرز مثل لاستجابة القرامطة للفاطميين ، هو اطاعة زعماء القرامطة للخليفة الفاطمى حين طلب منهم رد « الحجر الأسود » الى مكانه فى مكة ، بعد أن رفضوا طلب العباسيين ، وأبوا رد ذلك الحجر الى الكعبة ، رغم عرض خمسين ألف دينار ذهبا مقابل ذلك(٥) •

وقد ظلت صلات المسالمة والاحترام المتبادل ، قائمة بين الفاطميين والقرامطة الى أن دب الانقسام بين القرامطة ، وتعارضت سياستهم ازاء الفاطميين ثم فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وزحفوا منها الى بلاد الشام •

عندئذ بدأت مصالح الدولتين تزداد تعارضا ، بل وانقلبت الى عداء وصدام مسلح •

---

(٥) انظر : ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٨٨ الى ٩٠ ، سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب من ص ٣٤ الى ٤٠ الطبعة الرابعة ـ القاهرة سنة ١٩٦٤ •

ذلك أن القرامطة كانوا قد هاجموا « دمشق » أثناء حكم الدولة الأخشيدية ، قبل الفتح الفاطمى لمصر ، وتم الصلح بينهم وبين الوالى الاخشيدى على أن يدفع اليهم فى كل سنة ثلاثمائه ألف دينار ، ثم صاهروه ورحلوا عن البلد(٦) .

ولما فتح الجيش الفاطمى الشام ، انقطع المال عن القرامطة ، فأحفقهم ذلك وأغاظهم وترقبوا الفرص للانتقام من الفاطميين .

وقد أتاح لهم هذه الفرصة جماعة من الأخشيدية ، فقد سافر هؤلاء الى « الاحساء » — عاصمة القرامطة — واستغاثوا بهم ، وحثوهم على تخليص الشام من حكم الفاطميين .

وصادفت تلك الاستغاثة استجابة من جانب القرمطيين ، فقطع المال يخل باقتصادياتهم ، وتولى الفاطميين مقاليد الحكم بالشام ، ليس فى صالحهم .

لذلك قرروا محاربتهم ، وعاونتهم الدولة العباسية ، فأمدتهم بألف ألف (مليون) درهم ، وألف جوشن وألف سيف وألف رمح ، وألف فرس ، وألف جبة ، وأعلاما سودا عليها اسم الخليفة العباسى « المطيع »(٧) .

وفى سنة ٣٦٠ هـ قدم القرامطة فى جموعهم الى « دمشق » فتصدت لهم العساكر الفاطمية يقودها « جعفر بن فلاح » وقامت بين الفريقين معركة ، انهزم فيها الجيش الفاطمى ، وقتل قائده نفسه ، واجتزت رأسه ، وعلقت على باب « دمشق »(٨) .

---

(٦) انظر : المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٧٣ ، ص ٢٤٨ .

(٧) انظر : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٧ ص ٢١ ، ص ٢٢ ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .

(٨) المرجع السابق جـ ٧ ص ١٧ و ١٨ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٤٩ .

ويذكر المؤرخون أسبابا عدة لهزيمة ذلك القائد الكبير منها :
أنه كان مريضا حين فاجأه عدوه ، ولم يكن فى حالة تمكنه معها من الاستعداد لذلك العدو(٩) .

ومنها أنه استهان بعدوه ، ثم لم يشعر الا وقد كبسه فجأة ، وهزم جيشه واستولى على سلاحه ومعداته وأمواله(١٠) .

ومنها أنه خشى اذا هو طلب المعونة من « جوهر » ألا يمده بالعساكر ، ذلك لأنه تخطاه فى المكاتبات ، ولما فتح « دمشق » بعث بخبر الفتح الى الخليفة « المعز » مباشرة دون أن يضع فى اعتباره « جوهرا » ، ولهذا آثر البقاء فى مكانه وبلا طلب مدد من « جوهر » حتى قدم عليه « الحسن بن أحمد القرمطى » وأنزل به تلك الهزيمة المريرة(١١) .

وليس بعيدا أن تكون هذه الأسباب مكتملة قد تضافرت كلها ، وسهلت هزيمة الجيش الفاطمى أمام القرامطة .

ومهما يكن فان القرامطة لم تضعفهم هذه الهزيمة ، وعملوا على تصفية الجيش الفاطمى فى بلاد الشام ، ولذلك زحفوا الى « الرملة » حيث كان يقيم القائد الفاطمى « سعادة بن حيان » — وكان الخليفة المعز قد أرسله على رأس أحد عشر ألفا كمدد لجوهر أرسله بدوره الى بلاد الشام(١٢) — وقد انحاز القائد الفاطمى الى « يافا » وتحصن بها ، وتحاشى الصدام بالقرامطة ، بيد أنهم لاحقوه هناك وحاصروا البلد حتى أضنوا أهله ، ومات الكثيرون

---

(٩) الدوادارى : زبدة الفكرة جـ٦ لوحة ٢٠٨ ، سبط ابن الجوزى : المرآة جـ ٧ ص ١٧ و ١٨ .
(١٠) سبط ابن الجوزى : المرآة جـ ٧ ص ٢٢ .
(١١) المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٢ ص ٢٠٣
(١٢) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٦ مجلد ١ ورقة ٨٩ ، مصور بدار الكتب .

جوعا ، واستولوا على مسيرة أرسلها « جوهر » على ظهر خمسة عشر مركبا[13] .

وأخيرا تركوا على حصار « يافا » بعض الأعراب وتوجهوا الى مصر[14] .

علم « جوهر » بانتصار القرامطة فى الشام ، كما عرف نيتهم فى الزحف الى مصر ، والقضاء على الجيش الفاطمى فيها ، فقرر القائد الفاطمى أن يستعد لحربهم ، وأن يتخذ من الاجراءات ما يكفل له الانتصار عليهم بحفر خندق « السرى بن الحكم » وجعل عليه بابا ، كما قام كذلك بحفر خندق آخر وضع عليه بابى الحديد اللذين كانا فى ميدان الأخشيد ، وبنى كذلك قنطرة على الخليج عند باب الشعرية يتوصل عليها من القاهرة الى المقس[15] .

وكانت « القاهرة » بين ثلاثة خنادق ، خندق عمرو بن العاص بالقرب من قبر الامام الشافعى ، وخندق غربى المدينة استمر حتى القرن الثالث عشر الهجرى ، وخندق أوله عند الجبل الأحمر « اليحاميم » ، فبنى « جوهر » خندقا آخر فى الجهة البحرية للمدينة ، وأصبحت بذلك بين أربعة خنادق[16] كذلك وزع القائد الفاطمى السلاح على الرجال ، وأرسل الجواسيس تجمع أخبار الأعداء .

وصل القرامطة الى عين شمس ، فأغلق « جوهر » أبواب العاصمة ، وضبط الدخول والخروج زيادة فى الاستعداد ، وأمر

---

(١٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٢١ حوادث سنة ٣٦٠ هـ ، المقريزى : إتعاظ الحنفا ص ٢٤٩

(١٤) سبط بن الجوزى : المرآة جـ ٧ ص ٢٢

(١٥) الداودارى : زبدة الفكرة جـ ٦ لوحة × ٢٠

(١٦) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٦ طبع بولاق ـ القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ المقريزى : الخطط مجلد ٣ جـ ١ ص ١٩ وص ٣٨

الأشراف فخرجوا جميعا بمضاربهم ثم التحم القتال بين الفريقين ، وتكافأت الكفتان فى البداية ، ثم استطاع الجيش الفاطمى أن ينتزع النصر ، وأن يجبر عدوه على الانسحاب والعودة من حيث أتى •

وقد اشترك فى الحرب مع « جوهر » خلق كثير من رعية مصر ، واستعان القرامطة فيها بعدد من الأخشيدية والكافورية ، ولذلك قبض « جوهر » على عدد كبير من هؤلاء بعد انتهاء المعركة ، واستخدم فى القبض عليهم وسيلة تذكرنا بمذبحة المماليك أيام « محمد على » والى مصر العثمانى •

فقد أعد القائد الفاطمى لأعدائه طعاما وحلف لهم على حسن النية والمصافاة ، ثم قبض عليهم وقيدهم وحبسهم[17] ، والفارق بين ما حدث أيام « محمد على » وما حدث هنا ، هو أن « جوهرا » قد أسر أعدائه ، أما « محمد على » فقد ذبح ضيوفه •

ومعنى ذلك أن مصر كان فيها حتى وقت تلك المعركة « ٣٦١هـ » عدد من الأخشيدية والكافورية ، استمروا فى عدائهم للفاطميين ، وعملوا على اخراجهم من مصر وبهذا الدافع انضموا للقرامطة فى حربهم للدولة الفاطمية •

كذلك كان هناك أفراد من الشعب المصرى ، اشتركوا مع « جوهر » فى محاربة الأعداء ، وعملوا على تأمين الواقع الفاطمى فى مصر • أى أن الشيعة كان لهم أصدقاء من المصريين ، عملوا لمصلحتهم ، وساعدوهم فى ظرف كهذا الظرف ، فالفاطميون اذا لم يبعدوا أهل مصر عن الحرب والجهاد تماما ، بل الجأوا اليهم واستخدموهم عندما كانو يضطرون الى ذلك ، فقد كان جيش مصر

---

(١٧) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٨ ، سبط ابن الجوزى : المرآة جـ ٧ ص ٢٣ الدواداری : زبدة الفكرة جـ ٦ لوحة ٢١٤

فى حربهم مع القرامطة — مكونا من أهل مصر الى جانب الأجناس المغربية الوافدة مع الجيش من الشمال الافريقى •

تجـدد الحرب بين الفاطميين والقرامطة :

لم تثبط الهزيمة همة القرامطة ، ولم تثنهم عن التفكير فى فتح مصر ، فقــد عادوا الى مقرهم فى « الاحساء » ، ثم رجعوا منها بعد أن أتموا استعدادهم ، ولمــا وصلوا الى « الرملة » ، أرســل اليهم الخليفة « المعز » — وكان قــد وصل الى القاهرة واتخذهــا عاصمة لحكمه ســنة ٣٦٢ هـ — أرســل اليهم كتابا مملوءا بالتهديد والتوبيخ والوعيد والتحذير[١٨] ، فلم يعبأ « الحسن القرمطى » بذلك الكتــاب ، وكتب الى الخليفة « المعز » يقول « وصل كتابك الذى كثر تفصيله وقل تحصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام » •

وبالفعل ســار الجيش القرمطى حتى وصل « عين شمس » وانتشرت عساكره تنهب وتسلب فى نواح مختلفة من البلاد ، ونجح فى ضم جماعة من الاعراب الى صفه فيهم « حســان بن الجراح الطائى » فى جمع كثير[١٩] •

أما « المعز » فقــد أخرج جيشــا بقيادة ابنــه وولى عهــده « عبد الله بن المعز » مهمته الدفاع عن البلاد ، وحمايتها من خطر هجوم القرامطة ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها خلق كثير[٢٠] •

نظر الخليفة الفاطمى بعد ذلك فرأى كثرة عدوه ، ووجد أن اخراج جيوشــه لحرب هؤلاء يمثل عبئا غير مضمون النتيجة ، فشاور

---

(١٨) نص الكتــاب فى المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٥١ وما بعــدها •

(١٩) المقريزى : اتعاظ الحنفــا جـ ١ ص ٢٤٨، الدر ص ٢٥٠ ، ابن الأثير الكامل جـ ٨ ص ٢٢٩ وص ٢٣٠، حوادث سنة ٣٦٣ هـ •

(٢٠) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٤١ و ١٤٢ ، وملحقه ص ٢٩٦

أهل الرأى فى حيلة تفرق الأعداء ، وتوقع الخلف بينهم ، واتفقوا على مراسلة « ابن الجراح » ومحادثته فى المخالفة على القرامطة ، فوافق على ذلك اذا أخذ مائة ألف دينار ، وحلف على الوفاء والانهزام أمام الفاطميين عندما يصله ذلك المبلغ •

وأرسل الخليفة الفاطمى للأعرابى المال فى صورة دنانير بعضها صحيح ومعظمها مزيف ، وتم ما اتفق عليه ، فانهزم أثناء المعركة ، وانسحب بانسحابه جميع الأعراب •

ولما رأى « القرمطى » ذلك انتابته الحيرة واستمر يقاتل بعسكره ، غير أن جيش الفاطميين واصل الحملات عليه من كل جانب ، فولى منهزما ، وظفر الفاطميون بمعسكره ، وأخذوا من فيه أسرى ، وكانوا حوالى ألفا وخمسمائة ضربت أعناقهم جميعا •

بعد ذلك تتبع الجنود الفاطميون أعداءهم من القرامطة ، حتى تركوا بلاد الشام نهائيا واتجهوا الى الاحساء (٢١) ، وبعد انتهاء المعارك استخلص « المعز » بنى الجراح أمراء الشام من طىء ، واستخلص بهم ما غلب القرامطة عليه من الشام ، فهم اذاً عنصر جديد فى الجيش الفاطمى(٢٢) •

وبذلك استطاع الجيش الفاطمى بالحيلة والخديعة أن يقهر عدوه ، وأن يخلص البلاد من شره •

الجيش الفاطمى يحارب ضد « الفتكين » التركى

كلفت بعض القوات الفاطمية بمتابعة « القرامطة » ومطاردتهم ، فنزل هؤلاء « دمشق » ، وأخذوا يعيثون ويفسدون فى أنحائها ،

---

(٢١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٩ وما بعدها ، حوادث سنة ٣٦٣ هـ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣ طبع بيروت سنة ١٩٠٨ م •

(٢٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٩٠

وينهبون الطرق والمسالك ، ولم يكن قائدهم يملك المال للانفاق عليهم[٢٣] فزاد ذلك من غيهم وعبثهم ، واضطر أهل « دمشق » ، ازاء الفوضى ، وعدم استقرار الأمور فى بلادهم ، الى الاستنجاد بالقائد التركى « الفتكين » فأتى اليهم ، وقطع خطبة الفاطميين فى بلدتهم سنة ٣٦٤ هـ ٠

وكان ذلك القائد مولى « لمعز الدولة بن بويه » ، وقد انهزم من « بختياربن معز الدولة » ومن « عضد الدولة » فى فتنة الأتراك بالعراق ، فخرج فى مجموعة من العساكر وسار حتى وصل الى « دمشق » مستجيبا لنجدة أهلها ، وخطب فيها للعباسيين وقطع الخطبة الفاطمية سنة ٣٦٤ هـ ، وكون لنفسه جيشا من أهل البلاد فتح به كثيرا من البلاد الساحلية بالشام وعظم أمره[٢٣] ٠

كان الخليفة « المعز » قد مات ، وتولى الخلافة الفاطمية ابنه « العزيز » وأراد التلطف فى معاملة ذلك الرجل والحسنى معه ، فرد ردا غليظا يدل على استهانة بالفاطميين فى مصر ٠

ولم يجد « العزيز » بدا من اعداد جيش يقضى على تلك الحركة ويعيد الشام للفاطميين ، فجهز القائد « جوهرا » فى عسكر سار به الى بلاد الشام ٠

وأخذا بسياسة المسالمة ، واستمرارا فى العمل بمبدأ اللين ، زودت الخلافة الفاطمية « جوهرا » بأمان وكتاب بالعفو عن « الفتكين » ان هو سلم بدون قتال ، لكن ذلك لم يفد شيئا ، فقد خرج « الفتكين » ، فى أصحابه وجموعه من العرب ، وقامت حرب بينه وبين جوهر استمرت شهرين وقتل فيها من الفريقين خلق كثير ، وأظهر التركى فيها شجاعة حملت عدوه على مهابته ٠

---

(٢٣) انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٣٦ ، ص ٢٣٧ حوادث سنة ٣٦٤ هـ ٠

بعـــد ذلك كاتب الدمشقيون « الحسن بن أحمد القرمطى » ، وطلبوا منه الانضمام اليهم فى حرب الفاطميين لتسهيل هزيمتهم اذا ما تجمع أعداؤهم عليهم •

عرف « جوهر » ذلك ، وتأكد لديه أنه متى حصر بين عدوين أمكن هزيمته بسهولة ، فانسحب الى « الرملة » فى خمسين ألفا من أصحابه ، لكن الأعداء طاردوه ، واضطروه للقتال على نهر يســـمى « الطواحين » بينه وبين الرملة ثلاثة فراسخ(٢٤) ، ولم تكن هنـــاك وسيلة أمام « جوهر » ، ليشرب جنده ، سوى ذلك النهر ، وقد قطعه عدوه عنـــه ، فناله ضرر كبير من جـــراء ذلك ، وقرر الرحيـــل الى « عسقلان » وتحصن فيهـــا •

لم يترك القرامطـــة والأتراك والاعراب « جوهرا » يهنـــأ فى « عسقلان » وانما حاصروه فيهـــا حتى اضطر رجاله لأكل الميتـــة والدواب ، ومع ذلك فقـــد كان يخرج بين الآونة والأخـــرى للقتال والمناوشـــة •

وفى الوقت نفســـه لم يترك فرصـــة تمر دون أن يســـتميل « الفتكين » ويعده الوعد الحسن حتى نجح أخيرا فى أن يعقد اتفاقا معه ، يخرج الفاطميين بمقتضاه من « عسقلان » ، بشرط أن يعلق على باب المدينة ســـيف الفتكين ورمح القرمطى ويمشى الجنـــد الفاطمى من تحتهما(٢٥) •

وبهذه الحيلة ، وبحسن السياســـة نجح « جوهر » فى التخلص من ذلك الحصار المميت ، ووصل الى مصر ، واجتمع بالخليفة فيها •

---

(٢٤) انظر : الذهبى : تاريخ الاســـلام جـ ٢٠ ص ١٤٣ ، ســـبط ابن الجـــوزى : مرآة الزمان جـ ٧ ص ١٣٧

(٢٥) الدواداري : زبدة الفكرة جـ ٦ لوحة ٢٢٧ ، المقريزى : الخطط مجلـــد ٢ جـ ٣ ص ٤١٤

وباعتباره عاش حوادث الشـــام بنفسه ، وشـــاهد العدو عن قرب ، اقترح على الخليفة أن يخرج بنفســـه لمحاربة هؤلاء الأعداء .

عندئذ فتح « العزيز » بيوت المـــال ، وأعد العســـاكر ، وأمر بتهيئة الجيوش المظفرة ، وتعبئتها على مراتبها ، وترتيبها على مواكبها ، وتقدم الى قوادها ، ألا يمشوا الا صفا ، ولا يســـيروا الا زحفا ، وعرفهم أنه سيسير بنفســـه فبدا من عزائمهم ، وسكون افتدائهم ، وثبات أقدامهم ، ما كانت به دلائل النصر واضحة ، وشـــواهد الفتح لائحة ... »(٢٦) .

وأخذ الخليفة معه ما يلزم من ذخائر ، كما أخذ توابيت آبائه ، ليستميت هو ومن معـــه فى القتال دونها ، وســـار حتى وصل الى « الرملة » ونزل بظاهرهـــا .

وعلم بذلك التركى والقرمطى ، فحشـــدا وأعدا جموعهـــا من الأعراب وغيرهم وتوجها للقاء الجيش الفاطمى(٢٧) ، ثم التقى الفريقان بعد ذلك فى موقعة حربية وأبدى « الفتكين » شجاعة انتزعت اعجاب الخليفة الفاطمى ، ما بين ضرب بالسيف وطعن بالرمح .

وقـــد شارك « العزيز » فى القتال بنفســـه ، وعرض الأمان على التركى مرات ، لكنه يستجب له ثم حمل على ميسرة الفاطميين فهزمهـــا .

حينئذ أعـــد القائد الفاطمى خطته لهزيمة عدوه ، فامر الميمنة بالحملة ، وحمل هو من القلب ، وكبسوا على عدوهم حتى تمكنوا من الانتصار عليه ، وقتلوا منه عددا كبيرا .

---

(٢٦) من كتاب العزيز بالله الى عامله بمصر يبشره بالنصر على الفتكين والقرمطى ســـنة ٣٦٧ هـ وانظر : القلشـــندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٤٣٣ الى ٤٣٩ طبعة وزارة الثقافة ، القاهرة ســـنة ١٩٦٣

(٢٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٣٨ حـــوادث سنة ٣٦٤ هـ .

ومثلت تلك المعركة نهاية أعداء الفاطميين من القرامطة والأتراك •

أما القرمطى فقد أرسلت اليه النجائب بالكتب تنهى اليه عفو « العزيز » عنه ، وتطالب منه أن يطأ بساط الخلافة ، وقد أدركه الرسل فى « طبرية » وتم الاتفاق معه على أن يحمل اليه مبلغ كبير من المال سنويا ويعود الى بلاده[٢٨] •

أما « الفتكين » فقد انتهى به الحال نهاية لم تخطر على بال ، ذلك أن الخليفة « العزيز » قد عفاعنه ، وصحبه معه الى « القاهرة » وأنزله دارا عظيمة ونقل اليه الأموال والتحف ، بل ولاه حجابته وبابه ، كذلك أكرم أصحابه ورفع منازلهم وأسنى أرزاقهم ، وأسكنهم فى الحارتين اللتين عرفتا بحارتى « الديلم والأتراك » ، وضمهم لعسكره •

وكان نزول « الفتكين » وصحبه ممثلا لأول العناصر المشرقية التى وفدت الى « القاهرة » وانضمت للأجناس المغربية فى الجيش ، ومثلت تطورا جديدا فى وحدات الجيش الفاطمى •

وقد أستمر « الفتكين » نفسه على المكانة فى دولة « العزيز » الى أن دس عليه « يعقوب بن كلس » من سمه لحسد وعداوة بينهما[٢٩] •

وهكذا انتهت هذه المحنة بعد أن هزت الخلافة للفاطمية ، وعرضتها للأخطار ، وحملت الخليفة على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش •

---

(٢٨) أنظر الدوادارى : زبدة الفكرة جـ ٦ لوحة ٢٢٨ ، ابن الجوزى : المرآة جـ ٧ ص ١٣٥

(٢٩) عن حركة الفتكين ضد الدولة الفاطمية ودور الجيش الفاطمى فى القضاء عليها انظر سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٧ ص ١٣٠ الى ص ١٣٥

وكان الفضل فى القضاء عليها للجيش الفاطمى ، وحسن تنظيمه، والتفافه حول قيادته ، واستماتته فى الدفاع عن خلافته •

وبالاضافة الى ما سبق ، فان الجيش الفاطمى استطاع أن يقضى على كثير من حركات التمرد والعصيان فى بلاد الشـــام[30] •

وأهم ما ميز الجيوش التى خرجت لذلك الهـدف ، انها كانت تعمل تحت قيادات معظمها من الأتراك والمشارقة ، مما يدل على أن هؤلاء كان قد ارتفع قدرهم حتى ولاهم الخليفـــة العزيز القيادة ، وكانت لهم الصدارة فى الدولة ، وتراجع المغاربة عن مكانتهم وتزحزحوا عن منزلتهم •

الجيش الفاطمى يحارب أباركـوة

هـذا الرجل من نسل « هشام بن عبد الملك بن مروان » الخليفة الأموى ، وكان عمه « هشام » يتولى الخلافة الأموية فى الأندلس ، وقد اســتبد بالحكم فى أيامه حاجبه وزوجته ، وتتبعا من يصـــلح للخلافة من الأمويين وقتلاه •

وكان ذلك حاملا « لأبى ركوة » على الهرب من الأندلس ، والتنقل بين مصر والحجاز واليمن وبلاد الشـــام ، وخالط الصوفية ، وحمل « ركوة » فى أســـفاره على طريقهم ، وأخـــذ يظهر ألمـــه لضياع الاســـلام وامتعاضه لأصحاب الشريعة ، وكما أخـــذ يظهر الزهـد والنســك والاصـــلاح[31] •

---

(٣٠) لهذه الحروب ومواجهة الجيش الفاطمى لها انظر مثلا :
ابن ابيك : كنز الدرر جـ ٦ مجلد ٢ من ورقة ١٢٧ الى ١٣٧ ، ومن ١٤٠ الى ١٤٧ مخطوط بدار الكتب ، الدواداري : زبدة الفكرة جـ ٦ لوحـة ٢٦٧ ومن ٢٧٦ الى ٢٧٩

(٣١) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٧٤ حـوادث سـنة ٣٩٧ هـ ، الدواداري : زبدة الفكـرة جـ ٦ لوحـة ٢٩٣

وقــد نجح « أبو ركوة » فى أن يضم اليه بنى قرة والبربر وبعض البرقيين ، وساعده على ذلك سوء سياسة الخليفة « الحاكم » فى هؤلاء .

وأقام الرجل لنفســه حصنا فى جبل « برقة » ، وكان ذلك بداية لمتاعب ستتحملها الدولة والجيش الفاطمى ، والمسئول عنها أساســا ســوء سياسة « الحاكم » لرعيته ، واستبداده فى حكمه ، وقــد كان ذلك الدافع وراء انضمام « بنى قرة » الى ذلك الرجل .

وكان على قيادة « بنى قرة » رجلان هما : « الخروب والماضى ».

وقــد استجاب « الخروب » لطالبات الثائر ، وأعلن استعداده لمعاونته ، وقــد استدعى قومه ــ وكانوا سبعمائة ــ فاستحلفهم له ، وأخذ العهود والأيمان ، وأعلن لهم الرجل أنه « الامام » وخطبهم ووعدهم ، وذم « الحاكم » وأســلافه من الفاطميين ونســبهم الى القرمطة والكفــر .

بعــد ذلك ســار فى جموعه ، وقصــد الوالى الفاطمى فى « برقة » ودخل معــه معركة هزمه فيهــا ، وحمله على الفرار الى الاسكندرية واستولى على ذخائره وأمواله .

انزعج الخليفة « الحاكم » لمــا حدث لواليه ، وقرر التخلى عن سياسة الشدة والعنف ، وكف عن القتل وعامل الناس بالحسنى ، ورغب من التخلص من هؤلاء الثائرين على حكمه ، فجهز جيشا فى خمسة آلاف فارس جعل عليه « ينال الطويل » ــ أحد قادة الأتراك ــ وأمده بالزاد والعطايا ومنحه مائة ألف دينار .

وقد أخطأ الخليفــة الحاكم باختياره « ينال » لقيــادة ذلك الجيش ، وباختيار معظم جنده من « كتامة » فقد كانت « كتامة »

---

(٣٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٧٤ حوادث ســنة ٣٩٧ هـ ، الدواداري : زبدة الفكرة جـ ٦ لوحة ٢٩٣

مستوحشة منه ، لأنه هو الذى تولى قتل رؤسائها بأمر « الحاكم » ، ولم يكن متوقعا أن تخلص تحت قيادته ٠

وأيا ما كان الأمر ، فقد سار القائد الفاطمى الى الاسكندرية ، وتقدم منها الى مكان يعرف (بذات الحمام) ، وبينه وبين برقة مفاوز شاقة قليلة الماء يحتاج السالك فيها الى الطعام والماء ٠

وقد استعد الثائر للقاء الفاطميين ، ولما عرف أن الجيش الفاطمى سيعبر المفازة اليه ، خرج من « برقة » فى ألفى فارس فطم الآبار وغور الماء[٣٣] ، وعرض العسكر الفاطمى بذلك لمأساة ٠

ورغم ذلك فقد التقى الجيشان ، وقتل الفاطميون عددا أول الأمر غير أن أمرا حدث ، فت فى عضد الفاطميين ومكن عدوهم من الانتصار ٠

فقد استأمن الى « أبى ركوة » جماعة الكتاميين اغاظة لقائدهم وللخليفة « الحاكم » ، وحمل جيش الثائرين على العسكر الفاطمى فهزموه ، وأسروا القائد نفسه وقطعوه اربا ، وامتلأت أيديهم من المغانم والأموال ، فأخذوا المائة ألف دينار التى كانت مع « ينال » ومائتى ألف أخرى كانت مع بعض اليهود[٣٣] وقويت نفوسهم ، وترددت سراياهم تنهب وتسلب ٠

علم الخليفة « الحاكم » بما حدث لعسكره فتألم ، وزاد من ألمه أن الجنود والشعب فى مصر فرحوا وسروا بما جرى ، وكان ذلك دافعا للخليفة أن يتقرب الى الناس ، ويعدل فى سياسته ، ففتح بابه للناس ، وشرح لهم جرائم من قتلهم ، وكيف كانوا أصحاب جنايات خفيت على الجمهور ، وسكن الشعب وطمأن أفراده ، ونهج معهم نهجا « ديمقراطيا » ، فاستشارهم فيما يجب فعله ٠

وبناء على رغبتهم استدعى من الحمدانية والديلم والقبائل سنة

---

(٣٣) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٢٠ ص ١٧٨ ٠

عشر ألفــا ما بين فارس وراجل ومنحهم الأموال والمعــدات وخلع عليهم ، وخرج بنفسه لوداعهم وظل معهم حتى عبروا الى «الجيزة» •

وقــد اختار الخليفة لقيادة ذلك الجيش « الفضل بن عبد الله »، ومنحه خمسمائة ألف دينار ، وســلاحا وثيابا •

ســار العسكر الفاطمي لمحاربة عدوه بعد ذلك ، ولجأ الى خطوة قــد تغنيه عن الحرب والقتال ، وتفرق جند الثائر من حوله ، فقــد أرسل الفاطميون الى جنود « أبى ركوة » محاولين استمالتهم اليهم وابعادهم عن صاحبهم •

وقــد نجح القائد الفاطمى أن يضم الى جانبه « المــاضى » — أحــد قواد بنى قرة — واتفق معه على أن يكون عونا له ، فيتجسس على « بنى قرة » لحســاب الفاطميين ، وسيدبر قائد الفاطميين شئونه حسب ما يأتيه من معلومات عن هــذا الطريق •

ولمــا ضاقت الميرة على العسكر الفاطمى اضطر للقاء « أبى ركوة » بعــد مراوغة استمرت شــهورا •

غير أنه رأى كثرة جند عدوه فانسحب وعاد الى معســكره •

وراســل « بنو قرة » الجنود الفاطميين من العرب ، وذكروهم أفعال « الحاكم » معهم ، واستقر الرأى بينهم على أن ينهزموا عند لقاء الجيش بشرط أن يكون الشــام من نصيبهم ، وأن تكون مصر « لأبى ركوة » ، لكن ما أسروه وصل الى القائد الفاطمى بواســطة « المــاضى »

وفى الليلة التى اتفق فيهــا العرب وبنو قرة على الهجــوم والانهزام ، جمع « الفضل » رؤســاء العرب على مائدته ، وطاولهم الحــديث ، ثم تركهم فى خيمته وأوصى بالحــذر منهم •

وكان ذلك التصرف بداية الطريق الى النصر النهائى ، والتخلص من هؤلاء الأعــداء •

ذلك أن « أبا ركوة » أرسل جيشه فالتقت به جموع من العساكر الفاطمية ، ومنع رؤساء العرب من الخروج ، وفى نفس الوقت أرسل الى أصحابهم فخرجوا وقاتلوا قتالا شديدا — ولم يكن لديهم علم باتفاق الرؤساء .

ثم ركب « الفضل » وصحب معه رؤساء العرب واضطرهم للقتال ، بعد أن فاتهم تنفيذ ما اتفقوا عليه .

أتت بعد ذلك الأمداد الى عسكر الثائر ، ورأى القائد الفاطمى كثرة عدوه فرد جنده والتزم خطة دفاعية(٣٤) .

أرادت الخلافة الفاطمية أن تعضد وحدات جيشها ، فأرسلت اليه مددا قوامه أربعة آلاف من الديلم والأتراك ، لكن ذلك المدد كاد يسبب نكبة للجيش الفاطمى كله .

ذلك أن « أبا كورة » علم بخبر هؤلاء الجنود ، فسارع الى المسير اليهم فى ألفين للقائهم فى الطريق ، وضبط المسالك حتى لا يسمع « الفضل » وتمكن من أن يهجم على ذلك المدد عند « الجيزة » وأن يقتل منه ألفا .

بيد أن ذلك لم يحل دون زحف الجيش ثم التقاؤهما عند مكان فيه غياض وأشجار .

وقد « دبر أبو ركوة » خطته على أساس أن يقيم كمناء بين الأشجار ، ويطالب الفرسان بمطاردة العدو واستدراجه جهة هؤلاء الكمناء ، فاذا ما قرب منهم خرجوا عليه وقضوا على الفاطميين بسهولة .

أما « الفضل » فقد وضع خطته على أساس أن يكون الحمدانية والشامية فى الميمنة ، والعساكر المصرية فى الميسرة ، وأن يبقى هو فى القلب .

---

(٣٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٧٤ وما بعدها ، الدوادارى : زبدة الفكرة ج ٦ لوحة ٢٩٣ ، ٢٩٤

وبدأت المعركة فحمل « بنو قرة » ثم انسحبوا ليستدرجوا عدوهم ، ويطبقوا عليه طبقا لخطتهم ، لكن الجيش الفاطمى أمكنه أن يهزم الفرسان المهاجمين .

وكانت تلك نقطة هامة ترقب عليها انعكاس الوضع ، فقد انهزم الكمناء من الرجالة لما رأوا انهزام الفرسان ، وحمل القائد الفاطمى عليهم ، وأعمل السيوف فيهم فقتل عددا كبيرا[٣٥] وأخذ رؤوس ستة آلاف بعث بهم الى القاهرة ، عدا من أسر[٣٦] .

أما « أبو ركوة » فقد انسحب مع بنى قرة الى ديارهم ، ثم هرب الى بلاد النوبة ، حيث لحقت به العساكر الفاطمية وتمكنت من أسره .

وقد شهر به الخليفة « الحاكم » فى القاهرة ثم ضرب عنقه وصلب جسده[٣٧] .

وبذلك تمكن الجيش الفاطمى من أن يجعل النصر النهائى لصالحه ، وقد لعب « الماضى » — « زعيم بنى قرة » — دورا هاما فى تحقيق ذلك النصر .

فلولا ذلك الرجل لقضى على العسكر الفاطمى ، بسبب المؤامرة التى أعدت بالاتفاق مع العرب فى جيش « الفضل » .

---

(٣٥) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢١٦

(٣٦) ملحق اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٣٠٤

(٣٧) عن حركة « أبى ركوة » ودور الجيش الفاطمى فى احمادها انظر : سبط ابن الجوزى : مرآة زمان جـ ٨ من ص ١٤ الى ص ٢٤ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٥ وما بعدها .

وقــد كان القائد الفاطمى حكيما حين حبس رؤســاء الاعراب ، واستخدم أتباعهم دون أن يشعروا بشىء ، وقــد استطاع أخيرا أن ينتهز فرصــة هزيمة الفرســان أمامه ، فقضى على الكمناء ، وفرقهم ولم يعطهم فرصة للتجمع ، واستحق بذلك النصر عن جــدارة •

وســيأتى فى الفصل الســابع حديث عن كيفية تعبئة للفاطميين لجيشهم بعــد فتحهم مصر •

* * *



الفاطميون في صقلية
وغرب البحر الأبيض المتوسط

الفصل الخامس

الجيش الفاطمي وصقلية والروم

اهميـة صـقلية للفـاطميين

تقع جزيرة صقلية فى قلب البحر الأبيض المتوسط ، فى الجهة المقابلة لافريقية ، ويرجع اهتمام المسلمين بفتح هـذه الجزيرة الى أيام الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » ، فقد أذن « لمعاوية بن أبى سفيان » — واليه على بلاد الشـام — يفتح صقليـة ، فتوجهت الجيوش الاسـلامية اليها ، ومنـذ ذلك الحين تعتبر هـذه البلاد ميدانا للصراع بين الروم والمسلمين ، الى أن تم فتحها نهائيا أيام زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب — والى العباسيين على بلاد المغرب — وكان ذلك سـنة ٢١٢ هـ[١] .

وعندما انتزع الفاطميون الحكم من الأغالبة ، وأسسوا لهم دولة فى بلاد المغرب ، حرصـوا على نشر نفوذهم فى جزيرة صقليـة لأسـباب سياسـية واقتصـادية .

فمن الناحية السياسية كانت الخلافة الفاطمية ترمى الى اتخاذ هـذه الجزيرة ، قاعدة لأسطولها فى البحر الأبيض المتوسط ، فتؤمن بذلك نفسها ضـد غارات الروم على السـاحل الافريقى وبلاد المغرب من ناحيـة ، وتحقق بذلك أهـداف فتح مصر وبـلاد الشرق من ناحيـة أخـرى[٢] .

ومن الناحية الاقتصادية ، كانت تلك الجزيرة تمثل ثروة اقتصادية هائلة ، فهى غنية بالفواكه والحبوب والمعـادن وأنواع الحيوانات : ففيها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق ، والشب والخل والزاج والحديد والرصاص والنوشادر والكبريت وزيت النفط .

---

(١) انظر : ميشيل امارى : المكتبة الصقلية ، مواضع متفرقة مثلا ص ١١٤ ، ٢٠٠ ، ٢٢١ — ودائرة المعارف الاسلامية : مادة صقلية : وبركلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٩٧ .

(٢) انظـر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٩٩ .

وبها الفواكه على اختلاف أنواعها لا تنقطع عنها صيفا ولا شتاء حيث يكثر بها التفاح والبنـدق والجوز والقسـطل •

كذلك يوجد بها الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم وغيرها ، وليس بها حية ولا سـبع ولا سـواها من الحيوانات المؤذية[٣] ؛

لكل ما مر اهتم الفاطميون بهـذه الجزيرة ، ووجهوا جهودهم لفتحها وكان لجيشهم دور بارز فى غزو هـذه الجزيرة ، ثم فى اتخاذها قاعدة ينطلق منها للزحف على غيرها من المناطق ، مما ستتكفل ببيانه الصفحات التـالية •

الجيش الفاطمى فى صقليـة

قام جيش الفاطميين بدور هـام فى الحروب بصقلية وبلاد الروم ، ونجح فى توطيد أركان الحكم الفاطمى فى هـذه النواحى، وقضى على كل المعارضين والمناوئين للدولة الفاطمية فيها •

كذلك اتخذ هـذه البلاد منطلقا لفتح كثير من بلدان « أوربا » ، وضمها الى أملاك الدولة الفاطمية ، واخضاعها للفاطميين •

وفى الصفحات التالية نحاول بيـان دور الجيش الفاطمى ، وما قام به من أعمال حربية فى هـذا الصـدد •

الجيش الفاطمى يواجه ثورات صقلية

اذا كانت البلاد الافريقية ، قد شهدت قيـام ثورات فيها بسبب استبداد ولاة الفاطميين عليها ، فان سـوء سيرة الفاطميين «بصقلية» قـد أثار الناس ضـد الحكم الفاطمى كذلك •

---

(٣) انظر : ميشيل امارى : المكتبة الصقلية ــ مواضع متفرقة مثلا جـ ١ ص ١١٦ ، ص ١١٧ ، ص ١٤٢ ــ وكذلك حسن ابراهيم فى المواضع السابقة • وانظر كذلك العدوى : الأسـاطيل العربية ١١٥

فقد أعلن أهل « صقلية » العصيان على الحكم الفاطمى سنة ٣٠٠ ه ، وخلعوا الوالى الفاطمى عليها بسبب استبداده وسوء حكمه •

ولأنفه العناصر العربية من الخضوع البربرى ـ وكان الوالى الفاطمى بربريا ـ ولو على أنفسهم وال عربى تصرف تصرفا خطيرا ، فقد قطع الخطبة الفاطمية ، ودعا للخلافة العباسية •

وانتهز الخليفة العباسى « المقتدر » الفرصة ، فشجع ذلك الوالى ، وأمده بالخلع ، وزاد الوالى من غيظ الفاطميين حين أحرق لهم أسطولا فى مرسى « لمطة »[٤] وقضى على جميع وحداته وقتل قائده وأسر من رجاله نحو ستمائة •

وتمكن ذلك الوالى ـ فوق ذلك ـ من هزيمة جيش للخليفة الشيعى ، وغنم جميع ما كان معه ، ووصل بذلك الى ذروة العناد ضد الفاطميين •

غير أن الأمور لم تسر فى صالحه بعد ذلك ، لأن الصقليين لم يختاروه ليحارب الفاطميين ، ويعمل ضدهم ، وانما ليصلح فيهم ما أفسده سلفه ، وليرضى نزعة فى نفوسهم ، ولذلك قرر أهل الجزيرة خلعه وتنكروا له ، وأرسلوا الى الخليفة « المهدى » يطلبون توجيه عامل عليهم ، وقبضوا على الوالى الثائر وأرسلوه الى الخليفة الفاطمى فقتله •

ومع ذلك ظن أهل « صقلية » أنهم أسدوا الى الخلافة الفاطمية يدا كبرى وأن الخلافة فى حالة من الضعف تمكنهم من فرض ما يريدون، ولذلك قدموا شروطا أحنقت الخليفة عليهم ، وكانت بمثابة نقطة تحول جعلت السلطة الفاطمية تؤثر اخضاعهم بالقوة والعنف •

---

(٤) لمطة : ارض لقبيلة من البربر باقصى المغرب من البر الأعظم ويقال للأرض والقبيلة معا لمطة (ياقوت : معجم البلدان) •

ولذلك أخرج الخليفة « المهدى » الجيوش والأساطيل بقيادة « أبى سعيد المعروف بالضيف » ، فحاصر القائد الجزيرة شهورا ، وقتل عددا كبيرا من أهلها ، وجالت « كتامة » فى أرياض الجزيرة وأهانت النساء والذرية .

ثم بدأت الأمور تتحول فى صالح الفاطميين ، فقد سلم للقائد الفاطمى أهل « جرجنت » وغيرهم ، وانضموا الى صفوفهم فى الحرب ، وتحصن الجند الفاطمى ، وأحاط نفسه بسور الى البحر وتحول المرسى اليه .

كل هذا شجع العسكر الفاطمى على مهاجمة أهل « صقلية » فهزمهم ، وحتى تعزز الخلافة موقفهم أرسلت اليهم مراكب ورجالا كثيرين .

ولما رأى أهل « صقلية » ذلك ، أيقنوا أنه لا طاقة لهم أمام ذلك الجيش ، وطلبوا الأمان ، فأجابهم القائد الفاطمى اليه ، وهدم سور مدينتهم ، واستولى على معداتهم وأسلحتهم ، وعاد الجيش ظافرا الى افريقية بعد أن تولى على البلاد « سالم بن راشد » وتركت معه حامية من الجند الكتاميين ، ايمانا من الخلافة بأن الحكم لن يستقر بهذه الجزيرة الا اذا بقى مع الوالى جيش يعاونه ويقضى على الثائرين والمعاندين (٥) .

مرة أخرى تتعرض البلاد لثورة عارمة بسبب سوء سيرة الولاة فى رعيتهم ، ويتولى الجيش مواجهة العاصين كما تولى ذلك من قبل .

فقد ثار أهل « جرجنت » على عامل الفاطميين عليهم ، لاستبداده فيهم ، واهانته لهم ، وأراد « سالم بن راشد » والى صقلية ، أن ينتقم

---

(٥) انظر :

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥ و ٢٦ حوادث سنة ٣٠٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب : مواضع متفرقة من ص ١٦٩ الى ١٧٧

لنائبه على تلك المدينة ، فأخرج جيشا مشتركا من أهل صقلية وافريقية لمحاربة الثورة ، غير أنهم تمكنوا من هزيمته ، الشىء الذى حمل « الوالى » على الخروج بنفسه ومحاربة الثائرين ، واشتد القتال بينهم حتى انهزم أهل « جرجنت » •

غير أن تلك الهزيمة كانت نقطة حاسمة جعلت أهل « صقلية » يتذمرون جميعا لقسوة حكامهم ، وأفلت الزمام من يد الوالى ، فقرر الاستنجاد بالخلافة ، وأرسل يستمدها الجنود ، فأمده الخليفة بجيش كبير استعمل عليه القائد « خليل بن اسحاق » ، فقابله الناس طائعين وبكى أمامه أهل « صقلية وجرجنت » ، وشكوا اليه ظلم واليهم ، واهانته لكل أفراد الشعب بما فيهم النساء والأطفال •

بيد أن شيئا حدث ، سبب تحول الصقليين من موقف المسالمة الى اعلان الحرب ضد الجيوش الفاطمية ، فقد ساء الوالى أن تعرف الخلافة حمله للشعب على الثورة فاتصل بالرجال ، وأوهمهم أن جيش « خليل » جاء لينتقم منهم ، جزاء من قتلوا من الجنود الفاطميين ، ونجح فى حملهم على معاودة الخلاف والاستعداد للحرب ، كما خالف على الفاطميين جميع القلاع واستعدوا للقتال •

وزادوا على ذلك فطلبوا من ملك القسطنطينية الامبراطور قسطنطين السابع « الأرجوانى » ٩١٢ — ٩٥٩ م معاونتهم وامدادهم بالمال والرجال ، وأرادوا بذلك أن يجعلوها حربا بين البيزنطيين والفاطميين •

وقد أصرت الخلافة الفاطمية على مواجهة الموقف فى حزم وقوة ، فأرسلت الى « خليل » القائد عددا كبيرا من العساكر ، ورسم القائد الفاطمى خطته على أساس محاصرة القلاع وحملها على السقوط ، فتهاوت الواحدة تلو الأخرى ، ولما أنزل القائد أهل « جرجنت » من قلعتهم ، أهانهم وانتقم منهم ، فحمل ذلك باقى القلاع على الطاعة خوفا من تعرضهم لنفس المصير •

وبذلك استطاع الجيش أن يعيد هـذه البلاد فاطمية مرة أخرى ، وأن يحول بين الروم وبين النزول فيها[٦] •

وكما كان استبداد الولاة سـببا فى التمرد الشعبى ، كان ضعفهم كذلك داعيا الى غطرسة الأقوياء من أبناء الشعب ، واساءتهم للناس ، وكان ذلك يدفع الى الثورة ويكلف الخلافة الفاطمية اعداد الجيوش وارسال الرجال للقضاء على هـذه الثورات •

فقد تولى على صقلية والى يعرف « بعطاف » ، وكان ضعيفا عاجزا لدرجة أن الروم فى أيامه ، تجرؤوا على منع مال الهدنة عن المسـلمين ، واستبد بالبـلاد جمـاعة يعرفون « ببنى الطبرى » ، تجمعت حولهم حاشية ، وأهانوا أفراد الشعب وقتلوا عددا من رجال الوالى نفسه ، واضطروه الى الاحتماء فى حصن المدينة •

وأراد الخليفة الفاطمى أن يضع حدا لاستبداد تلك الجماعة ، فجهز جيشا أمر عليه « الحسن بن على » وأمره بالمسير الى « صقلية » ، فجهز القائد مراكب ، وتوجه الى الجزيرة ، واستطاع بالحيلة أن يدخل المدينة ، وأن يقبض على الطبريين فيها ويصادر أموالهم ، واشتدت شوكة الفاطميين وكثر جمعهم حتى ان الروم هابتهم ودفعوا مال الهدنة لثلاث سـنين •

ومع ذلك أراد الروم أن يأخذوا المسـلمين على غرة ، فأرسلوا الى الجزيرة أسـطولا وجيشا كبيرا يقوده واحـد من البطارقة ، لكن الخلافة الفاطمية كانت حذرة منتبهة ، فما أن علمت بالخبر حتى جهز الخليفة أسـطولا به سبعة آلاف فارس وثلاث آلاف وخمسمائة راجل وأرسلت بهم الى « صقلية » •

وكان والى الفاطميين « بصقلية » قد اجتمع لديه جند كثير ، فسار بكل هؤلاء واستعد بريا وبحريا ، ثم كانت عدة مواقع آخرها

---

(٦) انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١١٨ حـوادث سـنة ٣٢٥ هـ = ٩٣٦ م

لقاء المسلمين بالروم يوم عرفة سنة ٣٤٠ هـ ، وقد اشتد فيه القتال ، واستولى المسلمون على سلاح عدوهم ومعداته .

وأخيرا عقد المسلمون مع الروم هدنة بناء على طلبهم ، وبنوا مسجدا كبيرا فى مدينة « ريو »[٧] ، وشرطوا على الروم الا يمنعوا المسلمين من بنائه وعمارته ، وألا يدخله نصرانى ، وأن من دخله من أسرى المسلمين فهو آمن ، وأنهم ان أخرجوا حجرا منه هدمت كل كنائسهم بصقلية وافريقية ، وقد وافق الروم على كل هذه الشروط ووفوا بها ذلة وصغارا[٨] .

وهكذا نجح الجيش الفاطمى بفضل استعداد رجاله ، وبراعة قواده ، واحكام خططه ، وبمعاونة الأسطول الفاطمى ، فأفلح فى قهر عدوه ، وحمله على التسليم له بهذه الصورة .

ومن ذلك يتضح كيف عاشت « صقلية » الفاطمية فى ثورات تكاد تكون متصلة وكان المحرك الأول لهذه الثورات هو ظلم الولاة واستبدادهم بالناس ، واهانتهم لأفراد الشعب ، وكان يمكن ألا تقوم ثورة واحدة ، لو عدل الولاة فى حكمهم ، ولم يثيروا رعيتهم بالسيطرة الظالمة والاهانة .

وتتحمل الخلافة نصيبا من المسئولية فى هذه الحركات الثورية ، فقد كان مفروضا عليها أن تتعرف رغبات الشعب وتعمل على تحقيقها طالما كانت شرعية وعادلة وكان عليها أن تسمع له وتناقشه ما دام يطالب بحق مشروع ، لكنا فى كل مرة وجدناها تمد الولاة بجندها

---

(٧) أنظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٦٩ الى ص ١٧١ حوادث سنة ٣٣٦ هـ .

(٨) « ريو » مدينة فى البر الشمالى الشرقى ، للبحر الأبيض المتوسط ، اى فى نفس البر الذى تقع عليه القسطنطينية . راجع ياقوت : معجم البلدان .

وأساطيلها ، وتحارب البلاد فى قســوة حتى تسترد الطاعة عليها ، ثم تسلمها لوال جديد يسىء المسيرة ، ويكرر معاملة سلفه ، ويتعرض للثورة عليــه •

وكل هــذا لا يمنع من اتهام أهل « صقلية » أنفسهم بالتقصير ، وبتجنب الطريق الطبيعى لاظهار الشكوى ، لقد كان الواجب يحتم أن يرفعوا أمرهم مع ولاتهم الى الخليفة ليفصل فيه ، فاذا ما أحسوا تقصيرا أو اهمالا بعد ذلك ، حق لهم الثورة بالحاكمين والمخالفة عليهم •

فتبعة هــذه الثورات اذاً تبعة مزدوجة ، يقع بعضها على الشعب وبعضها على الولاة ، كما تتحمل الخلافة نفسها شطرا منها •

* * *

نشـــاط الجيش الفاطمي من صـــقلية

اتخذ جيش الفاطميين « صقلية » قاعدة تحرك منها لغزو بعض بلدان « أوربا » ، ووجه منها نشـــاطه العسكرى ضد الدولة الرومية البيزنطيـــة .

ويلاحظ أن « الأسطول » سيقوم بنصيب وافر فى العمليات الحربية بهذه البلاد ، ذلك لأن طبيعتها الساحلية كانت تدعو لاستخدامه، بل ان الاعتماد عليه كان شـــيئا أساسيا لصنع النصر وكسب المعارك .

وقد أخرج الخليفة الفاطمي جيشا من افريقية ، وانضم اليه جيش آخر كونه والى صقلية « سالم بن راشد » ، وتوجه الجيشان بقيادة ذلك الوالى ففتحا « غديران وأبرجة » وغنما منهما المغانم الكثيرة ، ثم قصـــد الجيش الصـــقلى أرض « قلورية »[1] وحاصر « طارنت » حتى تم فتحها بالسيف ، بعدها ضيق على هل « أدرنت » لكنه لم يتمكن من فتحها بسبب مرض اضطر الجنود للعودة[2] .

وقد تعرضت البلاد الرومية لكثير من الحملات المعززة بالأسطول الفاطمي . فقد خرج « مسعود الفتى » فى عشرين شينيا لغزو بلاد الروم فافتتح مدينة « أغانى » كذلك تولى « جعفر بن عبيد الحاجب » على أسطول فاطمي كبير ، وقصد بلاد الروم ، وسبى من جنودها ،

---

(١) قلورية : جزيرة كانت تقع شرقى صقلية ذات مدن وبلاد واسعة ، وهى الآن جنوبى ايطاليا واســمها Calabria راجع معجم البلدان لياقوت ، وحسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية ص ١١٠ اما أدرنت فهى مدينة بايطاليا otrante (تاريخ الدولة الفاطمية ـ الموضـع السـابق) ، واما طارنت فهى مدينة تكون مع « انكبردة » ما يعرف اليوم بـ كالبره calabre انظر : شكيب ارسـلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٥٣ ، وكانت مدينة بصقليـة أيام الدولة الفاطمية (ياقوت : معجم البلدان) اما الغيران فهى حصن بصقليـة بعد قصريانة ، والحسب كذلك ـ راجع : تاريخ ابن خلدون ٤ ص ٢٠٠

(٢) انظـر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٥٤ حوادث سنة ٣١٣هـ .

أما « أبو جعفر بن عبيد الحاجب » فقد خرج من صقلية للغزو فى بلاد الروم ، واستطاع أن يفتح أماكن كثيرة منها مدينة « وارى » ، وقد قتل فيها ستة آلاف وأسر عشرة آلاف ثم عاد الى « صقلية » ومنها الى « المهدية » .

وقد أخرجت الخلافة الفاطمية « صابرا الفتى » على رأس حملات ثلاث لنفس الهدف ، وكان معه فى المرة الأولى أربعة واربعون مركبا أصاب بها المغانم ونال من عدوه ، وفى الحملة الثانية خرج من « صقلية » فافتتح موضعا يعرف بالقيران وقلعة الحسب واستولى على ما فيها ، ثم فتح مدينتى « سلير ونايل » صلحا وعاد الى قاعدته ، وفى الغزوة الثالثة التقى « بالرغوس » وأمكنه أنه يهزمه فى البحر بالرغم من تفوقه فى العدد ، وخضعت مدينة « ترمولة » فى هذه الحملة للفاطميين ، وأخذ من عساكرهم سبيا كبيرا ثم عاد الى « المهدية »(٣) .

وكانت الخلافة الفاطمية ترغب فى أن تكون مهابة دائما بهذه النواحى ، ولذلك أعدت جيشا ، وأخرجت أسطولا من دار الصناعة بالمهدية ، وتولى القيادة « يعقوب بن أسحاق » ، واستطاع أن يفتح « جنوة » وأن يمر « بسر دينية وقرقسيا » ، ويحرق فيهما المراكب الكثيرة ، وغزا نفس الأسطول « كورسكا » وأعلى صيت المسلمين فى البحر ، وفرض هيبتهم على هذه السواحل ، وأصبح البحر الأبيض المتوسط بحق بحيرة اسلامية(٤) .

---

(٣) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحات : ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٨ حوادث سنة ٣٢٣ هـ ، الذهبى : تاريخ الاسلام ج ١٨ ص ١٥٤ ، حسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٨١ ويقول : « جنوة » أعظم مرسى تجارى بالجهة الشمالية من ايطاليا ، وكورسكا وسردينية ، جزيرتان عظيمتان بقرب البحر المتوسط ، الأولى تابعة « لفرنسا » والثانية تابعة « لايطاليا » . وقد حكمهما المسلمون فترة طويلة ، وانظر المرجع والموضع السابق الاشارة اليهما .

ويظهر أن ملك الروم ظن الضعف بالخلافة الفاطمية أيام الخليفة « المنصور » بسبب الصعوبات الداخلية ، والثورات فى البلاد ، ولذلك عقد العزم على التحرك الى « صقلية » ، لكن الخليفة لم يمهله طويلا ، فما كاد يسمع بعزم الملك الرومى حتى جهز أسطولا حربيا كبيرا بقيادة « رشيق » وبعث به الى بلاد الروم ، فأتيح له أن يفتح كثيرا من بلدانها ويغنم منها مغانم كثيرة ، ونجح بذلك فى شل حركة ملك الروم ورده خائبا مدحورا(٥) .

فتح طبرمين(٦)

تعتبر تلك القلعة من أمنع القلاع الرومية ، ومن أصعب الحصون وأشدها على المسلمين ، وقد عزم الخليفة الفاطمى « المعز لدين الله » على بذل كل ما فى وسعه لضم هذه القلعة لممتلكاته مهما كلفه ذلك من ثمن .

وقد أعد لذلك الغرض جيشا قويا تولى عليه أمير « صقلية » « أحمد بن الحسن بن على بن أبى الحسن » ، وتوجه ذلك الجيش من صقلية الى تلك القلعة ، وحاصرها من جميع جوانبها فامتنع أهلها فيها ، واستمر المسلمون يحاصرونها زمنا دون أن يظفروا من وراء ذلك بطائل ، ثم اهتدوا الى فكرة كانت نقطة تحول غيرت مجرى الحوادث لصالحهم ، فقد تعمدوا قطع الماء الذى يدخل الى القلعة وحولوه الى مكان آخر ، عندئذ أسقط فى يد أهلها وأرسلوا يطلبون الأمان ، فرفض المسلمون تأمينهم ، فطلبوا أن تصبح أموالهم فيئا ، وأن يكونوا هم رقيقا ولا تسفك دماؤهم فأجابهم الجيش الاسلامى لذلك وأخرجهم من البلد ، وسيطر عليها بعد حصار دام ثمانية أشهر .

---

(٥) ابن ابى دينار : المؤنس ص ٥٩ ، ابن ابى الضياف : اتحاف اهل الزمان جـ ١ ص ١٢٣ ، حسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٨١

(٦) طبرين : قلعة حصينة بصقلية تقع بالقرب من جبل النار المطل على البر : ياقوت معجم البلدان .

وقد وصل سبى هـذه القلعة الى « المعز » بعد فتحها ، وكانت جملته ألفا وسبعمائة ونيفا وسبعين[٧] ، كما أسر المسلمون الأسطول الرومى كذلك[٨] ، ثم أسكن الخليفة البلد نفرا من المسلمين ، وسميت « المغرية » نسبة الى « المعز لدين الله الفاطمى »[٩] .

فتـح رمطـة[١٠]

رغب الخليفة الفاطمى فى فتح هـذا البلد ، فجهز لذلك جيشـا جعل على قيادته « الحسن بن عمار » ، وقد حاصر ذلك الجيش المدينة ، وضيق على أهلها من الروم ، ولمـا شـعر هؤلاء بحرج موقفهم ، وأنهم لا قبل لهم بالجيش الاسـلامى ، اتصلوا بملك «القسطنطينية» الامبراطور بارسـال الثانى (٩٦٣ — ١٠٢٥ م) وطلبوا انجادهـم بالعساكر ، فجهز لهم جيشـا يزيد على أربعين ألف مقاتل ، وبعث به اليهم .

وكان الوضع الجديد يحتم على المسلمين الاستعداد له ، فأرسل أمير « صقلية » الى الخليفة « المعز » يطلب سرعة امداده بالعساكر ، فجمع الخليفة مقاتلة البر والبحر ، وأعد الأسطول وزاد فى وحداته ، وحشد كل ما يمكن من الرجال ، وفرق فيهم الأموال ، وبعث ببعضهم الى والى « صقلية » ، وأرسل الآخرين الى المحاصرين « لرمطة » حيث شاركوهم حصارها .

ثم وصل الروم الى « صقلية » فى جموعهم الحاشدة ، فاضطر مقدم الجيش الاسلامى الى أن يبرز بعساكره للقاء الروم المهاجمين ،

---

(٧) انظر : تاريخ أبى الفـدا مجلد ٢ ص ١٠٢

(٨) انظر : ابن ظافر : اخبـار الدول المنقطعة ص ١٠٠

(٩) انظـر : ابو الفدا : تاريخ أبى الفدا مجلد ٢ ص ١٠٠ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٥ حوادث سـنة ٣٥١ هـ .

(١٠) رمطـة : قلعة ومدينة بصقلية بعيدة عن البحر ، بينها وبين مسينى تسـعة أميال — راجع : ياقوت معجم البلدان ، وحسين ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٠ ، وابن خلدون / التاريخ ج ٤ ص ٤٧

وأبقى طائفة من رجاله على « رمطة » يمنعون الخروج منها ، وبلغ الأمر ذروته على العسكر الإسلامى ، وأحاط الروم بهم ، وأراد أهل « رمطة » اتيان المسلمين من وراء ظهورهم ، بيد أن الجند الاسلامى كان حذرا ، ومنتبها لهم ، فلم يمكنهم من تحقيق ما أرادوا .

بعد ذلك تقدم الروم للقتال فخورين بكثرتهم وبما معهم من آلات حربية ، وهجموا على المسلمين فى قوة ، والحقوهم بالخيام ، لكن أمير المسلمين أخذ يحمس جنده وارتفعت الأصوات تحرض المسلمين على القتال ، فألهب ذلك حميتهم وجعلهم يختارون ما عند الله ، ويؤثرون الموت على الحياة ، وفعل بطارقة الروم مثل ذلك ، وأخذوا يشجعون أعوانهم .

حمى وطيس المعركة بعد ذلك ، وحمل مقدم الروم على المسلمين ، فرمى بعض الجند المسلم فرسه وأرداه قتيلا ، واشتد القتال حول ذلك القائد وتمكن المسلمون من قتله هو وجماعة من بطارقته .

وكان قتل ذلك القائد بداية الهزيمة الرومية ، والانتصار الاسلامى ، فقد ضعفت معنويات الجنود بعد مقتله ، وأكثر المسلمون القتل فيهم ، بل ان بعضهم أخذ يقتل بعضا ، بسبب ما نالهم من ضعف وخوف وجزع ، وترددوا فى حفرة امتلأت بهم ، وقتل منهم فى هذه المعركة ما يزيد على عشرة آلاف نفس[11] وغنم المسلمون من السلاح وصنوف الخيل والأموال ما لا يحد .

أما أهل « رمطة » فان نفوسهم قد ضعفت بهزيمة حماتهم ، وقلت الأقوات عندهم ، وخرج الناس ، ولم يبق فى المدينة الا المقاتلة فقط ، وقد زحف المسلمون اليهم ، وقاتلوهم يوما وليلة ، ثم تقدموا بالسلالم ، وملكوا البلد عنوة ، وقتلوا من فيها وأسروا الأطفال والنساء وغنموا منها أشياء كثيرة ، ثم أخذ المسلمون فى اصلاح ما أفسدته الحروب بتلك المدينة ، واهتموا بتعميرها[12] .

---

(١١) تاريخ أبى الفدا مجلد ٢ ص ١٠٢

(١٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ صفحات ١٩٥ و ١٩٩ و ٢٠٠ حوادث سنة ٣٥٣ هـ ، ٩٦٤ م

واقعة المجاز[13]

تجمع من سلم من الروم فى القتال السابق ، وانضم اليهم من أمكنه الفرار الى « صقلية » ، وركبوا جميعا المراكب وحاولوا الهرب بعيدا عن المسلمين .

لكن الجيش الفاطمى خشى أن ينجح هؤلاء فى تجميع قومهم ، ويمثلون بذلك خطرا على الخلافة الفاطمية ، ولذلك ركب والى « صقلية » ومعه العساكر فى المراكب ، وزحفوا الى عدوهم فى الماء ، وقامت بين الطرفين معركة اشتد القتال فيها دون أن يظفر أحد .

ثم صمم المسلمون على وضع حد لهذه المعركة ، فألقى جماعة منهم بأنفسهم فى الماء ، وخرقوا مراكب الروم ، وأغرقوا الكثير منها ، وأكثروا القتل فى عدوهم ، فانهزم أمامهم ، وكان خرق سفنهم نقطة فاصلة لهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم .

بعد ذلك سارت السرايا الاسلامية فى المدن الرومية ، وغنمت ما فيها ، فبذل أهلها الأمان للمسلمين وهادنوهم .

وعرفت الواقعة البحرية التى دارت بين الجيش الاسلامى ، وبين فلول الروم المنهزمين بواقعة « المجاز »[14] .

الأسطول الفاطمى يغزو الأندلس

أعد الخليفة الأموى « عبد الرحمن الناصر » مركبا تجاريا كبيرا ، وشحنه بالبضائع وأرسله الى المشرق ليباع ويستعاض عن بضائعه بأخرى مشرقية .

---

(١٣) لا نعرف سبب تسمية هذه الموقعة بهذا الاسم ، كما لا نعلم احدا فى القديم او الحديث قدم سببا لهذه التسمية .

(١٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٩٩ و ٢٠٠ حوادث سنة ٣٥٣ هـ ، ابن كثير : البداية والنهاية : جـ ١١ ص ٢٥٣ و ٢٥٤ . طبع القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ وكذلك العدوى : الأساطيل العربية ص ١١٨

وصادف المركب الأندلسى فى عرض البحر ، سفينة فيها رسول من والى « صقلية » بعث به الى الخليفة « المعز » بمكاتبات ، فاعترض الأندلسيون طريق سفينة الوالى الفاطمى واستولوا على ما فيها .

ولما علم الخليفة ذلك اعتبر هذا العمل اهانة وجهت اليه ، وقرر الانتقام ، وأعد لذلك أسطولا جعل عليه « الحسن بن على » والى « صقلية » .

وقد توجه ذلك الأسطول الى « الأندلس » فوصل الى « آلمرية »(١٥) وأحرق جميع ما كان فى مبناها من المراكب الأندلسيه ، وقتل من وجد فى البر عندها ، ونهب ما آمكنه ثم عاد الى المهدية .

وفوق ذلك استولى الفاطميون على المراكب المعتدية أثناء عودتها من الاسكندرية(١٦) .

وبذلك تمكن العسكر الفاطمى من غزو الدولة الأمويه فى عقر دارها ، وفرضوا سيطرتهم عليها ، وحملوهم على مهابتهم .

ومما سبق يتضح نجاح الجيش الفاطمى فى نشر سلطان تلك الدولة على كثير من البلدان ، كما تمكن ـ بمعاونة الأسطول ـ من جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة اسلامية ، وانتزع هيبة الروم والأمويين ، وفرض احترام الخلافة الفاطمية على كثير من الشواطىء الأوربية .

وقد كانت كتامة وصنهاجة ـ بالاضافة الى العبيد وبعض القبائل الأخرى ـ أساس الجيش الفاطمى فى هجومه ، كما كانوا عتاده فى الدفاع عن البلاد وحمايتها من أعدائها ، وقد قدمت كلتا القبيلتين عونا كثيرا الى الفاطميين .

---

(١٥) المرية : القاعدة الرئيسة للأسطول الأندلسى . راجع : العدوى . الأساطيل العربية ص ١١٧

(١٦) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٤٠ وكذلك العدوى الأساطيل العربية ص ١١٦ ، ١١٧

الجيش الفاطمى يحارب الروم البيزنطيين فى انطاكيـة

أتم « جعفر بن فلاح » القائد الفاطمى فتح بلاد الشام كما مر ، ثم رغب فى أن يبسط رقعة الخلافة الفاطمية ، فأرسل الى قائده الأعلى « جوهر » يستأذنه فى التوجه الى « أنطاكية » فجاءه الإذن بذلك ، وأعد عشرين ألفا من الجنود أرسل بهم الى تلك المدينة ، تمكنوا من محاصرتها مدة ، وعلم الروم بذلك ، فأرسلوا مددا لها حمل الفاطميين على ترك حصارها والعودة منها الى « دمشق » •

لكن لماذا انسحب الجيش الفاطمى • ؟ ألأن المدد الرومى كان كبيرا فلم يستطع العسكر الفاطمى مواجهته ، وهل يعد عشرون ألفا من الجنود عددا قليلا لا يقوى على مواجهة العدو الرومى • ؟

الأرجح هو أن الأخبار قد تواترت عن مجىء القرامطة ، وكثر الحديث عن توجههم نحـو « دمشق » كما كثر الارجاف بمقدمهم وبالحديث عن مقاتلتهم للفاطميين ، واخراجهم لهم من بلاد الشام ، لذلك عاد الجيش الفاطمى من « أنطاكية » ليكرس كل جهوده للمقاتلة فى جبهة واحـدة ، ولينقذ البـلاد من سيطرة القرامطة عليهـا ، واستتاط الحكم الفاطمى منها(١٧) •

بين الجيش الفاطمى والدولة الرومانية البيزنطية

اتصل بالخليفة الفاطمى العزيز رجل يدعى « على بن الحسن المغربى » — من كبار الموظفين « بحلب » — ونجح فى اقناعه بالعمل على فتح هـذا البلد ، وتخليصه من الحمدانيين ، وأشار عليه بتكوين جيش لهذا الغرض يتولى قيادته واحـد من الأتراك حتى يستجيب له بنو جنسه من مماليك صاحب « حلب » •

---

(١٧) انظر : تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٨ و ١٣٩ ، الدوادارى زبـدة الفكرة جـ ٦ لوحة ٢٠٨

وقد أعد الخليفة الفاطمى ذلك الجيش ، وجعل عليه « منجوتكين » وزوده بما يحتاج اليه ، وخرج بنفسه لتشييع الجنود وتوديعهم .

وسـار الجيش حتى وصل الى « دمشق » ، ومنها توجه الى « حلب » فى ثلاثين ألفا ، وكان بتلك المدينة أبو الفضائل بن سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمـدان ، ولؤلؤ الحمدانى فأغلقـا أبواب المدينة ، ودفعا ما وسعهما الجهد ، ثم حدث أمر وسع نطاق الحرب ، وجعل الدولة الرومية تتدخل فيها .

ذلك أن « الحمدانيين » قد كاتبوا ملك الروم الامبراطور باسل الثانى (٩٦٣ — ١٠٢٥ م) يستنجدونه ، ويطلبون معونته لقتـال الفاطميين ، وتقربا اليه بما كان بينه وبين أسلافهم من المودة والمعاهدة .

ازاء ذلك ، قرر الملك الرومى الاستجابة لنداء هؤلاء القوم ، وكلف نائبه على « انطاكية » أن يتجهز بعساكره ، ويسير الى « حلب » ويخلعها من الفاطميين .

سار ذلك النائب فى خمسين ألفا ، ونزل ما بين أنطاكية وحلب ، ولمـا علم القائد الفاطمى بذلك ، وضع خطته على أسـاس أن ينسحب من « حلب » ويتوجه لمقاتلة الروم قبل أن يصلوا اليها حتى لا يقع بين عدوين .

وتم تقابل الجمعين فعلا ، ولم يفصل بينهما الا النهر المقلوب « العاصى » وأخذ الفريقان يتراشقان بالنشاب ، ولم يتيسر عبور النهر لأيهما نظرا لكثرة الميـاه .

ومع ذلك فقد حمل أحد الطاعنين فى السن الجيش الفاطمى على العبور ، فقد أخذ ذلك الرجل فى اجتياز النهر بين رمى العـدو له بالنشاب حتى أصبح على الأرض من البر الآخر ، ازاء ذلك وجد عسكر « منجوتكين » نفسه مضطرا الى الرمى بأنفسهم فى المـاء ، فرسانا ورجالة ، حتى أصبحوا مع الروم فى أرض واحدة ، ودخلوا

معهم فى معركة كانت نتيجتها انتصار المسلمين ، وولى الروم ، وأفلت كبيرهم فى عدد كبير الى « أنطاكية » وغنم المسلمون من الأموال والمتاع شيئا كثيرا .

وجد الحمدانيون أنه لا طاقة لهم بالجيش الفاطمى ، كما وجدوا أن الحيلة قد تكون أجدى فى حملهم على الرحيل من « حلب » .

فاتصلوا برجال « منجوتكين » وبذلوا لهم ما يرضيهم ، وسألوهم المشورة عليه بالعودة الى « دمشق » والرجوع فى العام القادم .

ولما عرض ذلك على القائد الفاطمى ، صادف هوى فى نفسه ، فقد مل الحرب واشتاق الى « دمشق » ، ولذلك كتب الى الخليفة يدعى نفاد « الميرة » وأن العسكر لا طاقة لهم على المقام ، ويستأذن فى الرحيل .

وغادر « حلب » قبل أن يصله رد الخليفة ، الشىء الذى أحنق « العزيز » عليه ، وأحدث رد فعل عنيف فى حكومته .

وعلى كل حال فقد عاد « منجوتكين » الى حلب فى العام التالى ، وبنى الدور والحمامات والأسواق بظاهر تلك المدينة ، وصمم على فتحها ، وقاتل أهلها واشتد عليهم حتى عدمت الأقوات عندهم ، فقرر ملكها الاستنجاد بالروم مرة ثانية ، وقال لملكهم « متى أخذت حلب » أخذت « أنطاكية » ، ومتى أخذت « انطاكية » « أخذت قسطنطينية » .

ولما تأكد لدى الملك الرومى الامبراطور باسل الثانى (٩٦٣ — ١٠٢٥ م) ، تعرض بلاده للخطر ، خرج بنفسه على رأس مائة ألف من العساكر ، وأغذ فى سيره حتى قطع المسافة ما بين حلب والقسطنطينية فى ١٧ يوما والقوافل تقطعها فى شهرين[١٨] .

وجاءت الجواسيس الفاطمية لتنهى الى « القائد منجوتكين » عظم ما قدم به الجيش الرومى ، وكثرة عدده ووفرة استعداده ، فأحرق

---

(١٨) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٦ مجلد ٢ ورقة ١٤٨ و ١٤٩

ما لديه من خزائن وأموال وولى منهزما بدون قتال حتى وصـل الى « دمشـق » •

أما ملك الروم فقد وصل الى « حلب » واسـتولى عليها وعلى جميع حصونها ، ثم نزل على « حمص » وافتتحها عنوة بالسيف ، وسبى أكثر من عشرة آلاف من أهلها ، ثم قصـد « طرابلس » ، وكانت تلك المدينة هى القلعة التى توقف عندهـا الزحف الرومى ، فقد حاصرها الروم أربعين يوما ، لكنها امتنعت عليهم فرحلوا عائدين الى بلادهم ، ومع ذلك فقـد كان المغاربة من أصحاب « منجوتكين » أصعب على الناس من الروم ، بسبب نهبهم وافسـادهم فى البلاد[١٩] •

علمت الخلافة الفاطمية فى مصر ، بما صنعه ملك الروم فى بلاد الشـام ، فعظم ذلك على الخليفـة « العزيز » ، ونادى فى الناس بالنفير ، وفتح خزائنه وأنفق على جنده بسـخاء ، وأظهر العزم على غزو بلاد الروم ، وطلب الخليفة من وزيره اعداد أسطول يشارك فى القتال ، فتم ذلك فى دار الصناعة ، وجمع له الآلات والأسلحة والعدد وتقرر أن يسـير ذلك الأسطول ، غير أن كارثة وقعت له فأحرقته ، وصنع بديل له شحن بالرجال وأخرج الى البحر ، لكن ريحا هبت عليه فكسرته هو الآخر[٢٠] •

ومهما يكن من أمر فقد سـار « العزيز » فى جيوش هائلة ، ومعه توابيت آبائه ، وتوجه الى بلاد الشـام لينتقل منها الى بلاد الـروم •

وغير أن مرض « القولنج » أصابه عند « بانياس »[٢١] وتزايد عليه حتى أودى بحياته سـنة ٣٨٦ هـ •

---

(١٩) المرجع والموضع السـابق •

(٢٠) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، كذلك العدوى الاسـاطيل العربية ص ١٢٦ وما بعدهـا •

(٢١) بانياس : الموجود بنابوس قرية اعمال مركـز الزقازيق شرقيـة ، وانظر محمـد رمزى القاموس الجغـرافى القسـم الثـانى جـ ١ ص ٨٤

وبذلك توقف زحف الجيش الفاطمى المتوجه لحرب الدولة الرومية[٢٢] .

وبسبب استنجاد عرب الشام بالروم ، اصطدمت الخلافة الفاطمية بالدولة الرومانية على عهد الخليفة « الحاكم » .

فقد تغلب على « صور » أيام ذلك الخليفة رجل يعرف « بعلاقة » واستنجد بملك الروم ، وسأله معونته ، فأرسلت الخلافة الفاطمية جيوشا قضت على تلك الحركة ، واستولت على مركب من أسطول الروم فيه مائتا نفس قتلوا عن آخرهم[٢٣] .

مالت العلاقات الفاطمية ــ الرومية بعد ذلك الى المسالمة ، وتم عقد هدنة بين الطرفين ، ظل كلاهما محترما لها الى سنة ٤٣٢ هـ حيث تجدد الصدام بينهما على عهد الخليفة الفاطمى « المستنصر » .

وهكذا تلونت العلاقات الفاطمية ــ الرومية ، ولم تثبت على حالة واحدة ، فهى أحيانا علاقات مسالمة ومهادنة ، اذا كان الفاطميون فى حالة القوة تمكنهم من ارهاب الروم ، وتفرض سيطرتهم على هؤلاء .

فاذا ما شعر الروم بضعف فى بلاد الدولة الفاطمية أو اختلال فى أحوالهم ، أو اضطراب فى دولتهم ، سارعوا بمحاربتهم والاستجابة للمستنجدين بهم .

وكما كانت « صقلية » ميدانا لهذه الحروب ، كانت بلاد الشام ميدانا آخر لها ، وقد أمكن الجيش الفاطمى فى كل مرة أن يقهر عدوه ، وأن يحمل الرومان على هيبة الخلافة الفاطمية .

* * *

---

(٢٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٦ وما بعدها ، سبط ابن الجوزى : المرآة جـ ٧ من ص ٢٣٣ الى ٢٣٧

(٢٣) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٧١ و ١٨٢

الفصـــل الســـادس

عنـــاصر الجيش الفاطمى ومعسكراته

عنـــاصر الجيش الفاطمى :

انتهى بنا البحث فى الفصول السابقة الى أن قبيلة « كتامة » ــ التى أقامت فى منطقة القبائل الصغرى بالمغرب الأوســط ــ كانت العنصر الأســاسى المكون للجيش الفاطمى فى مرحلة قيــام الدولة بافريقية ، وهناك قبائل أخرى شاركت « كتامة » فى نصرة الفاطميين، وعاونتهم فى حركاتهم العسكرية ، لكن اعتماد الفاطميين على هؤلاء لم يكن دائما ، وانما كان يأتى فى بعض الظروف والمناسبات .

فمثلا قاتلت « عجيســة » فى جــانب الفاطميين أثنــاء ثورة « أبى يزيد » كما اشتركت « مكناســة » فى اخماد ثورة « سجلماسة » ضــد الدولة الفاطمية وســاهم العبيد فى الحــروب مع الخــلافة الفاطمية كذلك[1] .

وهناك عنصر آخر برز ــ كنصير للفاطميين ــ أثنــاء محاربة الخليفة « المنصور » للثائر « أبى يزيد » ، ذلك العنصر يتمثل فى قبيلة « صنهاجة » التى احتلت منطقــة القبائل الكبرى فى بلاد المغرب ، وأصبحت منذ اســتعانة « المنصور » بها ركنا أساسيا ، عليه يعتمد الفاطميون فى تصديهم لأعدائهم ، وفى توسيع حــدود دولتهم[2] .

وقــد تكونت الجيوش الفاطميــة التى وفدت لفتــح مصر ، واستقرت بها بعــد الفتح ، تكونت من المغاربة ومن عرب افريقيــة وبربرها . فكان فيها زويلة ، ومن الروم ، ومن كتامة ، ومن البرقية ، ومن المصامدة ، كما كان فيها جماعة يسمون « بالحمزيين » نسبة الى قرية يقال لها « حمزة » فى افريقية[3] .

---

(١) انظر ما سبق ص : ٥٦ ، ٧٤ من هذا البحث .

(٢) انظر ما سبق ص : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ من هذا البحث .

(٣) انظر المقريزى : الخطط : المجلد ٢ ج ٣ من ص : ٤٠٥ الى ص : ٤٢٦ فى مواضع متفرقة ، القلقشــندى : صبح الأعشى ج ٣ من ص : ٣٥٣ الى ص : ٣٥٩ فى مواضع متفرقة .

وقد كانت قبيلة « كتامة » هى أساس العساكر الكثيرة ، التى وفدت مع « جوهر » لفتح مصر سنة ٣٥٨ ، وكانت أصل الجيش الفاطمى ، كما كانت كذلك فى عهود « المهدى (٢٩٧ : ٣٢٢ هـ) والقائم (٣٢٢ : ٣٣٤ هـ) والمنصور (٣٣٤ : ٣٤١) » ببلاد المغرب[٤] •

ولم يقف الأمر عند حد من قد موامع « جوهر » ، بل أن الخليفة « المعز » (٣٤١ : ٣٦٥هـ) عندما جاء الى مصر سنة ٣٦٢هـ ، صحبه حشد من العساكر ينتمى الى كتامة وزويله من البربر ، بالاضافة الى الروم والصقالية[٥] •

ومن ناحية العدد « فلم تكن جيوشه تعد ، ولا لما أوتيه حد ، بل قيل انه لم يطأ الأرض من بعد جيش الاسكندر بن فيليس المقدونى ، أكثر عددا من جيوش « المعز »[٦] •

ولما مات الخليفة « المعز » سنة ٣٦٥ هـ ، وتولى بعده ابنه « العزيز » (٣٦٥ : ٣٨٦ هـ) اتخذ خطوة مثلث تطورا هاما وخطيرا فى العناصر المكونة للجيش الفاطمى • ذلك أنه أدخل الديالمة والأتراك فى صفوف جيشه ، وجعلهم خاصة وبطانته ، وذلك بعد انتصاره على « الفتكين التركى » فقد قدم بذلك القائد ــ ومعه رجاله ــ التى

---

(٤) المقريزى : المرجع السابق والجزء السابق ص : ٤١٧

(٥) مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ص ١٧٠ ، ص ١٧١ ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م والصقالبة هم العبيد من الأسبان من لفظة « اسكلابو » الأسبانية ، والعرب يطلقون نفس الكلمة على « السلاف » من شعوب أوروبا الشرقية والجنوبية (فيليب حتى ــ تاريخ العرب مطول ج ٢ ص ٣٠٣) •

وكان النخاسون يحملونهم للاتجار فى جميع انحاء العالم ، وهم من طوائف العسكر الفاطميين ، وباسمهم شارع فيما بين حارة زويلة وخان ابى طاقية •

انظر : التعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٨٧

(٦) المقريزى : الخطط مجلد ١ ج ٢ ص ١٦٨ ، مجلد ٢ ج ٣ ص ٤١٥

القاهرة ، واكرمه واختفى به ، وأنزله هو ومن معه من ديالمة وأتراك فى العاصمة المصرية ، وبالغ فى الاحتفاء بهم[٧] •

وأصبحت العساكر الفاطمية على عهد ذلك الخليفة ما بين ديالمة وأتراك ، ومغاربة ومصامدة •

يقول المقريزى :

كانت « كتامة » هى أصل الدولة مدة خلافة المهدى عبيد الله ، وخلافة ابنه القائم بأمر الله ، وخلافة المنصور بنصر الله اسماعيل بن القاسم ، وخلافة معد المعز لدين الله بن المنصور ، وبهم أخذ ديار مصر ، لما سيرهم اليها مع القائد « جوهر » فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وهم أيضا كانوا أكابر من قدم معه من المغرب سنة اثنين وستين وثلثمائة ، فلما كان فى أيام ولده العزيز بالله « نزار » اصطنع الديلم والأتراك ، وجعلهم خاصته •••• » •

ويقول الشيال :

« ان العزيز بالله (٣٦٥ : ٣٨٦ هـ) أول من استعان من الفاطميين بالعنصرين التركى والسودانى ، فأصبح فى جيش مصر فرقتان من هذين العنصرين بعد أن كان اعتماد الفاطميين على المغاربة ••••• وقد كانت هذه العناصر مصدر قوة فى أول الأمر لما امتاز به الترك والسودان من الشجاعة والاقدام ، غير أنها لم تلبث أن أصبحت سببا من أسباب ضعف الدولة وانحلالها ، عندما دب النزاع وقامت أسباب المنافسة والنضال بينهما »[٨] •

ومن الطبيعى أن يؤدى اختلاف الأجناس وتعدد الأصول فى فرق الجيش الى التحاسد والتنافس فيما بينها ، وذلك ما حدث فى العهد الباكر لذلك التعدد •

---

(٧) انظر الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤١٧ – ٤١٨

(٨) انظر : تاريخ مصر الاسلامية جـ ١ ص : ٢٣٦

فقد جنح « العزيز » الى جانب « المشارقة » ، وأحقـد بذلك « المغاربة » وسبب ذلك تنافسـا بين الطائفتين : طائفة المشـارقة من جانب ، والمغاربة من جانب آخـر ، ووضع الخليفة بذلك بذرة تركية حقـد وتنافس ، سيكون مشغلة للدولة فيما بعد ، وعبئا جسيما ، يكلفها الكثير ، ويستنفذ جهدها ، بل سـوف يودى بها فى النهاية .

وهنـاك شيء جديد بالملاحظة حـدث فى عهد ذلك الخليفـة « العزيز » فقد أعاد لوزيره « ابن كلس » جميع سلطانه بعـد أن غضب عليه وسجنه ، ثم زاد ووهبه خمسمائة غلام من الناشئة وألفا من المغاربة ، وشكل هؤلاء فرقة خاصة حملت اسم « الوزيرية » نسبة للوزير « ابن كلس » وكان له السلطان المطلق عليها .

ومعنى ذلك أن الخليفـة الفاطمى سـاعد وزيره على تكـوين فرقة ، يتولى امرتها ، وله عليها كل السلطان ، بل وتنتسب اليه وتستمد اسمها منه ، وستكون هـذه السابقة ظاهرة يتكرر حدوثها فى عهد تلك الدولة ، فتنشأ الفرق الخاصـة التى تحمل اسم الخلفاء أو الوزراء وستكون مهمة هـذه الفرق أشـبه بمهمة الحرس الخـاص لرئيس الدولة أو رئيس الوزراء أو الوزير فى عصرنا الحديث .

هـذا عن عصر « العزيز » .

ولمـا جاء عصر « الحاكم » (٣٨٦ : ٤١١ هـ) كانت العناصر فى صفوف جيشـه تتنوع — بالاضافة الى « الكتاميين » الى ترك وديالمـة ، ومصامدة ، وصقالبة وعبيد سـود وغير ذلك(٩) .

وهنا نشهد وجود طائفة جديدة يدخلها الخليفة « الحاكم » فى صفوف جيشـه لأول مرة ، وسيكون لها شأن ، وستتسبب تصدعا فى الجبهة الداخليـة فى العهود القادمة ، تلك هى طائفة عبيد الشراء ، فقد اشترى « الحاكم » مجموعة ضمها الى عسكره ، جاء فى الخطط :

---

(٩) انظر : ابن اياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٥٧ طبع بولاق سـنة ١٣١١ هـ .

وقام من بعده — من بعــد العزيز — أبو على المنصور الملقب بالحاكم بأمر الله ، فقدم ابن عمار الكتامى وولاه الوســاطة ، وهى فى معنى رتبة الوزارة ، فأســتبد بأمور الدولة وقدم كتامة وأعطاهم وحط من الغلمان والأتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز ، فاجتمعوا الى « برجوان » وكان صقليا وقد تاقت نفســه الى الولاية ، فأغرى المصطنعة بابن عمار حتى ترك المنصب واعتزل عن الأمر ، وتقلد برجوان الوســاطة ، فاستخدم الغلمان المصطنعين فى القصر وزاد فى عطاياهم وقواهم ، ثم قتل « الحاكم » ابن عمار وكثيرا من رجال دولة أبيــه وجده فضعفت كتامة وقويت الغلمان(١٠) .

ويقول « ماجــد » :

« وكانت عناصر من مختلف الأجناس ، تدخل من جملة العسكر الفاطمى كما هو الحال فى جميع جيوش الدول الاســلامية ، فنجد السود من عبيد الشراء على الأخص من السودان الذين ازداد عددهم فى عهد الحاكم ، وتضاعفوا فى عهد المستنصر ..... يكونون فرقة هائلة فى الجيش الفاطمى »(١١) .

لكن عدد هؤلاء العبيد زاد فيما بعد — فى عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ : ٤٨٧ هـ) — حتى بلغ خمسين ألفا ، فقــد كانت والدة ذلك الخليفة أمة ، تكره أن يســود الترك فى الدولة ، فأكثرت من شراء العبيد وحرضت ابنها على ذلك(١٢) .

وفى الأيام الأخيرة للدولة الفاطمية وصل عدد جيشها أربعين ألف فارس ، وستة وثلاثين ألف رجل ، وعشرة شوان بحرية فيهــا عشرة آلاف مقاتل .

---

(١٠) انظــر : مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤١٨

(١١) انظــر : نظم الفاطميون ورسومهم فى مصر جـ ١ ص ١٩٩ وما بعدها القاهرة سـنة ١٩٥٣ م .

(١٢) انظــر : ابن اياس : تاريخ مصر جـ ١ ص ٤٦

وكانت أجناســه ما بين عبيد ســود الى أمراء مصريين الى عرب وأرمن وغير هؤلاء(١٣) •

أى أن المصريين اشتركوا فى جيش هــذه الدولة ، وكونوا عنصرا فيــه ، فى الحقبة الأخيرة من عمرهــا •

ولابد للخليفة ــ وهو ليس الا بشرا ــ أن يميل لطائفة على حساب الأخرى ، وأن يقرب جماعة ويدنيها منه ، بمقدار ما يباعد بينه وبين جماعة ثانية ، ثم يدفع الثمن فى النهاية ، ضعفا فى دولته ، وانهيارا لأركانها الى أن يتم تداعيها وســقوطها •

وهــذا ما حدث فى عهد الدولة الفاطمية •

فقد قرب الخليفة « المعز » (٣٤١ ــ ٣٦٥ هـ) الكتاميين ، وجعلهم خاصته ومستشاريه ، لأنهم أقاموا دولة الفاطميين ، ونصروا خلفاءهم فاستمروا لذلك أساس الدولة الفاطمية •

ثم جاء عصر « العزيز » (٣٦٥ ــ ٣٨٦ هـ) فانحطت درجــة المغاربة وكتامة(١٤) وارتفع ســهم الأتراك والديلم والمشارقة عامة ، وقربهم الخليفة ، وأمر وزيره « ابن كلس » فأسقط المغاربة ، وولى المشارقة مكانهم منذ سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) •

وقد أحست « كتامة » بما آل اليه أمرها من تدهور ، وانحدار منزلتها فاشترطت على « الحاكم » (٣٨٦ ــ ٤١١ هـ) عندما تولى الخلافة ، أن يعيد لها اعتبارها ، وأن يكون لها المشــورة والتقدير ، ويرجع لها كل شىء كسابق عهدها • وقد أجابها الخليفة لطلبها ، وولى

---

(١٣) انظــر : المقريزى : الخطط مجلد ١ جـ ٢ ص ١٦٩

(١٤) انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٩ ، ١٠ ، طبع بولاق بالقاهرة سنة ١٣٠٦ هـ •

« ابن عمار » — زعيم تلك القبيلة — الوساطة ، فارتفع شأن الكتاميين ، لكنهم عادوا الى التدهور مرة ثانية ، عنـدما تولى الوزارة « برجوان الصقلى » فبتحريض « الحاكم » له ، ولكراهته الشخصية للمغاربة ، قتل كثيرا منهم ، واستمرت « كتامة » متدهورة المكانة ، ضعيفة المنزلة ، الى أن انتهى عصر « الحاكم »(١٥) .

وسوف يستمر « المشارقة » فى التلاشى فيما بعد ، وسيرتفع بعدهم العبيد ، وسيسيطرون على كل شىء فى الدولة ، وستقوم المنازعات والحروب بينهم وبين الأتراك وستكثر الفتن والاضطرابات . تماما كما حدث لدولة العباسيين ، عندما استكثر الخليفة « المعتصم » العباسى من طائفة العبيد الأجانب ، وأدخلهم فى جيشه الشىء الذى سيترتب عليه شل حركة الدولة ، واستنفاد كل قواها ، وترك خزينتها خرابا بلقعـــا .

وكما قامت الحرب بين الطوائف بسبب الحقد والتنافس كانت تنشب عندما يزاد فى أرزاق طائفة ومرتباتها ، وينتقص من أخرى ، ولقد حدثت المنازعات لهذا السبب بين الترك والمغاربة ، كما قامت بين الترك والعبيـــد(١٦) .

وهناك مناسبة معينة — هو مناسبة الاحتفال بفتح الخليج — حضرها شاهد عيان ، هو الداعية « ناصر خسرو » ، وقد أمدنا بمعلومات عن فرق الجيش وعددها ، وما كان ينفق عليها زمن الفاطميين .

ووصف ذلك الرجل لفرق الجيش ، وان كان على عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) وفى فترة متـأخرة عن الفترة التى نتعرض لها — الا أنه يمكن أن يلقى ضوءا على عناصر الجيش الفاطمى ، وأصل كل عنصر ، وعدد أفراده .

---

(١٥) انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ١٠ .
(١٦) انظر : مشرقة : نظم الحكم فى مصر فى عهد الفاطميين ص ١٧٢ .

يقـــول :

« ان فرق الجيش كانت تســهم فى هــذا الاحتفال (يقصد الاحتفال بفتح الخليج فرقة فرقة ، وفوجا فوجا ، ولكل منها اســم وكنية تخصــها .

فرقة الكتاميين وهم من القيروان أتوا فى خدمة « المعز لدين الله »، وقيل أنهم كانوا عشرين ألف فارس .

وفرقة تسمى الباطليين ، وهم من رجال المغرب ، دخلوا مصر قبل مجىء الخليفة اليها (لعله يعنى أنهم دخلوها أيام حكم جوهر القائد لها) وقيل انهم خمسة عشر ألف فارس .

وفرقة تسمى المصامدة ، وهم سود قدموا من بلاد المصامدة ، قيل انهم عشرون ألف رجل[١٧] .

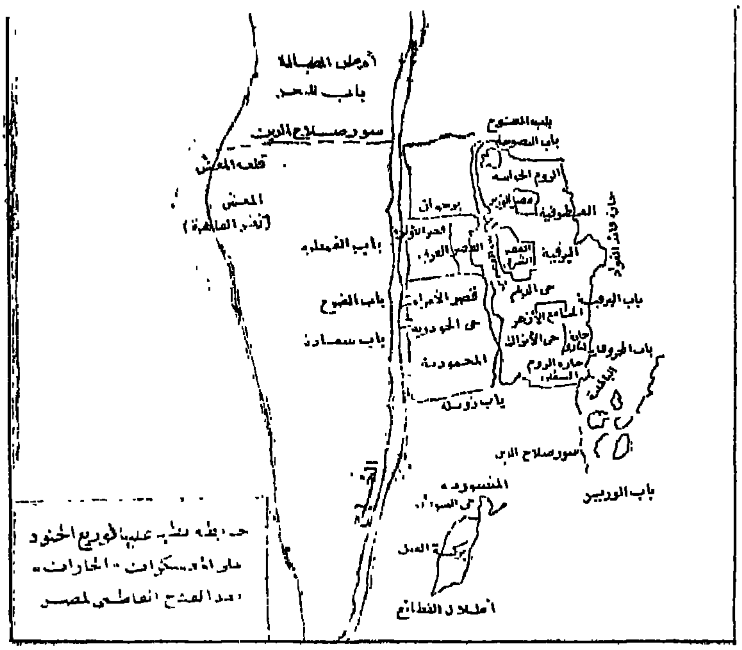
وفرقة تسمى المشارقة ما بين ترك وعجم ، أخذوا هــذا الاسم لأن أصلهم ليس عربيا ولو أن معظمهم ولد فى مصر ، وقيل اشتق اسمهم من الأصل فهم من المشرق الجهة المقابلة للمغرب ، ولهذا سموا بالمشارقة قيل انهم عشرة آلاف رجل ضخام الجثث .

وفرقة تسمى عبيد الشراء ، وهم عبيد مشترون قيل انهم ثلاثون ألف رجل ، وفرقة تسمى البدو ، وهم من أهل الحجاز ، وكانوا يجيدون حمل الرماح قيل انهم خمسون ألفا من الفرسان .

وفرقة تسمى الأستاذين ، كلهم خدم بيض وسود ، اشتروا للخدمة وهم ثلاثون ألف فارس .

---

(١٧) تقع بلاد المصامدة فى جنوب افريقية ، وتمتد حتى المحيط الأطلسى . انظر : مادة « المصامدة » فى دائرة المعارف الاسلامية .



أرض الطبالة
باب البحر
سور صلاح الدين
باب الفتوح
باب النصر
قلعة المقس
المقس
(ثغر القاهرة)
الروم الجوانية
قصر الوزير
العطوفية
برجوان
باب القنطرة
قصر اللؤلؤة
القصر الغربي
القصر الشرقي
البرقية
حي الديلم
باب البرقية
باب الخوخ
قصور الأمراء
الجامع الأزهر
حي الجودرية
حي الأتراك
باب سعادة
الباطلية
باب المحروق
المحمودية
حارة الروم السفلى
باب زويلة
سور صلاح الدين
المنصورة
حي السودان
باب الوزير
بركة الفيل
أطلال القطائع
خريطة تبين توزيع الجنود
على المعسكرات «الحارات»
بعد الفتح الفاطمي لمصر

وفرقة تسمى « السرائيين » وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ، ولهم قائد يتولى رعايتهم ، وكل منهم يستعمل سلاح ولايته وعددهم عشرة آلاف رجل .

وفرقة تسمى « الزنوج » يحاربون بالسيف وحده ، قيل انهم ثلاثون ألف رجل — ولعل الفرقتين الأخيرتين كانتا من العبيد ، ذلك أن غير « ناصر خسرو » لم يذكرهما — .

ونفقة هــذا الجيش كله كانت من مال السلطان ، ولكل جندى مرتب شــهرى على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منهــا أحــد الرعايا أو العمال ، وانما عليهم أن يسلموا لخزينة السلطان أموال ولايتهم فى كل سنة ، وتصرف أرزاق الجند من الخزينة فى وقتها المحدد ، بحيث لا يرهق وال واحد من الرعية بمطالب الجند[18] .

هــذا ويرتبط الحــديث عن عنــاصر الجيش ، بالحــديث عن معسكرات تلك العناصر ، والثكنات التى أقامت فيها ، ونأخذ الآن فى بيــان ذلك .

« القاهرة » معسكرا للجيش الفاطمى :

استقرت الجيوش الفاطمية الوافدة لفتح مصر ، وفكر القائد « جوهر » — أول ما فكر — فى تأسيس حاضرة جديدة للبلاد ، تكون مقرا للحكومة ، وموطنا لدواوين الدولة ، ومعسكرا لجيوشها .

ولم يكن فعل القائد الفاطمى بدعا فى هــذا الصدد ، فقد كانت تلك قاعدة أو شبــيئا مألوفا منذ أتم « عمرو بن العاص » فتح مصر أيام الخليفة الثانى « عمر بن الخطاب » وأنشأ بها مدينة « الفسطاط » .

(١٨) انظر : ناصر خسرو : الرحلة ص ٥٢ وما بعدها ، القاهرة سنة ١٩٤٥ م .

وجاء من بعده « صالح بن علي العباسي » الذي تولى على مصر سنة ١٣٣ هـ ، فاشترك مع « أبي عون » في تأسيس مدينة «العسكر» ، واقام من بعدهما « أحمد بن طولون » الذي تولى مصر سنة ٢٦٦ هـ مدينـة « القطائع » .

ثم جـاء « جوهر الصقلي » ووضع أسـاس مدينته الكبرى « القاهرة » في ١٨ شـعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وكان هدفه الأول من بناء تلك المدينة ، أن تكون معسكرا للجنود ، وحصنا لقواته الحربية[١٩] .

وقد نزل « جوهر » بجنوده بحري « الفسطاط » في المنطقـة التي فيها الان الجامع الأزهر وبيت القاضي وخان الخليلي وبين القصرين وما جاور ذلك من الأماكن بين الجبل والخليج[٢٠] ، ووضع أسـاس « القاهرة » في تلك المنطقة ، وأحاط هـذه المدينة الجديدة وقصر الخليفه ـ الذي وضع أساسه في نفس الليلة ـ بسور وسمى المنطقة المسورة « بالمنصورية » نسـبة الى « المنصور » الخليفة الفاطمي الثالث ، الى أن قدم « المعز لدين الله » سنة ٣٦٢ هـ فغير اسمها الى « القاهرة »[٢١] .

وكانت المدينة الجديدة تسمى كذلك وقت انشائها بالمعقل والحصن والطابية ، وكانت مساحتها بما فيهـا من ميادين وحارات ومبـان ٣٤٠ فدانا[٢٢] .

وكان هدف « جوهر » من اختطاط هـذه المدينة ، أن تكون ـ كما قلنا ـ حصنا للفسـطاط من جهتها البحرية ، يحميها من أعدائها

---

(١٩) انظر : المقريزي : الخطط مجلد ٢ جـ ١ ص ١٧٥ .

(٢٠) انظر : علي مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٤ . طبعة زارة الثقافة المصورة عن طبعة دار الكتب ـ القاهرة سنة ١٩٦٠ .

(٢١) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤١ .

(٢٢) انظر : علي مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٦ ؛ الشيال : تاريخ مصر الاسلامية جـ ١ ص ٢٢٠ ، القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

وخصومها القرامطة الذين كانت بأيديهم البلاد الشـامية وغيرها ، فقد كانت مدينة عسكرية ادارية أى مقرا للادارة والجيش ، وليست موضعا معدا لسكنى الشعب فيه ، ومن هنا ظلت فترة طويلة لا تضم بين أسوارها سوى قصور الخلفاء ودواوين الحكومة ، وخزائن الأموال والأسلحة ، ومساكن الأمراء ، ومن اليهم ممن كان فى الجيش الفاطمى، وان نمت بعد جيل واحـد وتداخلت مع الفسطاط وأصبحتا مدينـة واحـدة من أعظم مدن العصور الوسطى(٢٣) .

بعد أن قدمنا هـذه الفكرة عن « القاهرة » نفسها ، والهدف من انشائها(٢٤) آن لنا أن نعرف بكل معسكر من معسكراتها على حدة ، محاولين تحديد موقعه ، والفرقة التى أنشـأته ، وقائدها ، وجهدها فى خدمة الدولة .

وقد شهدت القاهرة انشـاء ثكنات أو حارات للجنود فى فترات متعددة وفى عهود كل من الخلفاء الفاطميين ، وسنتحدث عن كل حارة من هـذه الحارات كل على حـدة .

حارات القاهرة والفرق التى تسكنها

لا يقصد « بالحارة » الطريق المعد لمرور الناس فيه كما نعرف الآن ، وانما يقصد بها مجموعة المساكن التى يقيم بها قوم معينون ، تقاربت منازلهم وتدانت محلاتهم ، فهى ترادف ما نريده اليوم بالحى أو القسم من مدينة « ما » ، وتكون كل منها غنية بالمساجد والمدارس

---

(٢٣) انظر : عنـان : مصر الاسـلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٢٠ ، ص ٢٢ ، القاهرة سنة ١٩٣١ م .

وعلى مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٦ .

(٢٤) لمعلومات أكثر تفصـيلا عن القاهرة ، وسبب تسـميتها بذلك الاسم ، وتاريخ نشأتها ، ارجع الى : الشيال : تاريخ مصر الاسـلامية جـ ١ ص ٢١٥ وما بعدها .

والأسواق • وفيهـا « البزازين والعطارين » والخزازين وغيرهم ، والولاة لا يحكمون عليها ولا يحكم فيهـا الا الأزمة ونوابهم »(٢٥) •

وكل حارة أو خطة من هـذه الخطط كانت عبارة عن معسـكر للطائفة التى تنزل فيهـا ، ومن مجموعها تكونت معسكرات الجيش الفاطمى •

ذلك أن الدولة كانت تعتبر أفراد القبائل النازلة بتلك الحارات جنودها ، عليهم تعتمد فى صد الأعـداء وفى محاربة الخصـوم ، وفى الفتوحات العسكرية ، وعلى هؤلاء الأجناد السمع والطاعة لكل ما يصدر عن الدولة من أوامر ، وما ينشأ عنها من مراسيم •

وحينما نزل « جوهر » فى المنطقة التى أخذت اسم « القاهرة » فيما بعد وأناخ فيهـا عساكره ، اختطت كل قبيلة من القبائل المكونة لجيشه حارة عرفت بها ، وأقامت فيهـا ، ونسبت اليها •

حارة زويلـــة :

هى احدى حارات « القاهرة » الكبرى ، وقد أخذت هذا الاسم ، لأن القائد « جوهر الصقلى » لمـا اختط المدينة الجديدة ، أنزل أهل زويلة بهذا المكان فسمى باسمهم ، وهـذه الحارة من أكبر معسكرات القاهرة ، وموضعها اليوم المنطقة التى تحد من الشمال بشارع الخرنفش ومن الغرب بشارع زويلة ودرب الكتـاب ، ومن الجنـوب بشارع الصقالبة ، ومن الشرق بحارة اليهود ، وحارة خميس ويتخللها عـدة شوارع وحارات(٢٦) •

---

(٢٥) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤٣٤ ، وتعليق على النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤٢ •

(٢٦) انظر تعليق النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٥٧ ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٥٦١ جـ ٣ ص ٥٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٤٩ •

وقد أسس هؤلاء البابين المعروفين ببابى زويلة ، وقد زالا وبنى « بدر الجمالى » وزير المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) مكانهما باب زويلة الكبير ، الذى لا يزال حتى اليوم ، والذى يطلق عليه « بوابة المتولى » لأن متولى حبسة القاهرة كان يجلس فى مداخله[٢٧] .

وهناك شارع اسمه « باب زويلة » يبدأ ببوابة المتولى ، وينتهى بشارع « تحت الربع » ، وقد أطلق عليه ذلك الاسم ، لأن باب زويلة فى أوله ، وكان ذلك الباب عند بناء « جوهر » « للقاهرة » بين متلاصقين ، دخل الخليفة « المعز » مصر من أحدهما فتيامن الناس به ، وهجروا الآخر وتشاءموا منه ، وقد انمحى تماما ، بينما بقى من الباب الذى دخل منه الخليفة عقد ويعرف بباب « القوس »[٢٨] .

حارة الباطلية :

تأسست هذه الحارة أيام الخليفة « المعز لدين الله » (٣٤١ — ٣٦٥ هـ) ، وتنسب الى طائفة يقال لها الباطلية .

وسبب تسميتها بهذا الاسم هو أن الخليفة « المعز » لما حضر الى « القاهرة » وقسم العطاء فى الناس ، جاء هؤلاء يطلبون عطاءا ، فقيل لهم : فرغ ما كان حاضرا فقالوا رحنا نحن فى الباطل فسموا الباطلية وسكنوا هذه الحارة فعرفت بهم[٢٩] .

---

(٢٧) انظر : شرح لمعة من أخبار المعز لمجهول وحة ٦ ، ٧ مصور بدار الكتب وجامعة القاهرة ، وكذلك المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤٠٥ .

(٢٨) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٤٩ ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ٥٠ .

(٢٩) انظر : شرح لمعة من أخبار المعز لدين الله لمجهول لوحة/ ٧ ، ومختصر تاريخ مصر لمجهول خلف ورقة ٤٦ ، والمقريزى : المخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤١٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٣ .

ويمكن الاسترشاد بحارة الباطلية فى قسم الدرب الأحمر ــ جنوب شرقى الجامع الأزهر ــ لمعرفة موقع تلك الحارة(٣٠) •

حارة الــروم :

اختط هــذه الحارة الروم الذين وصلوا صحبة القائد « جوهر » عند بنائه القاهرة فنسبت اليهم(٣١) •

وكان للروم حارتان : حارة الروم البرانية ، وحارة الروم الجوانية بالقرب من باب النصر ، وقــد استثقلت الألســنة التعبير بالبرانية والجوانية ، فاختصروا التســمية الى حارة الروم وحارة الجوانية ، ويقول الوراقون وأصحاب الأقلام ، حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا المعروفة بالجوانية(٣١) •

هــذا ويذكر « المقريزى » نقلا عن « المسبحى » أن طائفــة الجوانية كانت ضمن الطوائف التى شملها أمان الحاكم سنة ٣٩٠ هـ(٣٢) ومعنى ذلك أنها كانت من طوائف العسكر المكونة للجيش الفاطمى •

واذا صح هــذا فانه يعنى أن هذه الفرقة من الجيش لم تسكن تلك الحارة ، وانما أقام بها الروم •

وقد أمر الخليفة « الحاكم » بهدم هــذه الحارة فهدمت سنة ٣٩٩ هـ ، ثم أعيد بناؤها ، ولا تزال توجد ــ حتى اليوم ــ حارتان تحملان نفس الاسم ، احداهما فى قسم الدرب الأحمر وتسمى حارة الروم ، والأخرى حارة الجوانية ، بشارع الجمالية بالقرب من باب النصر(٣٣) •

---

(٣٠) انظر : تعليق بالنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤١ •

(٣١) انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤٢ •

(٣٢) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤٢١ •

(٣٣) انظر : تعليق بالنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤٢ •

حارة كتامة :

معروف عن قبيلة « كتامة » ، انها القبيلة التى ناصرت الفاطميين ، وأقامت دولتهم فى بلاد المغرب .

وقد قدم بعض الكتاميين مع القائد « جوهر » ضمن الجيش الذى جاء لفتح مصر ، كما جاء آخرون بصحبة الخليفة « المعز » عندما انتقل من بلاد المغرب الى القاهرة ، وقرر اتخاذها حاضرة لدولته سنة ٣٦٧ هـ .

وقد أقام الكتاميون الذين قدموا مع « جوهر والمعز » منازلهم فى موضع هذه الحارة ، فاستمدت اسمها منهم ، وكانت تجاور حارة الباطلية وتقع بينها وبين البرقية(٣٤) .

وموقع هذه الحارة الآن يتمثل فى المنطقة التى يتوسطها حارة الأزهرى وعطفة الدوادارى ، وما يتفرع عنها من الدروب والعطف جنوب شرقى الجامع الأزهر(٣٥) .

حارة البرقية :

تنسب هذه الحارة الى احدى طوائف العسكر الفاطمى التى وفدت الى مصر مع الخليفة « المعز لدين الله » وطائفة البرقية هذه ، جماعة كبيرة من أهل « برقة » صحبوا ذلك الخليفة عند مجيئه الى مصر(٣٥) ، وموضع هذه الحارة اليوم فى المنطقة التى يخترقها شارع الدراسة(٣٦) .

---

(٣٤) انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٩ .
(٣٥) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٤ ، المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤١٨ .
(٣٦) تعليق بالنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤٧ .

وينبغى الاشارة الى أن طائفة البرقية هذه ، غير الطائفة التى حملت نفس الاسم أواخر الدولة الفاطمية ، فى أيام الوزير « الصالح طلائع بن رزيك » .

حارة الحمـزيين :

من بين العسكر الذى جاء مع الجيش الفاتح ، قوة كانت تسمى بالحمزيين لأن أفرادها ينسبون الى قرية يقال لها « حمزة » من البلاد الافريقية ، ويغلب على الظن أن أهل تلك القرية ، نزلوا فى تلك الحارة وأقاموا بها فنسبت اليهم ، شأنهم فى ذلك شأن من أطلقت أسماؤهم على المواضع التى نزلوا فيهـا(٣٧) .

حارة المصـامدة :

المصامدة طائفة من العساكر ، قدموا من المغرب مع الخليفـة « المعز لدين الله »(٣٨) وقد خطت هـذه الحارة وخصصت لسكناهم فنسبت اليهم .

وهناك جماعة من المصامدة ، شكلوا جزءا هاما فى الجيش الفاطمى الفاتح لمصر ، وهؤلاء عرفوا « ببنى سوس » ، اتخذوا موطنا لهم فى حارة أعطوها اسمهم ، وأقاموا بها منذ الفتح الفاطمى لمصر(٣٩) .

خط قصر ابن عمـار :

هـذا الخط جزء من حارات كتامة ، وقد أخذ ذلك الاسم نسـبة الى واحد من أبرز القواد الكتاميين الذين لعبوا دورا هاما فى سياسة الدولة الفاطمية ، وفى صنع مجرى الحوادث فيها على عهد أكثر من خليفة من خلفائها ، ويحسن هنا أن نوجز ترجمة له :

---

(٣٧) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٢٦ .

(٣٨) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٩ .

(٣٩) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٢٦ .

ابن عمـــار :

هـو أبو محمد الحسـين بن عمار واحـد من كبار شـيوخ كتـامة ، كان ذا شـأن كبير على عهـد الخليفـة العزيز بالله ، ولمـا تولى الحـاكم سـنة ٣٨٦ هـ الخلافة ، تجمـع الكتاميـون وخرجوا فى شـبه مظاهرة مطـالبين بأن يكـون « ابن عمـار » هـو الواسـطة بين الخليفـة والرعيـة ، فأجيبت مطـالبهم ، وخلع عليه للوساطة ، ولقب بأمين الدولة ، وكان بذلك أول من تلقب فى دولة الفاطميين ، وارتفع شأن ذلك الرجل ، واتخذ جميع مظاهر التشريف والتكريم التى اهتمت بها تلك الدولة وأولتها كل عناية وتقدير .

وكان « ابن عمار » يميل فى سياسته الى بنى جلدته من كتامة ، فقربهم وأنفق عليهم الأمـوال ، وقطع أكثر ما كان يعطى للأتراك وغـيرهم .

واستمر الرجل عالى المكانة ، مهيمنا على كل شـئون الدولة ، الى أن حدثت فتنة بين المغاربة والأتراك ، حينئذ لزم داره ، واعتزل الناس بأمر من الخلافة .

وفى سنة ٣٩٠ هـ كمن له جماعة من الأتراك ، وقتلوه واحتزوا رأسه ورفعوها الى الخليفة الحاكم(٤٠) .

وهكذا بدأت أول نتيجة سـيئة من النتائج التى تنشأ عن تعدد أجناس عسكر الدولة ، تظهر فى عهد ذلك الرجل ، ويكون هو ضحية الاختلاف والتنافس والحسـد ، الذى يسـببه تنوع أجناس فرق الجيش فى دولة من الدول .

وقد كان الخليفة الحاكم (٣٨٧ — ٤١١ هـ) وراء المؤامرة التى راح ضحيتها « ابن عمار » ، ومعنى هـذا أنه قد جنح الى جانب

---

(٤٠) عن ترجمة ابن عمار مفصلة انظر :
المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤٥٤ وما بعدها ، الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٦ ، ٢٧ ، تحقيق عبد الله مخلص طبع القاهرة سنة ١٩٢٤ م .

الأتراك والمشارقة ضد الكتامين ، ولهذا ليس عجبيا أن يعود نجم الكتاميين الى الأفول مرة ثانية بعد أن لمع فى أول عهد ذلك الخليفة .

حارة المحمـودية :

طائفة من طوائف العسكر الفاطمى بمصر ، لم يعرف عنها أكثر من أنهـا قدمت الى مصر أيام الخليفــة الفاطمى « العزيز بالله » (٣٦٥ ــ ٣٨٦ هـ) ، وانخرطت فى سلك جيشه ، وأقامت فى الحارة المشار اليها ، ومنحتها اسمها ، وتشـغل اليوم المنطقة التى يتوسطها شارع النبوية بقسم الدرب الأحمر(٤١) .

الحارة الوزيرية :

تعتبر هـذه الحارة معسكرا لطائفة من طوائف العسكر الفاطمى يقال لهـا « الوزيرية » ، وهى احـدى الحارات الكبرى فى عهـد الدولة الفاطميـة .

وكانت تقع فى المنطقة التى تحدها اليوم سكة المحمدية ، وشارع الوزير الصاحب شـمالا ، وشارع درب سـعادة غربا ، وتحد من الجنوب بالجزء الغربى من سكة النبوية ، والجزء الشـمالى من حارة الجودرية ويحدها شرقا شارع بيبرس(٤٢) .

وقد مر بنا أن طائفة « الوزرية » حملت ذلك الاسم ، نسبة الى الوزير « يعقوب بن يوسف بن كلس » ، الذى شكل هـذه الفرقة

---

(٤١) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٣ ، وكذلك : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤٠٦ ، وتعليق بالنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣٨ .

(٤٢) انظر : تعليق بالنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٥١ ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ١١ .

لتكون بمثابة حرس خاص له[٤٣] ، ونريد الآن أن نعرف بذلك الوزير ، ونوجز دوره فى خدمة الدولة الفاطمية .

ابن كلس :

هو أبو الفرج يعقوب بن كلس ، كان يهوديا حضر الى مصر زمن كافور الأخشيدي الذى تولى فى مصر سنة ٣٥٥ هـ ، واخلص فى خدمته ، حتى أعجب به « كافور » ، وتمنى لو كان مسلما ليوليه وزارته ، فأشهر الرجل اسلامه ، وتولى وزارة مصر فترة ثم خرج من البلاد المصرية فارا الى بلاد المغرب سنة ٣٥٧ هـ .

وهناك التقى بالخليفة الفاطمى « المعز » (٣٤١ — ٣٦٥ هـ) ، وخدم فى حضرته ، وكشف له عيوب مصر ومناحى ضعفها ، ثم استمر يلازم الخليفة الفاطمى فى بلاد المغرب حتى جاء الى القاهرة سنة ٣٦٧ هـ ، فصحبه اليها ، وتقلد له الخراج وجميع وجوه الأموال وغيرها بالاشتراك مع عسلاج بن الحسن وقد حققا نجاحا فى مهمتهما[٤٤] .

ولما مات المعز ، وتولى العزيز الخلافة فى ربيع أول سنة ٣٦٥ هـ ، فوض « ليعقوب » كل أموره ، ثم عاد واعتقله سنة ٣٧٣ هـ ، لأنه اتهمه بوضع السم للقائد « الفتكين التركى » ، بيد أن الجانب المالى بصفة خاصة ، ساء بسبب غياب ذلك الرجل عن التدبير ، فأخرجه « العزيز » من معتقله سنة ٣٧٤ هـ ، وأعاد له كل سلطاته .

وقد كرمته الخلافة أكثر من ذلك ، فوهبته خمسمائة غلام من الناشئة وألفا من المغاربة ، وجعلت له مطلق السلطان عليهم ، فكان هؤلاء نواة طائفة الوزيرية .

وقد ارتفعت منزلة ذلك الرجل ، وساس بنجاح شئون كافة النواحى ، مالية وقضائية وعسكرية ، وانتقلت الى داره عدة دواوين

---

(٤٣) انظر ما سبق ص ١٩٠ من هذا البحث

(٤٤) انظر : الشيال : تاريخ مصر الاسلامية جـ ١ ص ٢٣٤ .

منها ديوان الجيش • وبالجملة أضحت دار ذلك الوزير ، مقرا للحكومة ، وموطنا لدواوينها ، وساحة للقضاء ، وجامعة لتلقى العلوم والتزود بالثقافات ، وموئلا للقاصدين وذوى الحاجات •

واستمر الرجل رفيع الشأن الى أن أدركته منيته فى ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ ، فأكرمه الخليفة العزيز بعد مماته ، ويكفى أن نسمع كلمة الخليفة « وأسفى عليك يا وزير ، والله لو قدرت أن أفديك بجميع ما أملك لفعلت » لنتعرف مدى حزنه وألمه لوفاة ابن كلس •

وكان عدد طائفة « الوزيرية » قد ارتفع الى أربعة آلاف عند وفاة ابن كلس ، استمر الخليفة يجرى عليهم كل ما كان ينفق فى حياة الوزير تكريما له(٤٥) •

حارة الديــــلم :

أخذت تلك الحارة ذلك الاسم ، لأنها كانت موطنا للعساكر الديالمة الذين وفدوا الى مصر مع « الفتكين التركى » ، عندما حضر الى البلاد على رأس جماعة الأتراك والديالمة سنة ٣٦٨ هـ (٤٦) •

وقد كان فى صحبة القائد التركى عندما فر من « بغداد » حوالى أربعمائة من الأتراك ، لحق بهم جمع كثير ما بين ترك وديلم •

وقــد نزل أصحابه من الأتراك فى الموضــع المعروف بدرب الأتراك ، ونزل أصحابه من الديلم الى جانبه ، كل جنس مع جنسه ، فسميت تلك حارة الأتراك ، والثانية حارة الديلم(٤٧) •

---

(٤٥) عن ترجمة ابن كلس انظر :
المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤٠٧ وما بعدها ، الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة : من ص ١٩ الى ص ٢٣ •

(٤٦) انظر : شرح لمعة من أخبار المعز لمجهول لوحة / ٤ ، ٥ • والقلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٤ •

(٤٧) مختصر تاريخ مصر لمجهول لوحـة / ٤٧

وبدخول الديالمة والأتراك فى الجيش الفاطمى ، بدأ يعرف تعدد الأجناس حيث سمح الخليفة « العزيز » بوجود هؤلاء المشارقة فيه ، الى جانب عنصر كتامة ومن معها من البربر والمغاربة ، وسـوف يظهر التنافس بين الطائفتين بمرور الأيام ، وسيكون نزاعهما — كما قدمنا — مشغلة الدولة ، يكلفها الكثير ، ويستنفذ جهدها ، ويساعد على انهيارها أخـيرا .

ولكن من هو « الفكتين » الذى رأس الطائفة المشرقية الجديدة والتى كونت عنصرا هاما فى الجيش الفاطمى ، ان الموقف يقتضينا تقديم تعريف به .

الفتـــكين :

هو « الفتكين » أبو منصـور التركى ، كان غلاما لمعز الدولة ابن بويه ، اشتهر بالشجاعة وترقى فى الخدم « ببغداد » .

وقـد حدث قتال بين الأتراك والديالـمة فاشترك فيه «الفكتين» واضطر بعده الى المسـير فى حوالى أربعمائة غلام من الأتراك ، ونزل « دمشق » أخيرا بدون قتال سـنة ٣٦٤ هـ ، فقد تصادف نزوله فى الوقت الذى كان العسـكر الفاطمى مشـغولا فيـه بحرب فى « طرابلس » ، وبعد فترة تمكن القائد التركى من « دمشق » تمكنا تاما ، وأقام فيها دعوة العباسيين .

ثم طلب من القرامطة الاشـتراك معه فى حرب الفاطميين ، فأجابوه لذلك وقاتل المتحالفون عدوهم فى مدينة « يافا » .

ولـما تولى الخلافة الفاطمية « العزيز بالله » ، أعد « جوهرا القائد » على رأس جيش كبير لقتال الفتكين والقرامطة ، ووقعت بين القوات الفاطمية وبين أعدائها اكثر من « أربعين وقعة فى مدة قريبة»(٤٨)

---

(٤٨) انظـر : شرح لمعة من أخبار المعز لدين الله لمجهول لوحة/٤

وبعد قتال عنيف انسحب « جوهر » الى « عسقلان » ، وأرسل الى الفتكين يطلب الصلح على مال ، فوافقه على ذلك ، وعلق السيف على بابه « عسقلان » وخرج « جوهر » وجنوده من تحت ذلك السيف وقصــدوا « القاهرة » .

بعد ذلك أعد « العزيز بالله » جيشــا قاده بنفســه ، وحمل معه توابيت آبائه كي تكون حافزا معنويا ، يدفع الجنود الى التفانى في القتال ، وقــد نزل الخليفة « الرملة » حيث قابل « الفتكين » على هــذه المدينة ، وتمكن من هزيمته فى ٢٥ محرم سنة ٣٦٨ هـ ، وقتل عددا من خيرة أصحابه ، وأسر كثيرين فيهم القائد التركى نفســه .

ثم أتى « العزيز » بالأسرى الى القاهرة ، واصطنع « الفتكين » وأحسن اليه للغاية ، وأنزله فى دار الأتراك ، وأفاض عليــه المنح والعطــايا .

وقــد جمع الخليفة أصحاب ذلك الرجل من ديالمــة وأتراك ، وولاه حجابته وأنزله هو ومن جاء معــه ، المعسكر الذي عرف فيما بعد بحارة « الديلم »(٤٩) .

وقــد استمر « الفتكين » رفيع المكانة الى أن توفى سنة ٣٧٢ هـ ، واتهم الوزير « يعقوب بن كلس » بسمه ، فاعتقله « العزيز » مدة ، ثم عفا عنه وأعاده الى كل سلطاته كما سبق أن ذكرنا(٥٠) .

حــارة الأتراك :

تقع هــذه الحارة فى الجهة المقابلة للجامع الأزهر ، وعرفت فيما بعد بدرب الأتراك وكانت موصلة لحارة الديلم ، ولذلك كان القدماء

(٤٩) شرح لمعة من اخبار النعز لمجهول لوحة / ٥
(٥٠) عن ترجمة مفصلة لالفتكين انظر ،
المقريزى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤١٢ وما بعدهــا .

يضيفون الحارتين الى بعض أحيانا فيقولون « حارة الديلم والأتراك » أو العكس •

وقــد عرفت تلك الحارة بهذا الاسم ، لأن القائد التركى لمـا تجمع لحرب « العزيز » كان أصحابه ورجال جيشـه ، خليطا من ترك وديلم وغيرهما ، وقــد انهزموا من الجيش الفاطمى كما ألمحنا آنفا ، ولمـا دخل « الفتكين » القاهرة نزل الديلم مع أصحابهم وبنى جنسهم ، وعسكروا فى « حارة الديلم » كذلك نزل « الفتكين » نفسـه وأصحابه موضع حارة الأتراك واتخذوه معسكرا لاقامتهم ، واستمد اسمه منهم•

وبرغم اختلاط الحارتين السابقتين ، ونفاذ كلتاهما الى الأخرى ، الا أن كل جنس من الديالمـة والترك كان يعيش مستقلا عن الآخر ، لاختلاف جنسيتهما ، والأصل الذى ينحدران عنه ، وان جمعت بينهما فكرة مشتركة هى مناصرة « الفتكين » والانخراط فى فرقة واحدة تحت قيادته[٥١] •

حــارة اليانســية :

اليانسية طائفة من طوائف الجيش الفاطمى ، وهم جماعة ينسبون الى أحــد خدام الخليفة « العزيز بالله » المســمى « بأبى الحسن يانس الصقلى » وتقع الحارة مسكن هــذه الطائفة خارج باب زويلة ، ولأنهم نزلوا بها ، عرفت بهم واستمدت اسمها منهم[٥٢] •

وهناك من المؤرخين من ينسب الطائفة المشار اليها الى «يانس» وزير الخليفـة الفاطمى « الحافظ » (٥٢٤ : ٥٤٤ هـ) وقــد تكفل المقريزى برد هــذه الرواية وشرح ما فيها من أوهام [٥٣] •

---

(٥١) انظـر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤١٥ •

(٥٢) انظـر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٢ ص ٤٢٦ • وشرح لمعة من أخبـار المعز لمجهول لوحـة / ١٢

(٥٣) انظر المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤٢٦ ـ ٤٠٠

حـارة قائد القـواد :

حين يطلق ذلك اللقب يكـون المراد به « الحسـين بن جوهر الصقلى » ، وقــد أقام بتلك الحارة فعرفت به • ويحسن بهذه المناسبة أن نقدم ترجمة موجزة لذلك القائد الفاطمى •

الحسـين بن جوهر :

هو حسـين بن جوهر بن عبد الله ، ابن فاتح مصر « جوهر الصقلى » ولمـا مات والده فى عهد الخليفة « العزيز » ، خلع عليه وجعله فى مرتبـة والده ومنحه اللقب المشـار اليه ، ثم لمـا تولى « الحاكم » الخلافة سنة ٣٨٦ هـ ، ظلت للرجل مكانته ، وأسند اليه بعد مقتله وزيره « برجوان » سنة ٣٩٠ هـ جميع سلطاته ، وجعل له مباشرة كل مسئولياته ، واصطفاه لرتبة الوزارة وان لم يطلق عليـه لقب وزيـر •

وقــد نجح قائد القواد فى ارضــاء الخليفة « الحاكم » ونجا من سـطوة سيفه وساس الناس بالحكمة والعقل فأينعت الدولة على أيامه ، وسادها الأمن والهدوء(٥٤) •

حـارة برجـوان :

تنسب هـذه الحارة الى الأستاذ أبى الفتوح البرجوان الخادم وزير الفاطميين على عهـد الحاكم •

وموضعها الآن المنطقة التى يتوسـطها شارع وحارة برجوان ، وما يتفرع عنها من الأزقة والعطف فى قسم الجمالية(٥٥) •

وكان « برجوان » هـذا واحد من الخصيان الذين تربوا فى دار الخليفة العزيز بالله ، ولمـا توفى ذلك الخليفة ، وتولى الحـاكم

---

(٥٤) انظر نفس المرجع والجزء ص ٤٢٢ وما بعدهـا • والصيرفى: الاشـارة الى من نال الوزارة ص ٢٨

(٥٥) تعليق بالنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤٨

الخلافة ، وزر له « الحسن بن عمار » كما قدمنا ، لكن ذلك لم يقابل بارتياح عند « برجوان » فاختص بمجموعة من العساكر ، واستمر يؤلب على « ابن عمار » حتى نجح فى اقصائه ، وتولى هو الوساطة سنة ٣٨٧ هـ ، وساس البلاد سياسة حكيمة ، فمنع الغلمان من التعرض للكتاميين والمغاربة ، ومنع الناس من التجمهر .

وعلت مكانته حتى وصل الى القمة ، ثم بدأ ينقلب الى الضد ، فقصر فى مهامه ، وشغلته ملذاته ، واستبد وأخذ فى امضاء مشيئته بدون مشورة الحاكم ، وذلك جعل الخليفة يغضب عليه ويدبر لمقتله الى أن تم له ذلك فى ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ(٥٦) .

حارة الجودرية :

كانت الجودرية جماعة من العسكر الفاطمى ، اختطوا هذه الحارة فى المنطقة التى يخترقها اليوم شارع الجودرية وفروعه ، وحارة الجودرية الكبيرة والصغيرة وعطفة الجودرية(٥٧) ، وكان عدد هذه الطائفة أربعمائة سكنوا هذه الحارة فعرفت بهم .

ويغلب على الظن أن هذا المعسكر يرجع وجوده الى عهد « جوهر » ، ذلك لأن طائفة « الجودرية » تنسب الى « جودر » الذى خدم عبد الله المهدى ومن بعده من الخلفاء فى بلاد المغرب ومصر حتى عصر « المعز » ، وكان بمثابة رئيس وزراء لهم ، وقد أنزله « جوهر » مع الطائفة التى تنسب اليه بهذه المحلة وأسكنهم اياها فنسبت اليهم(٥٨)

---

(٥٦) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٠٤ وما بعدها .

(٥٧) تعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥١

(٥٨) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٣ ، ومختصر تاريخ مصر لمجهول خلف لوحة / ٥٤٦ هذا وجودر هذا اسمه الصحيح « جوذر » بالذال المعجمة ، وقد تولى كتابة سيرته وعلاقته بالخلفاء الفاطميين ، مع توقيع هؤلاء الخلفاء ، تلميذه ابو على منصور الجوذرى ، وقد نشر هذه السيرة فى القاهرة الأستاذان الدكتوران محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة ، وانظر ص ٢ من تلك السيرة لتصحيح الاسم .

حـارة العطوفيـة :

عرفت هـذه الخطة بطائفة من طوائف العسكر على عهد الدولة الفاطمية ، وقـد أقامت بذلك المكان وأعطته اسـمها[٥٩] وكانت من أجل مساكن القاهرة ويدل على موقع هـذه الحارة المنطقة التى يتوسطها حارة العطوف الآن بالقـرب من باب النصر[٦٠] .

وانما عرفت هـذه الطائفة بذلك الاسم نسبة الى « عطوف » أحد خـدام القصر الذين خصصوا لخدمة ست الملك أخت الحاكم ، وكان عبدا أسود قتله الخليفة « الحاكم » سنة ٤٠١ هـ[٦١] .

هـذا ولمـا وجل الناس من الحاكم ، وزاد خوفهم منه لكثرة من كان يقتلهم ، أراد أن يطمئن الشعب بعد تضرعه اليه ، فكتب فى ربيع أول سنة ٣٩٠ هـ ، أمانات لكل طائفة .

ويمكن الاسترشاد بهذه الأمانات فى معرفة أجناس العسكر التى وجدت على عهد ذلك الخليفة ، فقد شـمل أمانه الأتراك الخاصـة وزمامهم وأمراءهم ، والغلمان والمماليك وصـبيان الدار وأصـحاب الاقطاعات والمرتزقة والغلمان الحاكمية ، كما كتب سجلات بأمانات لكل من الديلم والغلمان الشرابية ، والغلمان الريحانيـة ، والغلمان البشـارية ، والغلمـان العجـم ، والروم ، والزويلين ، والبرقين ، والعطوفيين ، وللجودرية ، وللمظفرية ، وللصنهاجيين ، ولعبيد الشراء الحسينية ، والميمونية ، والفرحيـة ...... وغير هؤلاء[٦٢] .

---

(٥٩) مختصر تاريخ مصر لمجهول لوحة/٤٧ .

(٦٠) تعليق بالنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٥٠ ، وهـذا ويلاحظ ان جميع التعليقات فى النجوم الزاهرة ، والمشـار اليها فيما سبق ، من وضع الأستاذ محمد رمزى .

(٦١) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤٢١

(٦٢) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٤٣٣

وقــد بدأ اسم عبيد الشراء يظهر بصــورة واضحة وكعنصر مكون الجيش فى عهد ذلك الخليفة كما تبين تلك السجلات ، وان كان شــأن هؤلاء سيظهر فيما بعد ، وسيوجهون شئون الدولة ، ويتحكمون فيها ، وستقوم الحروب بين الأتراك وبينهم فى فترة تالية أيام الخليفة « المستنصر » (٤٢٧ : ٤٨٧ هـ) وســوف تتكلف الدولة من جــراء ذلك شــيئا كثيرا .

الفصل السابع

النظم والأسـلحة فى الجيش الفاطمى

مراتب رجـال الجيش فى الدولة الفاطمية

كان جيش الفاطميين مقسما الى مراتب ثلاث :

الأولى : مرتبـة الأمراء ، وهؤلاء يتفرعون بدورهم الى أنواع ثلاثـة :

١ ــ مرتبة الأمراء المطوقين : وهم الذين يخلع عليهم أطواق الذهب فى أعناقهـم ويشـبهون مقدمى الألـوف فى عصر الدولة المملوكية[١] ، وكان يقال لهم فى عهد تلك الدولة : مقدم ألف ، أو أمير مائة ألف ، ويقصـد بذلك وظيفة واحدة يخدم صاحبها مائة مملوك ، وفى نفس الوقت يكون مقدما وقت الحروب على ألف من أجنـاد الحلقـة .

وصاحب هـذه المرتبة يتمتع بأعلى مكانة فى الدولة ، ومن حقه أن يتولى جميع المناصب العليا فيها .

٢ ــ مرتبـة أمراء القضب : وهم الذين يخرجون فى المواكب بقضب من فضـة ، يخرجها لهم الخليفة من خزينة « التجمل » وهم بمثابة أمراء الطبلخاناه فى عهد المماليك[١] ، وكان لكل منهم الحق فى أن يخدمه من أربعين الى ثمانين فارسـا[٢] .

٣ ــ أدوان الأمراء : وهم الذين لم يؤهلوا لحمـل القضب ، ويشبهون أمراء العشرات والخمسات فى زمن القلقشندى[١] .

وأكثر هؤلاء لذلك العهد من أولاد الأمراء المتوفين . يحظى الواحد منهم بذلك الفضل تقديرا لجهود سـلفه .

وهـذا التقسيم أجنبى الأصل ، وقد استمر معمولا به بعـد الدولة الفاطمية[٢] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٦ .

(٢) انظر تعليق زيادة على السلوك للمقريزى ج ١ قسم أول ص ٢٣٩ القاهرة ١٩٣٤ م .

ففى مور Morier أن فصيلة من التركمان بشمالى فارس كانت تستعد للغزو ، فدعى رئيسها أصحاب العشرات وأصحاب المئات ، ومما تجدر ملاحظته أن هذا التقسيم العشرى مذكور فى « مور » Morier فى وصف بعض رتب الجيش الفارسى فى القرن التاسع عشر مثل : Min Gashi ومعناها مقدم ألف ، on Bashi ومعناها مقدم عشرة Penja Bashi ومعناها رئيس خمسين ، وهذا التقسيم موجود أيضا فى الجيش العثمانى ، والجيش المصرى(٣) .

المرتبة الثانية من مراتب الجيش الفاطمى :

مرتبة خواص الخليفة ، أو حرسه الخاص الذى يشبه الى حد كبير الحرس الجمهورى الآن ، وهم أنواع ثلاثة :

١ ــ **طائفة صبيان الحجر** : أنشأ الخليفة « المعز لدين الله » سبع حجر ، وجعلها مكانا لفرقة من الجيش الفاطمى تتكون من الشباب والفتيان الذين يختارون من بين وجهاء الناس ، وتتوافر فيهم الشهامة والرجولة وحسن الخلق واعتدال القامة .

وعلى هؤلاء الشباب خدمة الخلافة بالقصر ، فمهمتهم أشبه ما تكون بمهمة الحرس الجمهورى فى الوقت الحاضر .

وكان يتم تدريبهم بحيث يكونون على أهبة الاستعداد فى كل لحظة ، واذا ما نودى الواحد منهم لبى النداء فى الحال وخرج دون تأخير ، وكان يتوافر لديهم السلاح وكل ما هم فى حاجة اليه .

وقد وصل عدد الطائفة الى خمسة آلاف نسمة ، من بينهم كان يختار القواد والأمراء الذين أثبتوا شهامة وشجاعة .

---

(٣) انظر هامش زيادة على السلوك للمقريزى ج ١ قسم أول ص ٢٣٩ .

وكل حجرة من حجر هـذه الطائفة كان لها اسم يخصها وتعرف به ، كالفتح والمنصورة والجديدة وما الى ذلك . كما أنشىء لخدمة هـذه الطائفة ، اصطبل يقابل حجرهم ويجاور باب الفتوح ، وقـد استمرت مبانى هـذه الحجر قائمة الى ما بعد سـنة ٧٠٠ هـ ، حيث عمرهـا الناس بالدور وغيرهـا .

وكان يشرف على هـذه الحجر بعض الأستاذين ، وهم يضاهون من عرفوا بالمماليك السلطانية فى عهد الدولة المملوكية الا أن عدتهم كانت أوفر ومطالبهم كانت مجابة(٤) ، ويظهر أن هـذه الحجر كانت مستخدمة لهذه المهمة فى عهـد « المعز » (٣٤١ : ٣٦٥ هـ) ثم هجرت ولم يهتم بتربية الناشئة فيها ، وذلك أنه لم يسمع بها بعد عصره ، الى أن جاء « الأفضل بن بدر الجمالى » ، فاختار ثلثمائة من أولاد الأجناد ، وقسمهم فى الحجر ، فجعل فى كل حجرة مائة ، وجعل لهم زماما ونقيبا ، وجعل على الكل أميرا يقال له « الموفق » ، وأمدهم بكل ما يحتاجون اليه من سـلاح وغيره ، وجعلهم حرسـه الخاص ، وكان اعتماده عليهم فى الملمات(٥) .

٢ ـ **صبيان الخاص** : وهم عبارة عن أولاد الأمراء والعساكر وعبيد الدولة الذين يقومون بالخدمة الخاصة بالخليفة ، وكان التدريب على الفروسية من أهم مقوماتهم ، كما كانوا يقيمون فى مساكن خاصة بهم ، وقد وصلت عدتهم الى حوالى خمسمائة ، وقد تدخلوا فى الأحداث السياسـية فى آخر هـذه الدولة ، فكان ذلك سببا فى انكسـار شوكتهم وضعفهم(٦) .

---

(٤) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٢ ص ٣١٠ وما بعدها ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٧ ، والخطط التوفيقية جـ ١ ص ٩ ، وتعليق الشيال على اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٧٦ .

(٥) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٢ ص ٣١١ ، ٣٤٢ ، وتعليق الشيال باتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٧٦ .

(٦) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٧ ، ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم بمصر جـ ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ القاهرة سنة ١٩٥٥ م مشرفة : نظم الحكم ص ١٠٩ .

٣ ــ **الأســاتذة :** كان فى البلاط الفاطمى ــ شــأنه فى ذلك شأن غيره من الدول فى العصور الوسطى ــ فرقة من العبيد ، بيض وســود ، خصيان وغير خصيان وأغلبها من أصــل أجنبى ، تحمل لقب أســتاذين •

وكان هؤلاء نوعين : محنكون ، وهم الذين يمررون طرف العمامة من تحت الحنك لتصعد من الجهة المقابلة ، وتلف من جديد حول الرأس وكان لهؤلاء الحق فى التلقب بلقب أمير ، وغير محنكين : وهم أقل درجــة من المحنكين ، ويعملون فى وظائف البلاط وأعمال الخــدمة العــامة(٧) •

وكان المحنكون من الأساتذة هم أقرب الناس الى الخليفــة ، وهم خاصــته الذين يطلعون على أسراره ، ويفضى اليهم خباياه ، ولهذا كانت منزلتهم فى الدولة عالية ومكانتهم رفيعة ، وكان عددهم يزيد على ألف رجل •

وكان يعين من بينهم ، متولى شــد التاج ، وصاحب المجلس ، وزم الأقارب ومتولى زم الرجال ، وكان راتب الواحد منهم مائة دينار فى كل شهر ، وكانت مهمتهم أشبه ما تكون بمهمة الخدم الخصيان الذين عرفوا بالطواشــية أيام المماليك بمصر(٨) •

والحق أننا نعجب من اختيار الخليفــة لألف رجل يذيع عليهم أسراره ، فالسر لا تتوافر له طبيعته بعد اطلاع ألف من الناس عليه ، والأقرب الى التصديق أن يكون كل الأستاذين مقربين الى الخليفة ، لكنه كان يختــار من بينهم من يستشــيره فى أموره ، ويطلعه على أسراره ، فهم درجات تتسلسل فى الأهمية والمكانة ، وأعلاها هو الذى يحظى بمعرفة خبايا الخليفة ويطلع على مكنوناته •

---

(٧) انظر : ماجد : نظم الفاطميين جـ ٢ ص ١١ ، ١٢ •

(٨) انظر : مشرفة : نظم الحكم بمصر ص ١٠٧ ، ١٠٨ •

وكانت ملابس الأستاذين تختلف بحسب طبقتهم ، فالمحنكون لهم بدلة مذهبة اما غير المحنكين فليس لهم الحق الا فى بدلة حريرية[9] .

وكان من حق غير المحنك أن يترقى الى أستاذ محنك ، وكان التقليد يقضى حينئذ بأن يحمل اليه كل أستاذ محنك ، بدلة كاملة من ثيابه ، وسيفا وفرسا ويصبح بذلك لاحقا بهم فى يده مثل ما فى أيديهم[10] .

وبالاضافة الى الثلاث طوائف السابقة ، كان يوجد مجموعة من الجنود السود ، يبلغ عددهم خمسمائة رجل ، ومثلهم من الفرسان ، مهمتهم حراسة قصر الخليفة ، والطواف حول أسواره ليلا .

وكان على مقدمتهم — ويلقب «بسنان الدولة» — أن ينفخ البوق ويدق الطبول والصنوج بعد صلاة العشاء ، ثم يقفل باب القصر ، وتوضع سلسلة تمنع المرور بين القصرين : الكبير والصغير ، وترفع عندما يطلق البوق مرة ثانية وقت الفجر[11] .

المرتبة الثالثة من مراتب رجال الجيش الفاطمى هى طوائف الأجناد :

وكل طائفة م هـذه الطوائف كانت تنسب الى خليفة من الخلفاء ، كالحافظية والآمرية نسبة الى الخليفة الحافظ أو الآمر ، أو الى وزير من الوزراء : كالوزيرية ، نسبة الى الوزير يعقوب بن كلس ، والجيوشية والأفضلية ، نسبة الى الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى ، والى ابنه الأفضل ، وقد تنسب الطائفة الى قبيلة أو جنس كالأتراك والأكراد والمصامدة والديلم ، أو المستصنعين كالروم والفرنج والصقالبة ، أو السودان من عبيد الشراء ...

---

(٩) انظر : ماجد : نظم الفاطميين جـ ٢ ص ٥٥

(١٠) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٧ ، المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٢ ص ٢١٦ .

(١١) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥١٨ ، ماجد : نظم الفاطميين جـ ٢ ص ٣٠ .

وكل طائفة من الطوائف لها مقدمها الذى يتولى الامرة عليها ، ويحكم شأنها ، ويعهد اليه بكل أمورها[١٢] .

وفوق الطوائف السابق ذكرها ، وجد فى الجيش الفاطمى فرقة لها عملها الخاص بها ، وهى فرقة :

حملة السلاح أو الركابية أو صبيان الركاب : وهى فرقة فاطمية تزيد على ألفى رجل ، مهمتها حمل السلاح حول الخليفة فى مواكبه — عن يمينه وعن يساره — ولهذه الطائفة اثنا عشر مقدما أو قائدا — بخلاف مجموعة من النقباء تتولى دراسة أحوالهم — وكل مقدم من مقدمى تلك الفرقة يتقاضى راتبا قدره خمســون دينارا شــهريا ، أما الركابى نفسه فكانت تتفاوت مرتباته من خمسة دنانير الى عشرة شــهريا ، ولعل الكفـــاءة والأقدمية كان لهما دخل فى هذا التفاوت . وكان الكبار من هؤلاء يتولون الأعمال الكبرى ويكتسبون الشــهرة والصيت[١٣] .

---

(١٢) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٨ ، وكذلك : محمد كرد على : خطط الشام ج ٥ ص ٢٢ طبع دمشق سنة ١٩٢٧ ، وفيليب حتى : تاريخ العرب « مطول » ج ٣ ص ٧٤٢ الطبعة الثانية بيروت سنة ١٩٥٣ م .

(١٣) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة هامش ج ٤ ص ٧٩ ، مشرفة : نظم الحكم ص ١٠٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٠ ، ويدمج « ماجد » طائفة حملة السلاح مع صبيان الخاص ويعتبرهما طائفة واحـدة ، انظر : نظم الفاطميين ج ٢ ص ٢٩

ألقاب القواد فى الجيش الفاطمى

الاسفسهلار : هـذ اللقب من الألقاب الخاصة بأرباب السيوف ، ومعناه مقدم العسكر ، وهو مكون من شقين : أحدهما فارسى والآخر تركى ، ذلك أن « اسفه » تعنى فى الفارسية مقدم ، « وسلار » تعنى فى التركية العسكر ، وقد تستبدل الباء بالفاء فيقال « سباسلار » .

وقد ذكر « ابن فضل الله العمرى » أن هـذا اللقب اختص بأمراء الطبلخاناه فى عهـد الدولة المملوكية ، ثم أهمـل وترك استعماله بعـد ذلك[١٤] .

زعيم الجنود : لقب من ألقاب أرباب السيوف ، والمراد بزعيم الجنود ، المتكفل بهم والقائم بأمرهم ، ويجوز أن يكون الزعيم بمعنى السيد ، فيكون المعنى سيد الأعوان أو الأجناد ، ولكن الملائم للجندية وما تتطلبه من عناية هو المعنى الأول[١٥] .

زعيم الجيش : لقب من ألقاب أرباب السيوف كذلك ، والمقصود به المتكفل بأمر العسكر ، والراعى لشـئونهم[١٦] .

عين أوعون العساكر : العون هو الظهر والمعاون ، وذلك اللقب من ألقـاب ناظر الجيش[١٧] .

مدير الجيوش : لقب من ألقاب ناظر الجيش كذلك[١٧] .

الأمـير : فعيل بمعنى فاعل ، فهو اذاً أمير بمعنى آمر ، وهو زعيم الجيش أو الناحية ، ويلقب بذلك لأن قومه أو من له الامرة عليهم من الجنود يمتثلون أوامره .

---

(١٤) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٧ ، ص ٨ .
(١٥) انظر : المرجع نفسه ص ٥١ .
(١٦) انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٥١ .
(١٧) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٦٩ .

وقد عرف المسلمون هـذا اللقب ، وأطلقوه على قواد البعوث الاسلامية منذ عهد الخليفة الثانى « عمر بن الخطاب »[١٨] .

نقيب الجيش : النقيب فى اللغة هو الضمير ؟ وقد جاء بهذا المعنى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبـا » .

وصاحب ذلك اللقب هو المتكفل باحضار من يطلبهم السلطان من الأتراك والأجناد ، ومهمته تشبه مهمة ضابط الاتصال ، أو وزير الحربية فى بعض اختصاصاته فى عصرنا الحديث[١٩] .

الناظر : لقب من ينظر فى الأموال ، وبعد بيانا بالمنصرف والوارد منها ، ثم يرفع ذلك البيـان الى الخليفـة لامضاء ما يريده ورد ما سوى ذلك .

أما عن اشتقاقه فهو اما من النظر بمعنى الرؤية بالعين ، لأن صاحبه يدير نظره فيما ينظر فيـه ، واما من النظر بمعنى الفكر ، لأنه يفكر ويبحث عما فيه المصلحة ، فناظر الجيش هو المتحدث عن الجيش والعامل على ضبطه[٢٠] .

المقـر : بفتح الميم والقاف ، وهـذا اللقب مختص بكبـار الأمراء والأعيان ، وكتاب السر ومن اليهم ، كناظر الجيش ، وناظر الدولة ، وكاتب الدست ...[٢١] الخ .

---

(١٨) انظر : الريس : النظريات السياسية ص ١٠٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٤٩ .
(١٩) انظر : القلقشـندى جـ ٥ ص ٤٥٦
(٢٠) انظر : نفسه ص ٤٦٥ .
(٢١) انظر : نفسه ص ٤٩٤ .

الجنـــاب : هذا اللقب مشترك بين أرباب السيوف وأرباب الأقلام وهو أعلى ما يلقب به العلماء والقضاة ، ويلقب به كذلك من لم يصل الى درجة التلقيب « بالمقر » من الأمراء ، وقد يضاف اليه كلمة العالى أو غـــيرها ، فيقال : الجناب العالى ، أو الجناب الشريف العالى ، أو الجناب الكريم ......

وأصله فى اللغة الغناء أو ما قرب من محلة القوم ، وقد يعبر عن الرجل بفنائه وبما قرب من محله على سبيل التعظيم(٢٢) .

مناصب عسكرية فى الجيش الفاطمى

الاسفسهلارية : هـــذا الاسم علم على وظيفة خاصة بأرباب السيوف ، وصاحبها هو قائد الجيش أو المسئول عن كل الأجناد .

ويعتبر جميع الأزمة والقواد ، مسئولين أمامه عن عساكرهم ، وهو من ناحية أخرى زمامهم والمسئول عنهم أمام الخلافة ، وكما يقول القلقشندى نقلا عن « ابن الطوير » :

« صاحبها — يعنى صاحب الاسفسهلارية — زمام كل زمام ، واليه أمر الأجناد والتحدث عنهم ، وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم »(٢٣) .

وصاحب هـــذه الوظيفة يعتبر الرجل التالى لصاحب البـــاب (كبير الأمناء) فى المنزلة والرتبة ، وكان يسمى فى عهد الحكم التركى لمصر « سارى عسكر » ، وفى زمن « ابن تغرى بردى » «سردار»(٢٤) .

---

(٢٢) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩٥ .
(٢٣) انظر : القلقشـــندى : صــبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٩ ، ج ٦ ص ٧ ، ٨ .
(٢٤) انظر : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٦ .

ومهمة صاحب ذلك المنصب تشبه مهمة قائد عام القوات المسلحة فى العصر الحديث ، وكان لا يصل الى هـذه الرتبة الا كل رجل تتوافر فيه الشجاعة والنجدة والجرأة والباس والذكاء وحسن التدبير ، وقد كان البـلاء فى الحروب ، وحسن الدفاع عن الدولة والمذهب الفاطمى من المرشحات لاختيار من يتولى هـذه الوظيفة .

ولدينا منشور يرجع عهده الى آخر الدولة ، لكن يمكن منه فهم اتجاهها فيمن كان يختار لهذا المنصب الكبير ، وقد أعد هـذا المنشور « لرزيك بن صالح بن طلائع بن رزيك » ، حين عهد اليه النظر فى المظالم والتقدمة على العساكر(٢٥) .

وقد كانت طاعة زعيم الاسفسهلارية واجبة تماما كطاعة الخليفة نفسه، لأنه نائبه والمتحدث باسمه فى الشئون العسكرية والحربية، ويقول الأستاذ « الياس الأيوبى » فى مذكرات له مخطوطة : ان لفظا اسفسهلار لم يحل محل قائد القواد « الا بعد أن تغلب العنصر التركى فى الجيوش الفاطمية على العنصر المغربى »(٢٦) .

ويظهر أن ذلك اللقب لم يستخدم كعلم على قائد الجيش الا فى زمن متاخر ، ذلك أنا لا نجد له وجودا فى الزمن الأول من عمر الدولة الفاطمية ، وانما وجدنا « جوهرا » يلقب بالقائد ، وابنه « حسين » بقائد القواد ، ثم استعمل لقب « اسفسهلار » بعد ذلك ، ومما يؤكد ذلك أن نفس الكلمة ليست عربية ، وانما تتكون من مقطعين أحدهما فارسى والآخر تركى ، أى أن الأتراك هم الذين استعملوها فيما بعد .

على أن هـذا اللقب قد اسـتعمله الخليفة « العزيز » أثناء مخاطبته « لألفتكين » التركى وقت الحرب بينهما فى بلاد الشام ،

---

(٢٥) انظر : نص منشور فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٢٦) انظر : مشرفة : نظم الحكم بمصر ص ١٧٩ وما بعدها .

وربما كان سبب ذلك أن الخليفة الفاطمى آثر مخاطبته بلغته ليكون أقرب للفهم ، وأدخل فى الايضاح ، ولم تستعمل الكلمة كلقب عام لقائد الجيش الا فى فترة متأخرة عن ذلك .

ومهما يكن من أمر فقد كان يعاون القائد العام ، مجموعة من القــواد يبلغون أوامره الى جنــدهم ، ويعرفونه أحوالهم من حيث الحضور والغياب والموت والحياة ...... الخ[٢٧] ، ويشبه هؤلاء قواد الألوية فى العصر الحديث .

زم الرجال : يتولى هــذه الوظيفة الأستاذون من غير المحنكين ، وصاحبها مهمته رعاية الطائفة التى يتولاها ، ومباشرة أمورها والتحدث عن طوائف الرجال والأجناد وتمثيلهم عند القيادة العسكرية العامة ، وقد كان هناك زم صبيان الحجرية .. وزم السودان .. وزم الطوائف .. الخ الفرق العسكرية ... وهم يشبهون مقدم المماليك فى زمن دولة المماليك[٢٨] واذا صح تشــبيه معاونى الاسفسلار بقواد الألوية حديثا جاز لنا أن نقول أن زم الرجال يشبه عمله عمل قائد الكتيبة حسب التقسيم العسكرى الآن .

وينبغى الاشارة الى أن زم الرجال هذه ، غير وظيفة زم الرجال التى يتولى صاحبها اعداد طعام الخليفة[٢٩] .

شروط وظيفة زم الرجال :

كان زم طائفة « ما » من الطوائف يتم بناء على تزكية من الوزير . أو باختيار الخليفة بصفة مباشرة ، ويصدر بتوليته « سجل » من ديوان الانشــاء .

---

(٢٧) انظر : نفسه .
(٢٨) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢ .
(٢٩) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٠٩ وهامشها .

ولحسن الحظ لدينا بعضا من السجلات التى كتبت بهذه المناسبة ، ومنها يمكننا معرفة الصفات التى كان يعول عليها فيمن تناط به تلك الوظيفة وأهم ما يبرر اختياره .

ومن مجموعة السجلات المكتوبة بهذه المناسبة يمكن استخلاص الشروط الواجب توافرها فى زم الطائفة وتتلخص فى :

١ ـ أن يكون القائد شهما شجاعا ، قد ضرب فى هـذا الباب بسهم وافر ، وذاعت كفايته الحربية ، وانتشرت أمانته وحسنت كفاءته .

٢ ـ أن يكون حسن السياسة قوى التدبير ، يفنى فى رعاية شئون طائفته ، ويوفق للعمل لصالحها ببراعته وحنكته وحسن تأتيه للأمور وفهمها .

٣ ـ أن يكون قد عرف بولائه للعقيدة الفاطمية ، وايمانه بها ، يعمل لرفع قدرها ، وينصح بما من شأنه أن يرفع الدولة ويعلى مكانتها .

وأما مهمة زم الطائفة ، والواجبات المناطة به ، والمطلوب منه القيام بها بحكم وظيفته ، فتحددها السجلات بما يمكن تلخيصه فيما يلى :

١ ـ تقوى الله وطاعته ، ومراقبته فى كل ما يصدر زم الرجال من شئون الدولة وبما يمضيه من أمورها .

٢ ـ أن يحرص على توفير العدل ، ويمتنع عن الظلم والعسف ، ويعامل الناس بلطف وأدب ، بذلك يحملهم على مهابته واحترامه ، وعليه كذلك أن ينتصف للمظلوم من الظالم ، ويعطى كل ذى حق حقه ، مع مراعاة التسوية بين كل الناس دون أن يميز واحدا عن الآخر ، ففى التفريق بين الناس ضد للشعب ، واضعاف لنفوس الرعية ومساعدة على الاحجام والمعصية ، ومجافاة الدولة والخلافة .

٣ ـ على قائد الطائفة أن يرشح من بين جنودها من يستحق

الترقية ، فعليه مراقبة كل العساكر ، وقياس هممهم ، ومعرفة النشيط الدءوب على العمل ، المواظب عليه ، ثم اختيار من يرشحه للترقية من بين هؤلاء •

٤ ــ أن ينظر فى كل أمور طائفته بصورة تضمن الوفاق والموالاة بين أفرادها ، وتمنع النزاع والتخاصم بينها ، وأن يربيها على أحسن أدب وأفضل منهاج وأكرم سـيرة •

٥ ــ نشر محبة أمير المؤمنين فى الطائفة ، وتكون دعوتهم الى تلك المحبة بالحسنى لا بالعنف ، مع مكافأة المطيع ومعاقبة المقصر ، ومراعاة كل جنده لرفع من تقدم وأدى واجبه الى المرتبة اللائقة بمثله ، ومنع العوام من الاطلاع على دقائق المذهب ، التى قد تعجز عقولهم عن ادراكها وفهم مغزاها •

٦ ــ أن يولى على كل مجموعة من رجاله نقيبا يتفقد أخبارهم وينهى اليه سـيرهم •

٧ ــ أن يداوم تدريبهم على مختلف الأسلحة ، ويشرح لهم أنواع السلاح ، ليكونوا دائمـا على أهبة الاستعداد ، وليلبوا النداء مسرعين مدربين عندما يدعون للقتال والحرب ، وعلى الرجال اعداد مختلف الأسـلحة ، والتأهب بالخيـول وكل ما يلزمهم ــ كل حسب طاقاته ــ ولا يجـوز أن يكون واحـد منهم دون ما ينتظر منـه ، ولا يرخص له فى ذلك •

٨ ــ مراعاة أبناء من يموت من الطائفة ، وتربيته تربية حسنة ، وتنشئته على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وتعليمه ما لا بد من تعلمه من الفروسية والشجاعة ، وكل ما يلزم المحارب ويعتبر أساسا له باعتباره عسكريا •

ويفهم من السجلات أنه كانت هناك مجموعة من النقباء فى كل طائفة يعملون تحت رياسة زم تلك الطائفة ، ومهمتهم أن ينوبوا عنه ،

ويعلموه بكل ما يتصل بمن تحت قيادتهم من الطائفة ، ويشرحون له ما يتعلق بهم من أمور صغيرة أو كبيرة ، وهم فى هـذا يشبهون قواد الفصائل داخل الألوية فى التقسيم الحربى للجيوش الحديثة .

واذا كانت تلك مهمة زم الطائفة ، والشروط الواجب توافرها فيه ، فاشتراطها أولى فيمن يعلوه من القواد كناظر الجيش وقائد العسكر(٣٠) .

مجال الترقى وصاحب الحق فيه :

كان الجيش الفاطمى يتألف من فرسان ومن رجالة ، وكان على كل عشرة رجال عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير(٣١) .

وكان الخليفـة يعتبر الزعيم الأعلى فى الدولة ، وله الاشراف العام الشـامل على كل شئونها ، ويشـبه منصبه من الناحية الادارية منصب الملك أو رئيس الجمهورية فى العصر الحديث .

وكما أن الملك أو رئيس الجمهورية هو فى الوقت نفسـه القائد الأعلى للقوات المسلحة ، كذلك كان الخليفة هو المسئول الأول عن الشئون العسكرية ، والقائد الأعلى للقوات المسلحة .

وكان له حـق الترقيـة الى مختلف الرتب فـى الجيش ، يرقى أدوان الأمراء — وهم كما مر الذين يخدمهم خمسة فرسـان ولا يسـمح لهم بحمل القضب الفضية — الى مرتبة الأمراء أرباب القضب الفضية ، الذين يصرح لهم بحمـل القضب الفضـية التى يخرجها لهم الخليفة من خزينة التجمل أثناء موكب من المواكب أو احتفال

---

(٣٠) انظر نص السجلات فى :
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٣٦٠ ، ص ٤٠١ وما بعدها ، ص ٤٣٩ وما بعدها .
(٣١) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٣ .

من الاحتفالات ، ويكون فى خدمة كل منهم أربعون مملوكا على الأقل والخليفة كذلك هو الذى يقوم بترقية هؤلاء الى رتبة « الأمراء المطوقين » وهم الذين يلبســـون أطواقا من الذهب تكون فى أعناقهم ، ويخدم كلا منهم مائة مملوك[٣٢] .

وكان أجل الأمراء أرباب السيوف ، صاحب الباب (كبير الأمناء) الذى لقب بالمعظم ، ويليه الاسفسهلار ، ثم حامل سيف الخليفة أيام الركوب .... فأرباب الأطواق ، ويليهم أرباب القضب والعماريات ، ثم زم الطوائف ، ثم من يترشح لذلك من الأماثل .

وكان المعول عليه فى الترقية من رتبة الى أخرى هو المواهب والكفاءات ، وكانت الدولة لا تعتمد الا على أرباب الشجاعة والفتوة ، ولهذا السبب دخل فى ذلك الجيش ، ووصل الى أعلى المراحل فيه ، أخلاط الناس من الروم والأرمن وغيرهك ، فلأنهم اتسموا بالشجاعة ، وقاموا بأعمال حربية ، وأظهروا بسالة فى ميادين الوغى ، استحقوا أن يكونوا فى خيرة القواد ومن أعلام الرجال فى الجيش الفاطمى[٣٣] .

وكان للخليفة كذلك السلطة المطلقة فى معاقبة من يذنب فى السلك العسكرى ، ومجازاة من يحسن من رجاله ، وكانت مكافآته عبارة عن ثياب ، أو عمائم قصب مذهبة ، يخرج بها براءات تصدر عن ديوان الانشـــاء وصاحب الباب[٣٣] .

التدريب فى الجيش الفاطمى :

لم يغفل الفاطميون عن أثر التدريب المتواصل فى تماسك أفراد الجيش ، وتعودهم النظام والطاعة ، ومعيشتهم فى جو عسكرى دائم ، يجعلهم دائمــا على أهبة الاستعداد ، وفى حالة لياقة تامة ، وفى وضع يمكنهم معه خوض المعارك كلما دعت الظروف الى ذلك .

---

(٣٢) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١١٣ .

(٣٣) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٢ ص ٢٤٥ ، مشرفة : نظم الحكم ص ١١٣ .

لكل ما مر أولى الفاطميون تعليم العساكر وتدريبهم شيئا غير قليل من عناياتهم واهتمامهم ومرنوا جنودهم على ألعاب وتمرينات كثيرة تكسبهم قوة الجسم ونشاط البدن •

فقد مارس الجنود الفاطميون تدريبهم على لعب الكرة وسباق الجرى والتحطيب بالعصى والفروسية والحكشة « الهوكى » •

ووضع برنامج لتقوية أجسامهم وأعضائهم من تمرينات لقوة الذراعين الى أخرى لقوة الرأس والرجلين ، والعنق •

وعرف الفاطميون كذلك التدريب على المشى والجرى والقفز لبضعة أمتار ، والوثب العالى والطويل ، ورموا الجلة والقرص والرمح ، ولعبوا الملاكمة وكرة القدم ، والمصارعة والسباحة ، والتجديف ، والمبارزة وركوب الخيل •• الخ ما عرف فى عصرهم من تمارين •

وكان الهدف من وراء ذلك كله أن يحفظ جسم الجندى نشيطا ، ويحال بينه وبين الركون الى الراحة ، وتعود الكسل والبلادة ، فتفسد نفسه وجسمه ، ويفقد مقدراته ومواهبه الحربية •

وفوق ذلك اهتم الفاطميون بتعليم أفراد جيشهم ، طرق انقاذ الغرقى ، واطفاء الحرائق ، والاسعافات الأولية ، وحمل المصابين فى معسكراتهم •

وقد كان الخليفة نفسه ــ باعتباره قائدا أعلى للقوات المسلحة ــ يقوم بين الحين والآخر ، باستعراض فرق الجيش والاطمئنان على أسلحته ومعداته ، وتفقد معسكراته وثكناته ، وقد حرص بعض الخلفاء الفاطميين على توديع الحملات الحربية بنفسه ، وكان يأذن لقائد الحملة بالمثول بين يديه ، ويخلع عليه حللا مزركشة بالذهب ، تشجيعا له ورفعا لمعنوياته(٣٤) •

---

(٣٤) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٩ •

طريقـة التجنيـد :

معلوم أن الجيش عصب الأمم بها تقاس قوتها ، وتتحقق عظمتها ، وعن طريقها تكتسب الدول هيبتها ، ويتوافر احترام الجميع لهـا : وكلما كانت ضخمة متينة حسنة التدريب ، مكتملة اللياقة ، كان ذلك أهيب لها وأدعى لاحترامها وتقديرها ، وأضمن لارهارب عدوها .

لهذا ليس عجيبا أن تكون الجيوش موضع عناية الدول والحكومات منذ القديم ، تحاول كل منها أن توفر لنفسها منها ما يتناسب مع مكانتها الدولية وما يليق بها وبوضعها الحربى .

وكانت الدول فى القديم تعتمد فى جمعها لجيشـها على نظام التطوع ، وعلى كل من يمكنه حمل السلاح أن يلبى داعى القتال حين يدعى اليه ، تدفعه الحمية والشجاعة الى الاشتراك فى الدفاع عن الوطن وحماية حوزته ، ويرى عيبا وعارا أن يتخلف عن ميدان المعركة فى الوقت الذى يناضل فيـه أقرانه من القادرين ، ويبذلون أقصى ما فى وسـعهم .

الا أنه لم يكن ينتظر — مع تقدم الأمم وارتقائها وتنوع مصالحها — أن تستمر المحافظـة على نفس الطريقة لتجنيد الرجال وتجميع الجيوش ، وكان لابد من سن أنظمة جديدة ، فتطور الوضع الى نظام تجنيد العسـكر اجباريا اذا كانت الحرب التى سـيخوضها الجيش للدفاع عن بلـده ووطنه ، أما اذا كانت الحرب هجومية ، فقد سـن التطوع أساسا للتجميع دون أن يكره أحـد على الانخراط فى سلك الجنـدية(٣٥) .

ولمـا جاء عهـد « عبد الملك بن مروان » الخليفة الأموى ، رأى واليه « الحجاج بن يوسف الثقفى » أن الناس لم يعودوا يقدمون

---

(٣٥) انظر عبد الرزاق بركات : لمحة تاريخية فى الحرب والجندية ص ١٠ — القاهرة سنة ١٩٣١ م .

على القتال مدفوعين بروح الحماسة والفتوة ، بل تقاعسوا وأصابهم الكسل ، فألزم الناس لذلك بالانخراط فى سلك الجندية ، وجعل التجنيد اجباريا الزاميا ، لكن ذلك لم يدم كثيرا .

وفى عهد العباسيين والفاطميين ، شرع الخلفاء فى شراء الجنود الأعاجم والأتراك وغيرهم من عبيد للشراء ، وكانوا يشترونهم لتثبيت أقدامهم ، ويحرضون كل طائفة على الطوائف الأخرى ، وينصرونها عليهم ، فكانت النتيجة أن هؤلاء الخلفاء ضموا بلاء ووباء عليهم وعلى دولهم(٣٦) .

والحق أن عبيد الشراء ، لم يكونوا العنصر الأساسى فى جيش الدولة الفاطمية على مدار كل عصورها ، ولم تنتشر ظاهرة الاعتماد عليهم ، والاكثار منهم الا فى عهد الخليفة « المستنصر » ، وقبل ذلك كانت الخلافة تعتمد على مناصرة الأجناس والقبائل لها .

فقد قامت الدولة فى بلاد المغرب بقبيلة كتامة ، تظاهرها قبائل بربرية أخرى ، وقد أقاموا هذه الدولة وساندوها وحموها من كل الأعاصير التى تعرضت لها فى بلاد المغرب ، وبهم فتحت مصر ، ثم جاء « العزيز » فاصطنع الديلم والأتراك ، وأدخل عنصر المشارقة فى الجيش الفاطمى واعتمد عليهم فى حكمه للدولة ، وفى توجيهه لدفتها ، وكانوا يده اليمنى فى كل أموره ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

* * *

---

(٣٦) انظر : عبد الرازق بركات : لمحة تاريخية فى الحرب والجندية ص ٣٦ .

ديـــوان الجيش

أصل الكلمة ، معناها ، لمحة تاريخية :

الديوان عبارة عن الدار التى تعد لحفظ ما يتعلق بأعمال دولة « ما » وأموالها ومن يخدم فيها من الجيوش والعمال .

وقد ذكر العلماء وجهين لتسميته بذلك الاسم :

أحدهما أن حاكم الفرس «كسرى » اطلع يوما على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أى مجانين ، فسمى موضعهم بهـــذا الاسم ، ثم حذفت الهاء تخفيفا لكثرة الاســتعمال فقيل ديوان .

والثانى أن الديوان بالفارسية تعنى الشياطين ، فسمى الكتاب بذلك « لحذقهم الأمور ، ووقوفهم على الجلى والخفى ، وجمعهــم لمـــا شذ وتفرق ، واطلاعهم على ما قرب وبعـــد ، ثم ســـمى مكان جلوســـهم باسمهم »[٣٧] .

والكتابة فى الديوان تتنوع الى ثلاثة أنواع : كتابة الجيوش ، وكتابة الخراج ، وكتابة الانشـــاء والمكاتبات ، وكل دولة لابد لها من هـــذه الأقسام الثلاثة فى ديوانها .

ويهمنا هنا الحديث عن « ديوان الجيش » بصفة خاصة .

وسوف نقدم ما اشترطه المفكرون الاسلاميون فيمن يثبت بهذا الديوان بايجاز ثم نتبع ذلك ببيان موقف الدولة الفاطمية مما وضعه وقرره الفكر الاسلامى ، وما قدمه علماء الاسلام حول هـــذه الأفكار .

---

(٣٧) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ١ جـ ١ ص ١٦٣ .

شروط الاثبات فى ديوان الجيش :

اشترط علماء الاسلام ومفكروه ، فيمن يثبت اسمه فى ديوان الجيش ، ويستفيد من عطائه ، شروطا خمسة :

أولها : البـــلوغ •

الثانى : الحرية : فلا يجوز اثبات المملوك فى ديوان الجيش ، وانما يتبع سيده وقد أجاز الخليفة « أبو بكر » افراد المملوك بالعطاء ، واختار « أبو حنيفة » رأيه •

الثالث : الاســـلام •

الرابع : أن يكون من أدرج اسمه فى ذلك الديوان سليما صحيحا معافى من الآفات المـــانعة له فى القتال •

الخامس : أن يكون خبيرا بالقتال عارفا لأصوله ، وأن يكون فيه اقدام وجرأة ، فاذا توافرت هذه الشروط فى شخص ما ، جاز اثباته فى ديوان الجيش بطلبه ، ثم ان كان الشخص مشهورا باسمه فذلك كاف ، والا ذكر مع اسمه فى الديوان لونه وصفته وما يميزه من غيره تحاشيا لاتفاق الأسماء ، ثم بعد ذلك يضم الى نقيب من النقباء ، أو عريف يسأل عنـــه ويراقبه فى كل تصرفاته[٣٨] •

كيفية ترتيب العســكر فى الديوان :

يتم ترتيب العســـكر فى ديوان الجيش على ضربين : أحداهما يسمى الترتيب العام ، والثانى الترتيب الخاص •

---

(٣٨) انظر : تفصيل ذلك فى المـاوردى : الأحكام السـلطانية ص ٢٠٣ وما بعدها ، القاهرة سنة ١٩٦٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١١٠ وما بعدها •

الأول : عبارة عن ترتيب القبائل والأجناس ، بهدف تميز كل قبيلة عن غيرها ، وكل جنس عن مخالفة ، ليضمن أن يكون الديوان على نسق واحـد معروف فيمتنع الخلاف والتنازع ، ثم ان كان المقيدون فى الديوان عربا ، روعى فى ترتيبهم القرب من رسول الله ﷺ .

أما اذا كان المقيدون فى الديوان من العجم الذين لا يجمعهم نسب ولحد ، فيرتبون على أساس أجناسهم أو على أساس البلدان التى نزحوا منهـا .

فالأول : مثل الترك والهند ،

والثانى : وهم المميزون بالبلاد كالديلم والجبل .

والثانى من نوعى الترتيب : الترتيب الخاص ، وهو عبارة عن ترتيب الفرد بعد الفرد ، فيقدم من له سابقة كما فعل الخليفة الثانى « عمر » فان تساووا فى السابقة جعل الدين أساسا للترتيب ، والا فالسن ، والا جعلت الشجاعة مناط الترتيب ، فان تساوى العسكر فى ذلك كله ترك الخيار لولى الأمر ، اما أن يرتبهم بالقرعة أو وفقا لرأيه واجتهـاده[٣٩] .

أسـاس تقدير مرتبات العسـكر :

يراعى فى تقدير المرتبات لمن يثبت فى الجيش أن يكون بحيث تكفيه ويستغنى بها ، وتمنعه من التماس مورد للرزق فيما عداها ، ليتفرغ لمـا أعد له من الدفاع عن البلاد ، والذب عن الدين وحماية البيضـة .

---

(٣٩) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١١١ وما بعدها ، المـاوردى الأحكام السلطانية ص ٢٠٣ وما بعدها .

ويدخل فى اعتبار الكفاية للعسكر ثلاثة أشياء :

١ ـ عدد من يلزمه عيالتهم من المماليك والذرية ٠

٢ ـ عدد ما عنده من الخيل والظهر ٠

٣ ـ المكان الذى ينزل فيه ، وحالته من حيث الغلاء والرخص(٤٠) ٠

تلك باختصار هى وجهة النظر الدستورية فى الفكر الاسلامى خاصة بديوان الجيش وما يتصل به من أحكام ، وما يشترط فيمن يدرج فيه ، فماذا عن ذلك الديوان فى الدولة الفاطمية ، هل التزمت ذلك المنهج وعملت حسب ما يمليه عليها القانون الاسلامى ، أم حادث عن ذلك وخالفته ؟ ذلك ما ستحاول السطور التالية بيانه ٠

فى عهد الدولة الفاطمية ألحق بذلك الديوان ديوان الرواتب ، وأطلق عليه اسم ديوان الجيش والرواتب ، وقسم تبعا لذلك الى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : ديوان الجيش ، ويشترط فيمن يتولاه أن يكون مسلما ، وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة ، وله التقدمة على غيره ويخلع عليه بالطراحة والعماد ، ويكون بين يديه حاجب من الحجاب ٠

ومهمة هذا الديوان أن تعرض الأجناد وتثبت فيه ، مع بيان العلامات الجسمية التى تميز كل جندى عن سواه ، مع شرح ما تحت يده من خيول (كان لا يثبت الا النوع الجيد من ذكورها) ، وكان يثبت فى ذلك الديوان كذلك مقدار رزق أو مرتب كل جندى ، ووقت أعطياته ٠

---

(٤٠) انظر : الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٠٣ وما بعدها ٠

ويقول القلقشندى ان ذلك الديوان كان لعهد الفاطميين مقسما الى ثلاثة أقســام :

أحدها : القســم الخــاص بعرض الأجناد ، وذكــر رلياتهم وعلاماتهم الجسمية المبينــة لهم .

والثانى : لضبط اقطاعات العســكر .

والثالث : لمعرفة ما لكل موظف فى الدولة من راتب وجارية(٤١) .

وعلى كل حال فالاشراف على ذلك الديوان يناط « بمستوف أصل » وهو صاحب ديوان الجيش ، يعاونه مجموعة من النقبــاء والأمراء ، يعلمونه أحوال العســكر من حياة أو موت أو مرض أو صحة وما الى ذلك(٤٢) .

وصاحب هــذا الديوان من رفعة المكانة بحيث يمكنه الانتقال من الخدمة فيــه الى تولى منصب الوزارة ، وقــد تولى « الحسن ابن صالح الروزبارى » ذلك الديوان سنة ٣٨١ هـ ، ثم تدرج فى المناصب حتى بلغ الوزارة ، كما تولى ذلك الديوان على عهد وزارة « اليازورى » أبو الفرج محمــد بن جعفــر بن على بن الحســن المغربى ، ثم تولى الوزارة بعد ذلك ، ولمــا صرف منها تولى ديوان الانشــاء(٤٣) .

والقسم الثانى من ذلك الديوان : أعد لتدون فيه مرتبات العاملين فى الدولة ، واسم كل موظف ومقدار ما يجرى عليه ، ويتولاه كاتب أصل بطراحة ، يعاونه عشرة من الناس ، يعرفونه باستمرار بمن هو

---

(٤١) انظر : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٨ ، ص ٤٨٩ ، ص ٥٢١ .
(٤٢) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٢ ص ٢٤١ .
(٤٣) الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٣٤ ، ص ٤٧ .

مستمر فى الخدمة ومن مات من الجنود والعاملين وبمن استجد فى العمل ، ليرتب لكل فرد استحقاقاته ، وفقا لنظام دقيق .

وكان فى هــذا القسم من الديوان عروض عدة :

الأول : ويشمل مرتب الوزير ، والثانى : ويشمل مرتبات حرس الخليفة ، وفى مقدمتهم الأستاذون المحنكون ، والثالث : من بحضرة الخليفة من أرباب الرتب ، مثل كاتب الدست الشريف وصاحب الباب ، ثم حامل السيف وحامل الرمح ولكل منهما سبعون دينارا ، ثم الأزمة على العســاكر وتتراوح مرتباتهم بين خمسين وثلاثين دينارا ، للعرض الرابع : ويتضمن مرتبات داعى الدعاة وقاضى القضاة ، والخامس فيه مرتبات أرباب الديوان ومنهم متولى ديوان الجيش ومرتبه أربعون دينارا شهريا ، والعرض السادس : ويشمل مرتباب المستخدمين بمصر والقاهرة ، ويشمل العرض السابع : على مرتبات الفراشين بالقصر والقائمين بخدمته وتنظيفه داخليا وخارجيــا .

ويتناول العرض الثامن : مرتبات صبيان الركاب الذين تزيد عدتهم على ألفى رجل ، عليهم اثنـــا عشر مقــدما ، فيهم مقدم المقدمين ، وهو صاحب الركاب الأيمن ، ولكل مقــدم منهم خمسون دينـــارا شــهريا .

وهؤلاء الركاب ينقسمون الى فرق ، كل عليها نقيبها ، وكل فرد من الركابية يتقاضى خمســة دنانير ، قــد ترفع الى عشرة والى خمسة عشر دينارا فى كل شــهر(٤٤) .

وبالاضافة الى هــذه المرتبات ، كانت المنح توزع على الجند والمستخدمين فى الأعياد والمناسبات ، ففى عيد الفطر توزع الحلوى

---

(٤٤) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ ج ٢ ص ٢٤١ الى ص ٢٤٣ ، مشرفة : نظم الحكم ص ٢٢١ ، ص ٢٢٢

من ربع قنطار الى عشرة أرطال الى رطل واحد ، والخشكنان من مائة حبة الى خمس وسبعين الى ثلاثة وثلاثين الى عشرين حبة .... وهكذا[٤٥] .

مرتبات الأجناد فى الدولة الفاطمية :

جرت عادة الفاطميين على تخصيص ثلث المال الذى يتحصل من خراج دولتهم للانفاق على العساكر ، وكانوا ــ اذا انحط ماء النيل عن الأراضى وانخفض وظهرت الزراعة فى البلاد ــ كانوا ينيبون مجموعة من الكتاب يوثق بذكائهم وعدلهم ، ومعرفتهم بعلم الخراج ــ وكثيرا ما كانوا من النصارى ــ فيخرجون الى كل نواحى مصر ، ويحررون المساحة التى تشملها الرى من أراضى مصر ، ويحددون مساحتها بالفدان ثم يودع بيان بذلك بدواوين الخلافة .

فاذا مر من السنة القبطية أربعة أشهر ، خرج من الجنود من اشتهر بالقوة ، والبأس ، وعين من الكتاب العدول من اشتهر بالأمانة ، وخرج كاتب نصرانى من غير من خرج عند المساحة ، ثم يتوجه جميع هؤلاء الى كل ناحية فيستخرجون منها ثلث مال الخراج حسبما شهدت المكلفات ، فاذا تم تحصيل ذلك الثلث صرف فى واجبات العساكر[٤٦] .

وقد مر بنا أن مرتب صاحب ديوان الجيش كان أربعين دينارا فى كل شهر ، وأن أزمة العساكر كانوا يتقاضون مبلغا يتراوح بين خمسين وثلاثين دينارا ، كما أن حملة الركاب كان يتراوح مرتبهم من خمسة الى خمسة عشر دينارا ، ولم نستدل على مرتبات عدا هؤلاء من رجال الجيش .

---

(٤٥) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٥ .
(٤٦) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ١ ج ١ ص ١٥٣ ، مجلد ٢ ج ٢ ص ٢٤٨ .

وكل ما تذكره النصـــوص هو أن ثلث الضرائب على الأراضى المصرية ، كان مخصصا للانفاق على الجيش وعســـاكره ، وقد كانت الأراضى تؤجر بطريقة القبالة أى « بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجنـــاد وأهالى النواحى من العرب والقبط وغيرهم ، ويحصل من خراجها مقدار الثلث فينفق على الجيش ، ومنه تمنح العطايا والهبات للعاملين بذلك الجيش »(٤٧) ولا يســـتبعد أن يكون مرتب للجنـــدى مقدارا يزيد على خمســـة دنانير شهريا ، ذلك أن هذا المبلغ كان يدفع للفراشين ولأقل الخدم فى الدولة ، فمعقول أن يكون ذلك المبلغ ــ أو أزيد منه ــ هو الحـــد الأدنى يصرف لكل جندى يعد نفســـه ، ويضحى بروحه ، ويبذل كل ما فى وسعه لحماية الوطن والذب عنه .

على أن هناك حادثة حدثت فى الأيام الأولى من خلافة « الحاكم » (٣٨٦ ــ ٤١١ هـ) يمكن منها معرفة مرتبات الكتاميين فى ذلك الوقت .

وخلاصتها أن الكتاميين تخلفوا عن حضور بيعة الحاكم ، وخرجوا نحـــو المصلى فجاءهم « ابن عمار » وجماعة من رؤوسهم ، وشـــكا الشاميون اليهم « عيسى بن نسطورس » الوزير النصرانى ، وطالبوا بصرفه وأن يتولى الوساطة رجل من المغاربة ، ثم درس « الحسن بن عمار » مطالبهم ، وأمر بتحرير أرزاقهم وبعد مخاطبات طويلة بينهم وبين الخليفة تم الاتفاق على أن يكون لهم ثمانى اطلاقات فى السنة لكل نسمة ثمانية دنانير ، وأن يطلق لهم الفضل بحضرة الخليفة ، وتم ذلك وأحضر المـــال ، وصرف لهم الفضل بحضرة الخلافة وكان مقداره عشرين دينارا لكل فرد ، ثم أقسم الجميع بعد ذلك يمين الولاء والطاعة للخليفة .

وفى ســـنة ٣٨٦ هـ تجمع الكتاميون ، فأرسل اليهم الخليفـــة

---

(٤٧) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٢ ص ٢٤٢ ، ص ٢٤٣

« الحاكم » ، من دبر أمرهم على « سبع أعطيات فى السنة ، وشرع فى للنفقة على نحو ألف فارس بمراكبها[٤٨] •

ومعنى ذلك أن مرتبات الكتاميين مرت بمرحلتين : فى أول عهد الحاكم كانت ثمانية دنانير لكل فرد ، تدفع له ثمانى مرات فى السنة ؛ أى ٦٤ دينارا سـنويا •

ثم استكثر الحاكم ذلك عليهم ، فحط من مرتباتهم ، وجعلها سبعة مرات فقط أى ستة وخمسين دينارا فى كل عام ، هـذا عدا ما كان يصرف لهم من مكافآت وما يمنحه لهم الخليفة من هبات (فضل) لا يحتسب ضمن ما يتقاضونه من مرتبات •

ولقد كانت العناية بجند الجيش الفاطمى ، والحرص على بيان مهمات أفراده ، وايصال مرتباتهم اليهم فى ميعادها، منأهم ما عنىبه الخلفاء الفاطميون فى وصاياهم لوزرائهم عند تقليد الوزارة اليهم ، من ذلك :

« وأما طوائف الأجناد فتقرهم على مراتبهم فى ديوان الجيش المنصور ، وتخصهم من عنايتك بالنصيب الموفور ، وتستخدمهم فى سد الثغور وتسديد الأمور ، وتراعى وصول أطماعهم اليهم ، وقت الاسـتحقاق •••• »[٤٩] •

أما عن الشروط التى جاءت فى كتب المفكرين الاسلاميين خاصة بمن يجب اثباته فى الجيش ، فقد راعاها الفاطميون ، وحافظوا عليها ، فيما عدا شرطى الاسلام والحرية •

---

(٤٨) انظر : ابن ميسر : اخبار مصر ج ٢ ص ٥٣ طبع القاهرة سنة ١٩١٩ م •

(٤٩) القلقشندى صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٩٣ •

فقد وجدنا غير المسلمين يتقدمون فى الدولة ، وتوكل اليهم المهام الخطيرة • ومن الانصاف أن نقول ان الفاطميين تجوزوا فى هذا الشرط بالنسبة للوظائف المدنية ، أما رجال الجيش فلقد كان الاسلام شرطا أساسيا فيهم ان لم يكن والايمان بالمذهب الشيعى ، لتكون لديهم الحماسة والقوة والاقتناع بالدعوة والاخلاص فى الدفاع عنها ، وبذل ما يمكن بذله فى سبيل نصرتها والتمكين لها ، ولا يتصور ذلك الا من المسلم ، الحريص على تثبيت قواعد الاسلام ، المحب للدولة ، الراغب فى استمرار بقائها •

أما عن الحرية فقد وجد العبيد فى الدولة منذ زمن مبكر ، وخدموا فيها ، وساهموا فى تكوين جيشها ، بل انهم فى فترة متأخرة عن فترتنا وأيام الخليفة « المستنصر » (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) كانوا من أهم العناصر المكونة للجيش الفاطمى ، بل قوة يعمل لها كل حساب ، تخشى الخلافة بأسها ، بل وتحاول ترضيتهم والاستجابة لكل مطالبهم من مال ومتاع •

والحق أن الفاطميين لم يبعدوا كثيرا عن التفكير الاسلامى فى تجاوزهم للحرية ، ذلك أنه قد مر بنا أن الخليفة الأول « أبا بكر » رضى الله عنه ، أجاز اثبات العبيد فى الديوان بعطاء منفصل عن عطاء سيدهم ، وأخذ برأيه من الأئمة الامام « أبو حنيفة »(٥٠) •

فليس غريبا اذن أن يستخدم الفاطميون العبيد ، وأن يقدموا لهم المرتبات ويعدونهم عساكر فى دولتهم •

---

(٥٠) انظر ما سبق ص •

ديـوان الاقطـاع :

وجد ذلك الديوان منذ بداية الحكم الفاطمى بمصر ، وقد ألحق بديوان الجيش ، وأعد ليختص باقطاعات الأجناد ، والنظر فيما هو مقطع لهم .

وكان لذلك الديوان رئيس يتقاضى أربعين دينارا فى كل شهر ، ولم يكن يدخل فى اختصاصه تغيير واحـد من الأجناد ، أو المساس بشىء من اقطاعاته الا بمرسوم(٥١) .

وكان السبب فى انشاء هـذا الديوان ، هو أن الخليفة الفاطمى « المعز لدين الله » لـما استولى على مصر ، ضم الى أراضى الدولة العامة ، أملاك الأسرة الاخشيدية وأمكنه لذلك أن يقطع بعض أراضى الدولة هـذه نفرا من خواصه ، سواء أكانوا من أصحاب السـيوف أو من أصحاب الأقلام ، وكان ذلك الاقطاع اقطاع تمليك فى بعض الأحيـان ، تصدر به وثيقة من ديوان الانشـاء تسمى « المجمل » بمقتضاها يصـبح حاملها مالكا للأرض بصـورة مؤبدة تجرى على الأصل وعلى الفرع .

وفى أحيان أخرى ، كان الخليفة يقطع خواصه اقطاع استغلال أى الانتفاع بايرلد المساحة المقطعة مدة حياة المقطع له ، وترد بالوفاة وبعد انتهاء المدة المحددة للاقطاع ، الا اذا أخل المقطع بشروط الخليفة .

على أن ذلك كله لم يزد عن مجرد مكافآت وهبات يتقدم بها الخليفة لرجال الجيش ، ذلك أن الخلفاء الفاطميين لم يسيروا على مبدأ اعطاء الأراضى اقطاعا فى مقابل الرواتب ، وانما الذى أخذ بذلك النظام الأيوبيون ثم توسع فيه المماليك فيما بعد(٥٢) .

---

(٥٠) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٨ .

(٥٢) انظر : مشرفة : نظم الحكم بمصر ص ١٨٦ ــ ١٨٨ .

وقد بقى لنا صورة سجل من سجلات الاقطاع فى الدولة الفاطمية ، يفهم منها أنه لم يكن أكثر من منحة من الدولة لمن تتقدم بها اليه(٥٣) .

ويبدو أن الخليفة « الحاكم بأمر الله » ، قد توسع فى الاقطاعات على عهده ، وأكثر من لقطاع الجند والعبيد ، كما أقطع بنى قرة ، ونواتية المراكب والمشاعلية ، وكان من بين الجهات التى قدمها اقطاعا الاسكندرية والبحيرة — ونولحيها(٥٤) .

وقد تم حل جميع الاقطاعات فى الدولة الفاطمية أيام وزارة الأفضل بن أمير الجيوش ، بناء على شكاوى من الأجناد ، ثم أعيد توزيعها بعد ذلك(٥٥) .

---

(٥٣) انظر نص ذلك السجل فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ : ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٥٤) انظر ملحق اتعاظ الحنفا ص ٣١٢ .

(٥٥) انظر المقريزى : الخطط مجلد ١ جـ ١ ص ١٤٨ .

الامارة على الجهـــاد

أحكامها ، وشروطها ، موقف الفاطميين من ذلك

نحاول ـــ موجزين ـــ تقديم وجهة النظر الاسلامية فى هـــذا المصدد ، ثم نطبق ما ذكره المفكرون الاسلاميون على الدولة الفاطمية •

يجب على متولى امارة الجهاد مراعاة ما يلى :

تسيير الجيش ، ومراعاة أمور سبعة فى ذلك السير تعتبر حقـــا للجيش لابد من توافرها :

١ ـــ الرفق بالجنود فى السير •

٢ ـــ تفقد خيولهم وظهورهم •

٣ ـــ مراعاة من معـــه من المقاتلة ســـواء أكانوا من المتطوعين الخارجين امتثالا لأمر الله أو من المثبتين فى ديوان الجيش •

٤ ـــ أن يعرف العرفاء ، وينقب النقباء على الجيش ، كى يعرفوه أحوالهم ، ويكونوا واســـطة بين الأمير والجنود •

٥ ـــ أن يخص كل طائفة بشـــعار تعرف به ، ليكون ذلك أدعى الى تميزهم واتضاحهم •

٦ ـــ أن يتصفح الجيش ويتعرف أحـــواله ، ليخرج المرجف المخذل ، ويبقى المخلص الصادق •

٧ ـــ الا يجامل أو يمالىء ، بل عليه أن يساوى بين كل الأفراد ، لأن فى التفرقة نشر للاختلاف والتقاطع(٥٦) •

---

(٥٦) انظر تفصـــيل ذلك فى المـــاوردى : الأحكام السـلطانية ص ٣٥ وما بعدها •

ذلك هـو الأدب الاسـلامى العام ، وقد راعاه الفاطميون فى حروبهم ، ونفذته قياداتهم ، وحرص عليه أمراؤهم ورؤساء جيوشهم ، يتضح ذلك من سجلاتهم التى سيأتى الاشارة لبعضها فيما بعد .

واجب أمـير الجيش :

يجب على أمير الجيش فى سياسته لجنده عشرة أشياء :

١ ـ حراستهم من غرة يظفر بها العدو .

٢ ـ أن يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة العدو .

٣ ـ أن يعد للجيش ما يحتاج اليه من زاد وغيره ، ويفرقه عليهم وقت الحاجـة .

٤ ـ أن يتعرف أخبار عدوه ، ويتصفح أحواله .

٥ ـ أن يرتب الجيش فى المعركة ، وأن يضع فى كل ناحية من يراه كفؤا لهـا .

٦ ـ أن يرفع روح الجند المعنوية .

٧ ـ أن يطالب أهل البلاد بالحسنى والصبر فى القتال ، ولهم الثواب والأجر فى الآخرة ، والغنيمة والمـال ان كانوا من أهل الدنيا .

٨ ـ أن يشاور أولى الرأى والحزم .

٩ ـ أن يطبق شرع الله ، فيأخذ الجيش بالحقـوق التى أمر الله تعالى بها . وبالحدود التى جاءت بها شريعته .

١٠ ـ ألا يمكن أحدا من جيشه بالتشاغل عن مهمته بتجارة أو زراعة أو غيرها ، فذلك يعوقه عن الجهاد وحسن لقاء العدو(٥٧) .

---

(٥٧) انظر : المـاوردى : الأحكام السلطانية ص ٤٣ وما بعدها .

واذا كان ذلك واجب القائد على جنده ، فان له عليهم حقوقا ، لابد أن يقوموا بها ، بعض هـذه الحقوق يجب عليهم فى حق الله ، والآخر يجب فى حق القائد نفسه ، فالذى يلزمهم فى حق الله تعالى أمور أربعـة :

١ ــ أن يصـبروا عند لقـاء الجمعين فلا ينهزموا عن مثلهم وعما دون ذلك .

٢ ــ أن يكون مقصدهم من القتال نصرة دين الله تعالى وابطال ما سـواه .

٣ ــ أن يكون كل منهم أمينا فيما استولى عليه وحازه من المغانم .

٤ ــ ألا يمالىء من المشركين ذوى قربى ، ولا يمالىء ذا مودة .

وأما ما يجب على أفراد الجيش خاصا بالقائد فأمير أربعة كذلك :

١ ــ وجوب طاعته والسماع له .

٢ ــ أن يفوضوا الأمر اليه ، ويكلوه الى تدبيره .

٣ ــ أن يمتثلوا أوامره ، وينتهوا عن زواجره .

٤ ــ ألا ينازعوه فى قسمة الغنائم ، وأن تكون قسمته فيهم موضع رضى طالمـا كان عادلا فيهم(٥٨) .

تلك ــ فى ايجاز ــ هى النظرة الاسلامية لأمير الحرب ؛ ولمكانته فى جنده ، وواجبه عليهم ، وحقوقهم عليه ، وذلك هو وضعه فى التفكير الاسلامى فهل التزم الفاطميون بذلك وعملوا به ، أم حادوا عنه وتنكروا له ؟ .

---

(٥٨) انظر : التفاصيل فى المرجع السابق من ص ٤٣ الى ٤٩ .

هناك وصية ، وصلت الينا سليمة ــ لحسن الحظ ــ هذه الوصية عبارة عن مجموعة من النصائح ، أدلى بها خليفة فاطمى لأمير جهاد له ، يستدل منها على محافظة القوم على الشروط السابقة ، والتزامهم بها ، بل أنها زادت جوانب اسلامية فى الحرب ، مثل عرض الأمان على المحاربين ، ورفع السيف عن من لم يحسن الحرب ، والتوصية بالفحص عن نيات المستأمنين ومعرفة دخائلهم ، والايصاء بأهل الذمة ، ومعاملتهم معاملة المسلمين ، والجنوح الى السلم ، والوفاء بالعهد ... الخ .

وتلك الوصية تقدم ما يشترطه الفاطميون فى أمير الجهاد ، فلا بد أن يكون قويا شجاعا يستعنى به فى سد الخلل ، ويعتمد عليه فى نصرة الدولة وحمايتها .

وقد كان الخليفة يخلع عليه بنفسه قبل توليته ، ويمنحه لواء وملابس وطوقا من ذهب تشريفا له ، ويوصيه بتقوى الله والعمل بجد وفى حرص وحذر ، ثم يحدد له ما يطلب منه قبل الرحيل من تسلم قوائم بأسماء العسكر ، واختيار القوى الصالح للقتال من بينهم وترك من عداه .

وعلى القائد بعد ذلك أن ينفق المال على من اصطفاهم للحرب والقتال ، ويساعدهم وهم فى طريقهم اليها ، فيقدم لهم ما يحتاجون اليه من نفقة وغيرها ، ويحل مشاكلهم ، ويخرج لهم الزاد والسلاح والخيام والأموال ، ويكون فى حالة ترهب العدو وتزرع الرعب فى قلبه .

وأخيرا عليه ــ فى طريقه للمعركة ــ أن يختار أحسن الطرق وأسهلها ، وأن يعلن الحرب المقدسة على المشركين فى كل بلد يمر فيه ، ليتقدم اليه كل من يأنس فى نفسه مقدرة على القتال والنضال . وحينئذ عليه أن يمده بالمال والسلاح ، وبذلك يقرب من النصر ويحقق الرجاء .

يقول الخليفة لأمير جهاده :

« فاذا كملت العدة من أهل الجلد والشهامة ، وأولى للحماسة والصرامة ، استدعيت من بيت المـــال ما ينفق فيهم من مستحق أطماعهم ، ومعونة طريقهم ، وأجريت النفقة فيهم على أيدى عارضيهم وكتابهم ، فاذا أزحت عللهم ، فاستصحب من العدد والسلاح والخيم والأموال ، ما يرهب الأعداء ، وينهض الأولياء .... وأسلك الطريق القاصد ، ولا تفارق أهل المناهل والموارد ، ولا تغذ السير اغذاذا تنقطع له الرجال ، وتتأخر به الأزواد ، ولا تتلوم فى المنازل تلوما تتصرم فيه الآماد ، ويوجد للمشركين مهلة للاحتيال والاستعداد ، وراع جيشك عند الحل والترحال ..... ودافع عن كافة جند المسلمين المرتزقين والمتطوعين ، فان الله تعالى قد كافى بين دمائهم ، وسوى بين ضعفائهم وأقويائهم .... فاذا نازلت ثغرا من ثغور الساحل ، فاملأه بالخيل من بره ، وبالسفائن من بحره ، واســـتخدم لحفظ ما فيها من الأزواد والأسلحة والعدد والنفط ودهن البلسان والحبال والعرادات وغيرها من الآلات من تثق بأمانته ومعرفته .... ولـمـا كانت الشورى لقاح الأفهام ، والكاشفة لغواشى الابهام ، أمر الله تعالى بها نبيه عليه السلام فقال : « وشـــاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » (آل عمران آية ١٥٩) ولا تشـــاور جبانا ، ولا متهورا ولا مثبطا عن انتهاز الفرصة الممكنة ، ولا متهورا يحملك على الغرة المهلكة ... وابذل الأمان لمن طلبـــه ، واعرضه على من لم يطلبـــه ، وف لمن تعاهده بعهده ....

ويظهر نص الوصـــية أن توزيع الغنـــائم عند الفاطميين على مستحقيها كان من حق الخليفة نفســـه بعد أن يعود الجيش منتصرا مظفرا ، وينحصر واجب القائد فى جمعها والمحافظة عليها وتوصيلها الى بيت مال المســـلمين .

« وتحفظ بجوالى المعاهدين ، الأموال المقبوضة ، ... والغنائم وسبى المشركين حتى يحمل ذلك الى بيت مال المسلمين ، فينظر أمير

المؤمنين فى تفريقه على مستحقه ، وايصاله الى مستوجبه ..... »[٥٩]

وفى جملة واحدة ، فان أقل ما توصف به وصية ذلك الخليفة الفاطمى لقائده هى أنها وصية شاملة ، حوت كل مبادىء الفكر الاسلامى ، وتكاد لا تغفل واحدة منها .

ما يجوز للقائد فعله أثناء الحصار :

نحاول أن نتبين موقف الفكر الاسلامى — بايجاز — ثم نتبع ذلك ببيان التطبيق الفاطمى له .

هناك أمور يجوز لقائد الجيش أن يستعملها أثناء محاصرته لعدوه ، ليتمكن من هزيمته وانزاله عن حصنه .

من حق القائد أن ينصب المنجنيقات والعرادات ، ويمنع الزاد مادام فى ذلك مصلحة . ويجوز له كذلك أن يهدم المنازل .

وللقائد كذلك أثناء الحصار أن يقطع المياه عن عدوه ويغورها عليه ، حتى وان كان فيهم نساء وأطفال ، لأن ذلك من أقوى الأسباب التى تؤدى بهم الى الضعف ، وتحملهم على التسليم ، ولا يصح أن يحرق أحدا منهم بالنار ، حيا ولا ميتا ، ذلك لأن النبى ﷺ نهى عن ذلك وقال : « لا تعذبوا عباد الله بعذاب الله »[٦٠] .

ذلك هو الحكم الشرعى فيما يجوز فعله وما لا يجوز أثناء فترة الحصار ، ونستجلى الآن موقف الفاطميين ، لنرى أوقفوا عند حدود أحكام الشرع فى هذا الصدد ، أم تجاوزوها ولم يعبأوا بها ؟ .

---

(٥٩) انظر نص الوصية فى :
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٠٦ وما بعدها .

(٦٠) انظر : ذلك تفصيلا فى الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٥٣ .

قد مر بنا أن الخليفة الفاطمى « المنصور » (٣٣٤ — ٣٤١ هـ) قد استباح لنفسه أن يهاجم « سدراته » وقتل من بها ونهب أموالها ، لأنها كانت تمد « أبا يزيد » الثائر أثناء حصاره لها فى أيامه الأخيرة ، وكان هدفه من ذلك اضــعاف عدوه والتمكن من انزال الهزيمة به ، كما أن ذلك الخليفة قد سمح لنفسه كذلك باشعال النار فى الجبل الذى كان فيه ذلك الثائر فى واقعة تعرف بواقعة « الحريق » حتى لا يتمكن « أبو يزيد » من الفرار والهرب[٦١] .

واذا كان الفكر الاسلامى يقر هجومه وشله مواقع القوة عند المحاصرين ليقل من قوتهم ، فانه لا يوافقه على تحريق الجبل بمن فيه بالنار ، وتحريق من وجد به تبعا لذلك ، ذلك لأن ما فعله ذلك الخليفة فيه تعذيب للناس بعذاب الله ، وهو ما نهى النبى ﷺ .

ويزيد من مسئولية الخليفــة الفاطمى أن من كان يحاربه لم يكن مشركا ، وانما كان مسلما باغيا خارجا على الخليفة الشرعى على أقصى تقدير ، فلا يجوز أن يعامل معاملة المشركين الكفار ، فيمنع الزاد ، ويحرق أتباعه فى الجبل .

ولم يكن الخليفة « المنصور » هو وحده الذى استباح لنفسه تحريق المحاربين والمحاصرين ، فقد مر بنا أن الجيوش الفاطمية حرقت مدينة « تيهرت » واستعملت النيران فى ازهاق أرواح أهلها عندما ثارت هــذه المدينة على الحكم الفاطمى فى خلافة المهدى (٢٩٧ — ٣٣٢ هـ)[٦٢] وتلك صورة من العذاب لم يقرها أو يعترف بها دين الاسلام ، ولا يمكن موافقة الفاطميين عليها .

---

(٦١) انظر : ابن حمــاد : اخبار ملوك بنى عبيد وســيرتهم ص ٣١ ، ٣٢ .

(٦٢) انظر : ص ٣٦ من هــذا البحث .

تعبئة الفاطميين لجيشهم أثناء المعركة

جدد الفاطميون فى طريقة القتال ، وأولوا تعبئة جيشــهم فى المعارك قسطا وفيرا من العناية .

فبعد أن كان القتـــال من قبلهم يعتمد أساسا على الكر والفر أصبحوا هم يقاتلون صفوفا متراصة تسير متضامنة لمقاتلة عدوها ، ليس لواحد منها أن يتقدم على الصف أو يتأخر عنه ، وتقسيم الناس الى صفوف مأخوذ من قوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى ســبيله صفا كانهم بنيان مرصوص « الصف : آية ٤ » .

وكان الجيش عندهم يقسم الى خمسة أقسام فى المعركة :

١ ـــ مقدمة وموضعها الأمام ، لتبدأ هى بالمناوشات ، وتتعرف الطريق وتؤمنه للعسكر من ورائها ، وكان أفرادها غالبا من الفرسان .

٢ ـــ قلب وهـــو وسط الجيش ، وفيه يتخذ القائد موضعه فى الغالب ، ليتأتى لجميع الجنود رؤيته ، وتنفيذ جميع أوامره ، وقد يتخذ موضعه فى المقـــدمة ليثير الحماسة فى نفوس الجند ، ويلقى الفزع فى نفس العـــدو ، وقد يكون موضـــعه ربوة يشرف منهـــا على الجيش .

٣ ـــ الميمنة وهى عبـــارة عن الكتيبـــة أو الكتائب التى تكون ناحيـــة اليمين .

٤ ـــ الميسرة ، وهى عبـــارة عن الكتيبـــة التى تكون ناحيـــة اليسار ، والميمنة والميسرة يطلق عليهما الجناحان أو المجنبتان .

٥ ـــ ساقة الجيش ، وهى التى تكون خلف الجيش لتحميه من الوراء ، وتحفظ له خط رجعته التى كان الفاطميون من أحرص الناس على المحافظة عليـــه . ولأن الجيش يقسم الى هـــذه الأقسام الخمسة يسمى خميسا ، وكل قسم منها له قائد يسمع له ويأتمره بأمره (٦٣) .

---

(٦٣) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

وما سبق كله يبدو واضحا من النص التالى ، وهو خاص بتولية أحد القواد الامارة على الجهاد ، وقد جاء فيه :

واذا أتوك (العيون التى يرسلها القائد أمام الجيش) بالخبر اليقين ، واقبسوك النور المبين ، بدأت الحرب مستخيراً الله تعالى ، مقدما أمامك ... به واستنزل النصر من عنده ، مرتبا للكتائب معبيا للصفوف ..... زاحفا بالراجل محصنا بالفارس والرامى ... واشحن القلب والجناحين بالشجعان المستقيمين ، والأبطال المحلوسين ، وأنزل الى رحى الحرب من خف ركابه من الأنجاد الراغبين فى علو الصيت والذكر ، الطالبين الفوز بالثواب والأجر ، واجعل وراءهم ردءا ، وأعد لهم مددا يوازرونهم ان يجئهم ما لا يطيقون ... وقف من التأخير والاقدام والنفوذ والاحجام موقفا تعطى الخزانة فيه حقها ، والروية قسطها ، مصمما ما كان التصميم أدنى لانتهاز الفرصة ، واهتبال الغرة ، متلوما ما كان التلوم أحمد للعاقبة وأسلم للمعية... وتحفظ لنفسك ولا تلقها فى المهالك متهورا ، ولا ترم بها فى المثالب مخاطرا ، ولا تساعدها على مطاوعة الحمية والنخوة ، وتحر قبل السقطة والهفوة — فانك — وان كنت واحدا من الجيش — أوحدهم للذى يتبادرون اليه ، ويعتمدون فى السياسة عليه ..... ودافع عن كافة جند المسلمين المرتزقين والمتطوعين ، فان الله تعالى قد ساوى بين دمائهم ، وسوى بين ضعفائهم وأقويائهم ...(٦٤) .

« أمر أمير المؤمنين — العزيز بالله — بتزيين العساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة ، وترتيبها على مواكبها ، وتقدم الى قوادها ، الا يمشوا الا صفا ولا يسيروا الا زحفا .. »(٦٥) .

---

(٦٤) انظر نص التقليد فى :
القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٠٦ وما بعدها ، وهناك تقليد آخر يدور حول نفس المعانى فى ص ٤١٦ وما بعدها من نفس الجزء .

(٦٥) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٧ .

ملابس الجنـــود :

استحسن الفاطميون فى ملابس جنــودهم ضيقها وقصرها ، حتى لا تحول بينهم وبين التحرك فى القتال وغيره •

وقد ساعدت النهضة الصناعية لفن النسيج لعهد تلك الدولة على القيام بحاجة العســـاكر من هــذه الناحية ، فوفروا مختلف المنسوجات لرجال جيشهم ، وأعدوا مختلف أنواع الثياب(٦٦) •

ومن ناحيــة لون تلك الملابس فلقــد كانت تتميز بوحدة اللون الأبيض ، ذلك لأن الفاطميين كانوا يتيامنون بذلك اللون ، ويتشاءمون من اللون الأسود ، ويسمونه لون الشيطان ، ولذلك تجنبوا استعماله فى دولتهم(٦٧) •

موســيقى الجيش الفاطمى :

خصص الفاطميون لجيشهم فرقا موسيقية تصحبه وتعزف بين يدى الجنود ، بثا للحمية فى نفوسهم ، وكى تثار الحماسة عندهم •

وعندما قدم القائد « جوهر » الى موضع « القاهرة » كانت طبوله تضرب ، وأعلامه تخفق ، فتثير الجند ، وتؤثر على نفوسهم ، ذلك أن النفس تطرب وتستمتع بالنغم العذب ، وتهون عليها الأخطار •

وعندما خرج الخليفة « العزيز » (٣٦٥ ــ ٣٨٦ هـ) الى بلاد الشـــام لمقاتلة « الفتكين » بها ، اتخذ معه خمســمائة من الأبواق ومثلها من البنود ، بقصد اثارة حماس للجند ، ونشر السرور فيهم(٦٨) •

---

(٦٦) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٨ •

(٦٧) انظر ماجد : نظم الفاطميين جـ ٢ ص ٥٠

(٦٨) انظر مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٧ •

خدمات متنوعة :

تعود الجيش الفاطمى أن يصحبه دائما كاتب وترجمان وقاض وعمال لتمهيد الطرق ، والمساعدة فى تركيب الأدولت الحربية وما يشبه ذلك من مهام •

وكان يلازم الجيش أيضا أطباء مجهزون بكل ما يلزم المرضى من أدوات طبية وأدوية كذلك ، كما كانت هناك عناية بالجند واسعافهم ، وتضميد جراحهم ومعالجة من يتعرض منهم للمرض أثناء القتال(٦٨) •

مسئولية عسكرية لولاة الأقاليم :

تبين السجلات التى كتبها الخلفاء الفاطميون لولاتهم على الأقاليم، أنهم كانوا يكلون اليهم أمر الحرب ، ومهمة الحفاظ على الدولة وأمنها ، كل فى حدود ولايته ، فكان عليهم ألا يمكنوا عدوا من اقتحام منطقتهم حتى لا يؤدى ذلك الى زحفه على العاصمة ، وتعريض الدولة للخطر من جراء ذلك •

لهذا كان لابد وأن يكون كل وال واعيا حريصا ، كما كان من حقه استخدام الرجال العسكريين المركزيين فى محافظته فى أغراض الدفاع عن البلاد ، والذود عنها ، يوضح ذلك سجلات كتبت لوالى قوص والغربية وغيرهما(٦٩) •

وقد كان بمدينة « تنيس » مثلا حامية عسكرية دائمة للدفاع عن البلاد المصرية على عهد الدولة الفاطمية ، وكانت حصنا حربيا ، يقيم فيه جيش كامل السلاح والعدة ، حتى لا يستطيع واحد من أعداء الدولة الاغارة عليها والنفاذ الى داخل البلاد •

---

(٦٩) انظر السجلات فى :
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٨١ ، ٤٤٢ •

وقد كان يحصل من هـذا الثغر لخزينة السـلطان ألف دينار معزية يوميا ، ولا تستخدم وسـائل العنف أو القهر مع أى شخص فى تحصيلها ، مما يعطى صورة عن الرخاء الذى كانت تنعم به البلاد ، والذى سادها فى تلك الفترة من تاريخها[٧٠] .

التسليح والأسلحة فى جيش الفاطميين

أولى الفاطميون تسليح جيشـهم عناية كبرى ، وحرصوا على توفير انواع السلاح المختلفه له ، ورصدوا مبالغ ضخمة للانفاق على هـذه الناحية تتراوح بين سبعين وثمانين ألف دينار[٧١] .

ذلك لأن السلاح هو آلة الحرب وعدة القتال ، كما أنه مظهر قوة الدولة وآية عظمتها وتفوقها ، وهو الذى يساعدها على حماية نفسها ، وتثبيت مركزها ، وقهر عدوها ، ولذلك لم يكن عجيبـا أن يهتم به الفاطميون ، وأن يكون له دور بارز فى مواكبهم للخاصة ، وأن يعدوا له الخزائن يصان ويحفظ فيها .

من تلك الخزائن :

خزينـة السـلاح :

واحـدة من أهم خزائن للدولة فى العصر الفاطمى ، وهى التى عرفت فيما بعد فى عصر الدولة المملوكية « بالسلاح خاناه »[٧٢] .

وقد حوت أسلحة مختلفة شملت جميع الأنواع ، من الزرديات المنشـأة بالديباج المحكمة المصـنعة المحلة بالذهب الى الجواشـن

---

(٧٠) انظر : زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٦ ، ناصر خسرو : الرحلة ص ٤٠ .
(٧١) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٣
(٧٢) نفسـه .

المذهبة (جمع جوشن ، وهو مثل الزرد يلبس على الظهر ، والفرق بينهما أن الزرد يكون من حلقة واحـدة ، أما الجوشن فيتكون من حلقات تتداخل الصفائح بينها) وكانت فى تلك الخزينة وكذلك الخوذ المحلاة بالذهب والفضـة ، والسيوف العربيـة وغيرها ، والرماح ، والقنطاريات المدهونة والمذهبة والأسنة ، والقسى المنسوبة الى أفاضل الصناع ، وقسى الرجل والركاب ، وقسى اللولب الذى تبلغ زنة نصله خمسة أرطال مصرية ، والنبل الذى يرمى به من القسى .

ويقول ابن عبد الظاهر : ان مبلغ السبعين الى الثمانين ألف دينار التى رصدت التسليح ، كانت تنفق فى أجور العمال ولمصلاح السلاح ، ودهنه وصقله ، وكان يودع فى هـذه الخزينة كل سلاح مات صاحبه ، وكان بها العاملون الذين يقومون بعمل مختلف أنواع السلاح بحسب ما يرسـم لهم من أوامر ، وكان يؤتى لهم بالخشب والحـديد وكل ما يحتاجون اليه من المواد الخام التى تتطلبها صناعتهم .

وتظهر أهمية هـذه الخزينة من اختيار أسـتاذ محنك يتولى الاشراف عليها ، ومن تعهد الخليفة لهـا ، وقيامه بزيارتها من وقت لآخر ، وتفتيشه بنفسه على كل ما تحويه من سلاح[73] .

وقد كانت هـذه الخزانة تحوى أسلحة ذات قيمة تاريخية .. وقد نقل « المقريزى عن ابن الطوير » : [74]

أن الخليفة كان يزور خزينة السلاح فيطوفها ، ثم يجلس على سرير أعد له فيها ، ويتأمل ما فيها من مختلف أنواع السلاح[75] .

وبجانب هـذه الجزينة ، كانت توجد خزينة أخرى تسمى :

---

(٧٣) مشرفة : نظم الحكم ص ١٠٢ وهامشها ، ماجد : نظم الفاطميين جـ ٢ ص ٢٠ ، ٢١ .
(٧٤) المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٢ ص ٢٦٧ .

خـزينة التجمـل :

وتعتبر من حقوق خزينة السـلاح وتلحق بها ، وكانت تختص بما يسـتخرج للوزير والأمراء فى المواكب من قضب الفضـه والعماريات وغيرها •

ويظهر أن خزائن الأموال كان يحتفظ فيها كذلك بشىء نادر من السلاح الى جانب الأموال والجواهر والذخائر العظيمة ، يدل على ذلك أن الخليفة « المستنصر » لجأ الى تلك الخزائن زمن الشدة العظمى ، وأخرج منهـا عشرين ألف سيف من النوع المحلى انتهبها الجنـود الثائرون[٧٦] •

وقد كان يخرج من خزينة التجمل ما هو خاص بالوزير ، وأكابر الأمراء ، وذوى الرتب العالية ، وأزمة العساكر (قواد الجيش) أثناء المواكب والاحتفالات •

فكان يخرج منها أربعمائة راية مرفوعة الأطراف بأعلاها رمامين الفضـة • وعدة من العماريات (وهى الهودج يجلس فيه) ملبسة بالحرير الأصفر والأحمر وغير ذلك ، وعليها كوابج الفضـة المذهبة ، لكل أمير من أصحاب القضب منها عمارية ، وكان يخرج برسم تشريف الوزير والموظفين وقواد الجيش رماح تعرف باسـم قضب الفضـة عددها مائة ، ملبسة بأنابيب فضـة منقوشة بالذهب عـدا ذراعين منها ، ويعلق فى الجزء الخالى حلية من القماش شفاف تترك مسبلة كالراية ، ويوضع برءوس هـذه الرماح رمامين مفضضة ومذهبة ، وأهله مجوفة ، وفيها جلاجل لها حس اذا تحركت •

وكان للوزير عشرة من هـذه القضب ، ولصاحب الباب خمسة ،

---

(٧٥) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٤ وما بعدها •

(٧٦) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٤ •

ولقائد الجيش (الاسفسهلار) أربعة ، أما بقية القواد والأمراء فكان نصيب الواحد منهم يتراوح بين ٣ : ١ حسب طبقاتهم[٧٧] ٠

ســـلاح طائفة الركابية :

كان هناك نوع معين من السلاح يخصص للعرض فى المواكب العظام زمن الدولة الفاطمية ، وكان لطائفة الركابية سلاح تختص به لا يشركها غيرها فيه ٠

وذلك السلاح كان عبارة عن صماصم مصقلة « سيوف مستقيمة » ودبابيس ملبسة بالكونيخت الأحمر والأسود « أى أعمد مغطاة بالجلد ذات رءوس مدببة ومستطيلة الشـــكل » ، ولتوت حديدية « أعمدة حديدية تشبه الفأس الكبيرة ، وآلات يقال لها المستوفيات » وهى أعمدة حديدية طول كل منها ذراعان مربعة الشـــكل ، ولها مقابض مدورة ، وحراب شبه مصقولة تحتها جلب من فضة أى لها مقابض من فضة ، وثلثمائة درقة بكوامج فضة يحمل ذلك فى المواكب ثلثمائة عبد أسود ، لكل عبد حريتان ودرقة « أى درع واحد » ، وستون رمحا ، طول الواحد سبعة أذرع ، ومائة درقة لطيفة ومائة سيف بيد مائة رجل ، لكل رجل درقة وسيف ، ويسيرون رجاله فى المواكب ، كما كان هنـــاك عشرة سيوف فى أغلفة ديباج أحمر وأصفر بشراريب ، ويقال لها « سيوف الدم » تكون فى أعقاب الموكب برسم ثوب الأعناق لذا أراد الخليفة قتل أحـــد[٧٨] ٠

---

(٧٧) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٠ ، ٥٠٠ وما بعدها ، ماجد : نظم الفاطميين ج ٢ ص ٧٧ ٠

أنواع السلاح فى العهد الفاطمى

نذكر فيما يلى أهم الأسلحة التى استخدمها الفاطميون فى حروبهم واستعملوها فى مواكبهم الحربية وفى قتالهم •

كان السيف من أهم الأسلحة عندهم ، وكان منه القصير والمتوسط والطويل ، وكانت تتخذ له الحمائل على الأكتاف أو تعد له المعاليق •

واستعمل الفاطميون كذلك الأقواس ، والقوس عبارة عن آلة خشبية تشد من الطرفين بخط أقصر من قضيبه ليتأتى تقوسها ، ومن الأقواس صنع الفاطميون آلات مركبة لقذف السهم شديدا ، وكان بعضها يقذف عدة سهام دفعة واحدة • وكانت المقاليع — أبسط آلات القذف — وتلحق بالقسى •

والسهام كذلك من الأسلحة الفاطمية ، وكانت تصنع من الخشب، ويركب فيها من الأمام قطعة حديدية مدببة •

واستعمل الفاطميون الرماح للطعن ، وهى قناة يوضع فى آخرها حديدة مدببة تسمى السنان ، تتصل فى حديدة أسفلها تسمى المزج ، وكان الهلال — شعار المسلمين — يوضع عليها •

وعرفت دولة الفاطميين الحراب أيضا ، وهى أقصر من الرماح ، وكانوا يستعملونها بمهارة كبيرة •

وعرفوا الخنجر ، والطبر « وهو لفظ فارسى جمع مفرده طبرزينات » ومعناه الفأس ، واستعملوا « البلطة » كذلك فى قطع الأخشاب وتمهيد الطريق أمام الجيش ، وتضاربوا عند لقاء عدوهم حين كانت الحاجة تدعو الى ذلك •

كذلك عرف الفاطميون الدروع ، وأولوها قسطا كبيرا من عنايتهم وكانت تصنع من حديد وبها يتقون الطعان •

وكان « المغفر » كذلك من آلات الدفاع ، ويلبس على الرأس • وكذلك البيضة، والطراق ويلبس على الساعد، والغفارة وتلبس على الوجه كله بحيث تغطيه ولا يظهر منه سوى العينين ، وكان الفارس يلبس التجافيف يتقى بها الطعان ، وتؤدى مهمتها مهمة الدروع •

وعنى الفاطميون بالمنجنيق ، وهو أداة ترمى بها الحجارة أو الحديد ، أو النفط أو السوائل الملتهبة وغيرها من المواد الحارقة ، وهـذه الآلة القاذفة يمكن فصل أجزائها من بعض واعادة تركيبها عند الاستعمال •

وعرف الفاطميون كذلك الدبابات ، وهى : آلات حربية تتخذ من خشب سميك ومن جلود البقر والابل واللبود ، والجلود المنقوعة فى الخل لتقيها النار ، وكانت مهمتها وقاية من بداخلها من القذائف التى يطلقها العدو عليهم ، فيدخل الجند فى جوفها ، ويدفعونها الى جدار الحصن فتنقبه وهم بداخلها ، وتحميهم بجوانبها وسقفها مما يرميه العدو من نبال وغيرها ، وكانت الحجارة وغيرها ترمى من هـذه الآلة بواسطة المنجنيقات الصغيرة التى ركبت فيها ، وقد استعان بها الفاطميون على هدم أسوار الحصون والخنادق •

وهناك كذلك آلة حربية تسمى « الصنبور » كانت كالدبابة وتصنع من الخشب المغطى بالجلد ، وتعرف حديثا بالسيارة المدرعة ،

وقـد أدت مهمة الدبابة ، وعاونت على هدم أسـوار الحصون التى كانت تعترض الجيش أثنـاء القتال •

وبجانب ذلك كان هناك آلة حربية تسمى « الكبش » وهى عبارة من حجرة صغيرة مصنوعة من خشب متين ، ومركبة على عجل ، ومغلقة بجلود أو لبـود منقوعة فى الخل ، ويكون بداخلهـا الجنود الذين يحركونها ، ويربط فيها عود أفقى له رأس كرأس الكبش ، وتقترب هـذه الآلة من أسـوار الحصن أو القلعة ، ثم تحرك رأس الكبش بحيث تصطدم بحائط السـور المراد نقبه •

وقد استعمل الجيش الفاطمى العجلات لنقل الذخائر والمعدات ، وكان يوضع فيها قذائف ترمى باليد ، وتوضع فى زجاجات مملوءة بالنفط والصبر ، وبذور القرطم المقشور ، وكان يرمى بها بواسـطة سلسلة ، فاذا صادفت شـيئا اشتعلت النار فيـه •

كذلك استخدم الفاطميون العجلات لنقل الجنود والأسلحة من مكان الى آخـر •

ولم يهمل الفاطميون الخيول والعناية بها ، وانما اسـتكثروا منها ، واعتنوا بأنسابها ، وجعلوا لتلك الأنساب جرائد تكتب فيها بالديوان كتلك التى كانت لأنسـاب الناس ، وأكثروا بجانبها ديوان يسمى « ديوان الكراع » ، وله كاتب وعدة من الموظفين ، كما كان للسروج خزانة لها من يحفظها ويهتم بها تسمى « خزينة السروج » •

وفوق هـذا استعمل الجيش الفاطمى النار اليونانية « النفط » وسـمى القائمين عليها « النفطية » •

وفى الدفاع كان العسكر الفاطمى يلجأون الى الخنادق ، وكانوا يحفرونها حول معسكرتهم لتحميهم من مباغتة العـدو عند هجومه

المفاجيء ، ولم يغفل الفاطميون اقامة معسكرات لاراحة الجند أثناء تحركهم ، وانتقالهم على طول الطريق لملاقاة عدوهم .

ولاغرو أن وفر الفاطميون لجيشهم كل هـذه الآلات والمعدات، واهتموا به كل هـذا الاهتمام ، ذلك لأن الدين الاسلامى يريد لأصحابه دائما أن يكونوا فى مواطن قوة ، وأن يتدربوا ويستعدوا لعدوهم ، ويتخذوا من السـلاح ما يأمنون به جانبه ، ويرهبونه به عملا بقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» الأنفال آية ٦٠ وقول النبى ﷺ : «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل» وقوله فى معرض الحث على تعلم فن الفروسية والرماية وألوان القتال « وأعدوا لهم ما اسـتطعتم من قوة .. ألا ان القوة الرمى . ألا ان القوة الرمى » ، وقوله صلوات الله عليه « اركبوا وارموا ، وأن ترموا أحب الى من أن تركبوا»(٧٩) .

ولكن على الرغـم من توافـر الأسـلحة الفاطمية وتعددهـا واختلاف أنواعها ، وعلى الرغم من أن صناعة السـلاح فى مصر ، كانت رائجة زمن الفاطميين ومن قبلهم زمن الطولونيين ، على الرغم من ذلك كله ، فأقدم الأسلحة التى حفظتها متاحف الفن الحربى ترجع الى عصر المماليك ، وليس فيها ــ لسوء الحظ ــ غير ما يمثل ذلك العصر من عصور تاريخية .

ومع ذلك فيعتقد أن مصر الفاطمية لم يكن لها الريادة فى صناعة السـلاح وانما كانت تعتمد على الخارج وتستورد ما هى فى حاجة اليـه(٨٠) .

---

(٧٨) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٠ .
(٧٩) عن وصف الأسلحة وما يتصل به انظر :
مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٣ وما بعدها ، ماجد : نظم الفاطميين جـ ٢ ص ٢٠ ، ٢١ .
(٨٠) انظر : زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٢٥١ .

خـــزانة البنـــود :

اقتداء بالنبى ﷺ اتخذ الفاطميون الأعلام ، فقد كان للنبى راية تسمى العقاب ، وقـــد سار الفاطميون على نهجه ، فجعلوا للجنـــد أعلاما فى القتال ، وكانوا يحلون هـــذه الرايات بآيات مستمدة من القرآن الكـــريم .

فقد كتب الشيعى أبو عبد الله بن الحسن على بنوده « سيهزم الجمع ويولون الدبر » القمر آية٤٥ وكتب الخلفاء على بنودهم بعض آيات القرآن الكـــريم .

وبلغ اهتمام الفاطميين بالأعلام غايته ، حين خصصت له خزينة فيما بعد فى عهد الخليفة « الظاهر » ، وعمل فيها ثلاثة آلاف صانع ، وكان ينفق عليها فى الســـنة ثمانون ألف دينـــار .

وكان لكل قســـم من أقســـام الجيش لواء فللميمنة لواء ، وللميسرة لواء وهكذا .. وكانت ألوية الجيش اما خضراء واما بيضاء ، وأما ألوية الأمان ، فكانت بيضاء ، يدل على ذلك أن « جوهر » عندما قدم الى مصر ، أرسل رســـولا ببند أبيض طاف به على الناس ليعلمهم بميله للمسالمـــة .

وكان لواء الجيش يحمله أمير الجيش ، وقـــد يعطيه لغيره ، وعلى كل حـــال فهو يعتبر شرفا عظيما لمن يحمله اذ أنه شـــهادة له بالشجاعة واعتراف بالقوة ، أخـــذا من قول الامام على : « أقيموا راياتكم فلا تميلوها ، ولا تجعلوها الا بأيدى شجعانكم » وقد تستخدم الرايات للتخاطب بها بدلا من البوق والنقارات ، وذلك فى حالة خشية تنبه العدو وسماعه أصوات هـــذه الآلات (٨١) .

---

(٨١) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٧ .

مواكب الخلفـاء الفاطميين

ودور الجيش فيهـا

منح الخلفـاء الفاطميون قدرا كبيرا من اهتماماتهم لمناسبات معينة ، أحيوها بالاحتفالات الفخمة ، وأعدوا لها المواكب العظام .

وكانت الخلافة الفاطمية حريصـة على أن يأخذ احتفالها مظهرا عسكريا ، وشـكلا حربيا ، وهدفها من وراء ذلك هو اظهـار قوة دولتهم ، وبيـان ما تتمتع به من عظمة ونهضة ، وبث هيبتها فى نفوس الناس ، وينشر الرعب منها فى قلوب الأعداء .

فالمواكب الفاطمية والاحتفالات فى تلك الدولة ، تشبه الى حد كبير تلك الاستعراضات التى تقيمها دول العصر الحديث فى مناسبات مختلفة كأعياد الاسـتقلال وما اليها ، مبتغية اعلام الدول بقوتها ، واعلان الحكومات بامتلاك جيشها لأحسن النظم الحربية وأحـدث التشكيلات العسكرية ، وهى بهذا تزرع الرعب والخـوف فى قلب عدوها ، وتحمله على التفكر مرة ومرة قبل أن تسول له نفسـه خوض معركة حربية معها ، وفى الآن نفسه تسر شعبها وأولياءها حين يرون تفوق دولتهم وعنايتها بجيشها ، ويشاهدون على الطبيعة قدرتها على مسـايرة ركب التقدم العسـكرى ، والاستعداد للعدو بأحـدث ما انتهى اليـه فن التسليح .

وكانت أهم المناسبات الكبرى التى بها تهتم الدولة وتعد لهـا المواكب الضخمة وتهيىء الاحتفال الضخم هى :

أول العام الهجرى وأول رمضان وأيام الجمع الثلاث الأولى منه والعيدان وفتح الخليج، وعيد الغدير، الىجانب الاحتفالات الأخرى التى كانت تقام فى أيام مختلفة على مدار السنة كلها ، وبخاصة أيام السبت والثلاثاء من كل أسبوع وفى الفترة من أول العام الى أول رمضان .

ونتحدث الآن عن واحد من أهم هــذه الاحتفالات ثم نستخلص دور الجيش الفاطمى فيها :

احتفــال أول العــام :

كان احتفال الفاطميين بأول العام يتخذ مظهرين أحدهما يتمثل فى جلوس الخليفة فى الايوان ، ويتمثل الثانى فى ركوبه مع جنده وحاشيته ورجال دولته احتفاء بهذه المناســبة .

جلوس أول العــام :

اعتاد الخليفة الفاطمى أول كل عام هجرى أن يجلس على سرير الملك فى الديوان الكبير بالقصر .

وقــد كان الأمراء وكبار رجال الجيش يحضرون هذه المناسبة ، ويشهدون احتفال الخليفة بها ، ويقفون فى أماكنهم المقررة لهم حسب مكانتهم فى الدولة ، فالوزير يجلس على يمين الخليفة وتطرح له مخدة تشريفــا له ، ثم يكون صاحب الباب (كبير الياوران) وأسفسهلار العسكر على جانبى الباب يمينا ويســارا ، يليهم من خــارج الباب الأزمة والأمراء وفق مراتبهم ، ويقفون فى الرواق (الافريز العالى من أرض القــاعة) ثم أرباب القضيب والعماريات يمينا ويســارا أيضــا ، ثم الأماثل ومن يترشــح للتقدمة والامرة من الجنود فى الجيش[٨٢] .

ركــوب أول العــام :

استن الخليفة المعــز ــ أول خليفة فاطمى فى مصر ــ نظاما معينا ، ورسم طريقة خاصــة ، للاحتفال بهذه المناسبة ، وقد اتبع نهجه فيها كل من جاء بعده من الخلفاء .

---

(٨٢) انظر : المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٩٤ وما بعدها .

لقد كان شأنهم أنه اذا كان العشر الأخير من ذى الحجة فى أية سنة اهتموا بالاستعداد لذلك الاحتفال ، وأخرجوا ما يحتاج اليه الموكب من خزائن الدولة المختلفة .

فيخرج من خزينة السلاح ما تحمله طائفة للركابية وغيرهم حول الخليفة فى الموكب كالصمام ، والدبابيس ، واللتوت ، وعمد حديد يقال لها المستوفيات (وهى عمد يبلغ طولها ذراعين ، شكلها مربع ، ولها مقابض مدورة ، وكان يتسلمها القواد والأمراء) ، والسيوف والرماح ، والدرق ، والألوية ، والأعلام وما الى ذلك .

وكان يخرج من خزينة التجمل قضب الفضة برسم تشريف الوزير ، وكبار رجال الجيش والأمراء من رجالة وفرسان ، وتخرج لهم كذلك للرماح الملبسة بأنابيب الفضة ، المنقوشة بالذهب سوى ذراعين منها ، وقد سبق وصفها[٨٣] وكان يخرج للوزير لواءين على رمحين غير منشورين يسيران أمامه ، ثم يخرج للأمراء وأولهم صاحب الباب ، عشر قضب ، وعشر عماريات ، وللاسفسهلار مثل ذلك ، ولسواهما من الأمراء خمس .

ثم يخرج من البنود الخاص الدبيقى المرقوم الملون برماح ملبسة بأنابيب على رءوسها الرمامين والأهلة للوزير خاصة ، كما يخرج للأمراء بنود حرير على رماح غير ملونة ، ورءوسها ورمامينها فيها نحاس مجوف مذهب .

كذلك يخرج لقوم يقال لهم السبربرية سلاح عبارة عن قطع كل قطعة ثلاثة أذرع برأسها طلقة مصقولة ، وهى من خشب القنطارية ، وفى عقبها حديد مدور الشكل ، ويتكون فى كف حاملها الأيمن يفتلها فتلا ، ويكون فى يده الكبرى نشابة يخطر بها .

---

(٨٣) انظر ما سبق ص

ويخرج لقوم متطوعين ليست لهم جراية ولا نفقة درقة واسـمة ، وسيف ويسـيرون فى المواكب رجالة .

كذلك يخـرج لطائفـه من طوائف العبيـد يقال لهـا أرباب السـلاح الصغير ، عددها ثلثمائة ، يخرج لكل فرد حربتان بأسنة مصقولة ، تحتها جلب فضـة ، ودرقة بكوامخ فضـة ، يتسلم ، ذلك نقباؤهم ثم يسلمون للعبيد كل عبد حربتان ودرقة .

ثم يسـير الخليفة فى الموكب واللواءان المعروفان بلواءى الحمد عن جانبيه ، والمذبة عند رأس فرسـه ، وطائفة الركابية — الذين هم نحـو ألفى رجل تتقلد سـيفها ، وتشـد أوسـاطها بالمناديل والأسلحة — يأخذون وضعهم على جانبى الخليفـة كالجناحين بينهما فرجة لوجه فرس الخليفة ليتأتى له السـير ، وبالقرب من الفرس يوجد اثنان من الصقالبة يحمل كلاهما مذبة ، يرفعها عند رأس الفرس، كما يوجد بالفرجة كذلك ، مقدموا الركابية الست ، اثنان منهم يمسكان لجـام الفرس ، واثنان فى عنقه من الجانبين ، واثنـان فى ركاب الخليفة ، وكان أيمنهم هو رئيسهم ويقوم بنقل أوامر الخليفة ونواهيه مدة الركـوب .

ويرتب المركب بعد ذلك وفقا لرسـوم منظمة دقيقة ، فيتقدمه من أمامه مجموعة من الجنود غير النظاميين يسمون بأخلاط العسكر ، ومعهم أجنـاد الأمراء وأولادهم ، يليهم أدوان الأمراء ، ويأتى من بعدهم قادة الجيش وأمراؤه ، أرباب القضب الفضـية . ثم أرباب الأطواق ، ثم الأستاذون المحنكون ، ثم أهل الوزير ، ثم الحاملان لوائى الحمد ، ثم حامل الدواة وحامل السيف بعده من الجانب الأيسر ، وكل واحد من هؤلاء فى عشرة أو عشرين من أصحابه .

ثم يأتى موكب الخليفة فى حرسـه من الركابية ، يسـير فى رفق وتؤدة يتناسب مع جلال الخلافة ، ويسير خلف دابة الخليفة ،

مجموعة من الركابية تكون بمثابة مؤخرة الحرس ، يتبعهم عشرة رجال يحملون سيوف الدم لضرب عنق من يرى الخليفة ضربة أثناء الموكب ، وأخيرا تأتى طائفة أرباب السلاح الصغير •

وبعد مركب الخليفة يأتى موكب الوزير فى هيئة عظيمة ، وفى نحو خمسمائة رجل من حرسه الخاص الذين يسمون « صبيان للزرد »، وكان يختارهم بنفسه من أقوياء الجند يحيطون به فى الموكب من الجانبين ، مع وجود فرجة فى موكبه دون فرجة الخليفة ، ويحاول ما وسعه الجهد الا يغيب ظل الخليفة عن نظره ، ويوجد فى الخلف مجموعة من الطبول والصنوج والصفافير فى أعداد هائلة تدوى الدنيا من أصواتها ، وخلف ذلك حامل الرمح وحامل الدرقة المنسوبة الى حمزة •

ثم رجال الأسطول يأتى مكانهم فى الموكب بعد ذلك كله ، ممثلين فى نحو خمسمائة رجل معهم القسى العربية المسماة قسى الرجل وللركاب ، يأتى بعد ذلك طوائف الجيش المصامدة والوزيرية وغيرهما ، يأتون جماعة جماعة فى عدة وافرة تصل الى أربعة آلاف ، ثم أصحاب الرايات ، فالحجرية للكبار والصغار ، فالأتراك والديلم وغيرهم •

وكان يقوم بمهمة افساح الطريق للموكب وحث من يقف وتسييره ، وترتيب العساكر ، وزجر المعترضين والمتزاحمين ، كان يقوم بهذه المهمة كل من والى القاهرة ، واسفسهلار العسكر ، وصاحب الباب •

ففى أول الموكب والى القاهرة ، وفى وسطه قائد الجند ، وصاحب الباب فى زمرة الخليفة ، وكان لكل منهم منطقة معينة يسأل عنها ، فوالى القاهرة يقوم بهذه المهمة الى أن يلقى قائد العسكر فيعود ثانية حيث يبدأ الموكب •

وكذلك صاحب الباب يباشر عمله الى أن يصل الى الاسفسهلار ، ثم يعود لترتيب حراسة الخليفة مرة ثانية وهكذا ....[٨٤] .

وليس عجبا أن نرى عناية الدولة الفاطمية بهذا الاحتفال تصل الى هذا الحد ، فمعلوم أنها دولة المظاهر ، وهى التى اهتمت بالمناسبات الدينية والاجتماعية ولحيتها بالاحتفالات الرائعة ، ذات المناظر والأشكال الأخاذة ، وبصورة لم تعرفها مصر من قبل وما احتفالاتنا ببعض هذه المناسبات اليوم الا ظل باق من احتفال الناس بها على عهد الدولة الفاطمية .

ولكن ، من أين كان يبدأ الموكب ، وأى الشوارع كان يخترق فى مسيرته ، والى أين كان ينتهى ، وكم كان عدد كل فرقة من الفرق التى أسهمت بالاشتراك فيه ؟

هذه أسئلة ضن التاريخ بالاجابة عليها ، ولم يصل الينا شىء — فيما نعلم — يفيد فى التعريف على حقيقتها حتى الآن .

ويبدو واضحا مما سبق أن الجيش كان يشترك بالنصيب الأوفى من هذه الاحتفالات مع كبار الموظفين ورجال القصر والدولة ، وكان تمثيله فيها قويا وشاملا .

وهذا العدد الضخم الذى كان يشترك به الجيش ، وهذه الأسلحة المتنوعة التى كان يظهر بها ، كل ذلك يجعلنا نقول : ان هذه الاحتفالات كانت عسكرية الطابع ، حربية الصبغة .

---

(٨٤) عن موكب اول العام انظر كلا من :
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٩ وما بعدها ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٩٩ وما بعدها ، المقريزى : الخطط مجلد ٢ جـ ٣ ص ٣١٦ وما بعدها ، ماجد : نظم الفاطميين جـ ٢ من ص ٨٩ الى ص ٩٣ ومن ص ٤٦ الى ص ٤٩ .

وكان هدفها غرس هيبة الدولة واعلان قوتها ، ونشر عظمتها وما تتمتع به من قوة ومجـد ونفـوذ •

كما أنه يمكننا عن طريق ترتيب الطوائف والفرق العسكرية فى هـذه الاحتفالات ، أن نعرف مكانة كل طائفـة ، والقيمة التى كانت تضيفها عليهـا الدولة ، ومكانة اسفسهلار أو رجـل الجيش الأول بين سـواه من العاملين •

فالوزير رجل الدولة الأول بعد الخليفة ، يليه قاضى القضـاة فداعى الدعاة ، فصاحب الباب (كبير الياوران ، أو رئيس الحرس ، أو كبير أمناء القصر) ، فاسفسهلار العسكر أى قائد الجيش ، فهو اذا يحتل المرتبة الخامسة بين كبار موظفى الدولة مدنيين وعسكريين •

أما طوائف الجيش وفرقه ، فأعلاهم وأرقاهم درجة ، أرباب الأطواق ، ثم أرباب القضب الفضية ، ثم الأستاذون المحنكون ، ثم غير المحنكين فبقية الأمراء والأزمة ، ثم يأتى ذلك طوائف الجال ، وكانت تختلف فى الأهمية والمكانة ، من عهد خليفة الى عهد آخر ، حسب ميله لهؤلاء أو أولئك ، فالمغاربة كانوا أعلى الفرق فى زمن الخليفة « المعز » ، ثم أصبح المشارقة من ديلم وأتراك هم الطائفة الأرقى عندما اصطنعهم الخليفة « العزيز » وأهمل المغاربة ••••• وهكـذا •

خـاتمـة

فى ختام هذا البحث نحاول تركيز أهم ما توصل اليه من حقائق :

نجح الفاطميون فى انشاء دولة لهم فى بلاد المغرب ، مستفيدين من عدة عوامل ساعدتهم على ذلك النجاح ، ولقد تبنت قبيلة كتامة الفاطميين ، وهيأت لدعوتهم سبيل النجاح ، وكافحت معهم حتى تحقق قيام دولتهم ، ولم تتخل عنهم بعد ذلك ، وانما استمرت تقدم كل عون ، وتضحى بما تملك من مال ونفس فى سـبيل حماية الوجود الفاطمى والدفاع عنه .

وبعد قيام الدولة تعرضت لثورات متعددة ، كانت وراءها أسباب مختلفة ، قد تكون الطبيعة البربرية حينا ، وقد يكون أنفة البربر من أن يحكمهم دخيل أجنبى وافد عليهم من البلاد المشرقية ، وقد يكون نفار القبائل من حكم كتامة لهم وتوليها كل شئونهم ، وقد يكون ظلم الولاة الكتاميين واستبدادهم بل وغطرستهم واهانتهم لأفراد الشعب ، كما قد يكون ضيق الناس بالمذهب الشيعى ومحاولتهم التخلص منه ، وقد يكون السبب اخيرا هو اسـتيلاء بعض الأسر على الحـكم فى منطقة ما ، وتسلطهم على أفراد الرعية مما يترتب عليه ضيق وتذمر يدفع الى الثورة واعلان العصيان .

ولقد استمرت قبيلة « كتامة » هى جيش الدولة الحامى لها ، المقدم كل ما استطاع فى سبيلها ، حتى كانت ثورة « أبى يزيد » وطلب الخليفة « المنصور » من قبيلة « صنهاجة » معاونته فى القضاء

عليها ، ومنذئذ والجيش الفاطمى يتكون من هاتين القبلتين الكبيرتين ، وعليهما يعتمد الفاطميون فى مواجهة خصومهم ، وفى فتح البلاد لهم ، كما ناصر الفاطميون الى جانبهما بعض القبائل الأخرى ، كذلك كان عنصر العبيد من أهم ما اعتمدت عليـه الدولة الفاطمية فى البـلاد المغربيـة •

ولم تكن مهمة جيش الفاطميين منحصرة فى الدفاع فحسب ، وانمـا تجاوزت ذلك الى مهاجمة بعض البـلدان واضافتها لأمـلاك الفاطميين ، وقد استطاع أن يخضع المنطقة ما بين المحيط الأطلسى وبرقة للحكم الفاطمى على عهد الخليفة المعز (٣٤١ — ٣٦٥ ﻫ) وعاون القوات البرية فى القيام بمهمتها أسطول قوى ، مدعم بأكبر الوحدات ، مجهز بأحدث الأسلحة ، اهتمت به تلك الدولة ، وأنشأت له « دار صناعة » منذ الأيام الأولى لقيامها •

أما مصر فكانت مطمع الفاطميين الأول ، بذلوا جهودا ضخمة فى سبيل ضم البلاد المصرية لممتلكاتهم ، ذلك أنه يمكن اعتبار السيطرة على تلك المنطقـة ، خطوة أولى تتلوها خطوات يتم بعدها احتـلال « بغداد » وازالة الخلافة العباسية منها ، ووضح فى أحاديث الخلفاء أنفسهم أن فتح مصر ليس الا هدفا مبدئيا نحـو الغرض الفاطمى الأكبر وهو الاستيلاء على حاضرة العباسيين فى « بغداد » •

ولقد أرسلت حملات فاطمية ثلاث لفتح مصر فيما بين سنة ٣٠١ الى ٣٢٣ ﻫ واشترك فى هـذه الحملات خيرة القواد مثل « حباسة بن يوسف الكتامى » ، وولى العهد « القائم » الذى كانت الخلافة تدخره لقيادة الجيوش فى وقت الشدة بهدف رفع معنويات أفرادها ، وكان يصاحب الحملات الفاطمية أسطول يضم أقوى السفن وأنجد الرجال •

ومع اهتمام الخلافة الفاطمية بالجيوش الوافدة لفتح مصر ، لم يتح لها تحقيق هدفها ، وفشلت فى الوصول الى غرضها ، بسبب

تصدى المصريين والعباسيين لها فى قوة ، فوق عوامل طبيعية خارجة عن ارادتها •

وكما فشلت الحملات الحربية ، كان الاخفاق حظ أسلوب الدهاء السياسى والمسالمة الذى سلكه الخليفة القائم (٣٢١ — ٣٣٤ هـ) مع والى مصر الاخشيد •

ورغم ذلك فقد كشفت الحملات عن وجود أنصار للدعوة الفاطمية فى المرحلة الأولى من حياتها ، وقد كاتبوا الخليفة الفاطمى وطالبوه بارسال جيوش للبلاد ، غير أن هؤلاء لم يمثلوا رأيا عاما فى مصر ، ولم يتجاوزوا أفرادا محدودة لم يتح لها معاونة الجيش الفاطمى واعلان ولائها له عندما قدم الى هذه البلاد •

ولقد استمرت الدعوة الفاطمية جاهدة فى كسب الأنصار ، وانضم الكثير الى صفوفها ، وكثر المناضلون لها فى صفوف الموظفين أنفسهم ، وكاد الوالى العباسى « كافور » نفسه أن يتحول الى الدعوة الشيعية •

وفى الحملة الفاطمية الرابعة والأخيرة على مصر ، استفاد الفاطميون من دراستهم أخطاء الحملات السابقة ، وتلافوها هذه المرة ، فقد صفا الجو للخليفة الفاطمى « المعز » فى بلاد المغرب ، وفرغه ذلك لمهمة العمل لفتح مصر ، وأخذ يعد لهذا الغرض ثلاثة أعوام بدأت بسنة ٣٥٥ هـ ، فحفر الآبار فى الطريق الى مصر ، وأكثر من عساكر الحملة ، وأمر باتخاذ أماكن لاراحة الجند فيما بين المغرب ومصر ، وزود الحملة بمبلغ كبير من المال ، ووزع المنح والعطايا على أفرادها قبل مغادرتهم البلاد ، وأرضى نفوسهم جميعا ، ثم اختار لقيادتها أبرع الرجال وأكثرهم خبرة ، فتولى زعامة هذه الحملة أحظى الناس بثقة الخلافة وهو القائد « جوهر » ، ثم ودع « المعز » الحملة بنفسه ، وهو واثق من أنها ستنجح فى مهمتها ، لأن جميع عوامل النجاح فى يديها •

وبالفعل استطاع « جوهر » أن يفلح فيما أخفق فيه غيره ، فضم هـذا البلد الهام الى ممتلكات الفاطميين ، وقد ساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسـية ، وتسـلط البويهيين الشـيعيين على خلفائها ، كما ساعده كذلك سوء الحالة الاقتصادية فى مصر ، بالاضافة الى وجود رأى شيعى نصير للفاطميين فى البلاد .

وبعـد فتح مصر مباشرة أنشئت « القاهرة » لتكون معسـكرا للجيش ، تقيم بها فرقه وجنوده ، وقد أقامت بها كل فرقة مسـكنا اتخذته موطنا لها ، وفى سنة ٣٦٢ هـ أصبحت القاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية ومركز حكمها بعد أن كانت ولاية تدين بالتبعية لموطن الخلافة فى بلاد المغرب .

وقد خلت هـذه الحملة من عسكر « صنهاجة » وكون أفرادها عرب افريقية ، والبربر من الكتاميين وغيرهم ، وسبب ذلك أن الخليفة « المعز » كان يريد ادخارهم لينوبوا عنه فى حكم المغرب بعد انتقاله الى مصر ، فهم الذين فى استطاعتهم قهر أعداء الفاطميين من « زناتة » وغيرها ، وبحكمهم يمكن للأمن أن يستتب فى تلك البلاد .

وقد كان للجيش الفاطمى دور هام فى بلاد الشـام كذلك ، فبعد أن كان القرامطة فى « الأحساء » يدينون بالولاء للخـلافة الفاطمية ، انقلبوا عليها ، ونقموا منها فتحها بلاد الشـام ، وأعلنوها حربا عليها ، وتقدم هؤلاء لمناصرة « الفتكين » التركى عدو الفاطميين الذى تسـبب ظلم ولاة الفاطميين فى بلاد الشـام فى اسـتنجاد أهلها به ، وكاد المتحالفون أن يقضوا على الخلافة ، وحملوا الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) على الخروج بنفسه لقتالهم حتى قضى عليهم نهائيا .

واذا كانت الخلافة الفاطمية قد تعرضت للزوال على عهد العزيز ، فقد تزلزل بنيانها كذلك فى عهـد الحاكم (٣٨٦ — ٤١١ هـ) بسبب

ثورة « أبى ركوة » عليه ، وقد أفلح عنصر الحمدانية والشامية فى وضع حد لهذه الثورة وقضى عليها ، بعد أن استنجدت الخلافة به — ولأول مرة — فى محاربة الثائر وانهاء حركته .

ولم يكن دور الجيش الفاطمى فى صقلية ، وفى حروبه ضد الدولة الرومانية ، بأقل منه فى ميدان آخر ، فقد أخمد ثورات الصقليين ، وضم الى أملاك الدولة بلدانا أوربية ، وانتزع هيبة الشعوب والحكومات فى تلك المنطقـــة .

وفيما يتصل بعناصر الجيش ، فقد اعتمدت الدولة بعد انتقالها الى مصر على العنصر المغربى ، الى أن كان عصر « العزيز » واصطناعه « الفتكين » التركى عندئذ رأينا الخليفة يهمل المغاربة ، ويميل الى المشـــارقة من ديلم وأتراك ويعتمد عليهم ، ويحظون بالمكانة العالية فى جيشـــه ودولته .

وفى عهد الحاكم ، عادت كتامة مرة ثانية الى الظهور ، بيد أنها لم تلبث أن تدهورت منذ تولى « برجوان الصقلبى » الوساطة لذلك الخليفة ، وبدأ بهم العبيد فى الظهور ثم الارتفاع ، غير أنهم سيكونون أكثر تأثيرا فى الأحداث بدولة الفاطميين فيما بعد أيام الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) .

أما عن نظم الجيش الفاطمى ، فقد كانت هـــذه النظم أساسا أخذت به جيوش الأيوبيين والمماليك فيما بعد ، وقد قسم الفاطميون جيشـــهم الى ثلاث مراتب ، تفرعت فى داخلها الى أنواع ، ومنح الفاطميون قواد جيشـــهم ألقابا فخمة ، وأنشأوا مناصب عسكرية وولوها رجالا ذوى كفايات خاصـــة ، وكانت لهم طريقتهم فى التجنيد وفى الترقية الى الرتب الأعلى ، واهتموا بالتدريب العسكرى لرجال الجيش ، وأنشأوا ديوانا سموه ديوان « الجيش والرواتب » قسموه أقساما ثلاثة : خصصوا واحـــد منها لذكر رجال الجيش وتحـــديد

أوصافهم ، والثانى دونت فيه مرتبات العاملين عسكريين ومدنيين ، وكان للثالث مخصصا لذكر اقطاعات الجنود ، ومقدار المقطع لهم ، ومدته ••• الخ ••

ولقد كانت الامارة على الجهاد من أهم ما عنى به الفاطميون ، واشترطوا فيمن يتولاها شروطا معينة ، وحددوا له مهمته ، وكانت لهم أساليب فى ادارة المعركة ، وتعبئة الجيش ومحاصرة العدو ، ولم يغفلوا الخدمات الطبية للجيش ، والعناية بثيابه وبنوده •••• الخ ••

ولقد قدم البحث فى صورة مختصرة جدا ، موقف الفكر الاسلامى فيما يتصل بأهم النقاط السابقة وعرض تصرفات الفاطميين عليها ، ليرى أكانوا حقيقة صابئة ويهودا خارجين على الدين ، يقتلون وينهبون دون مراعاة حـرمة ، أم أن ذلك كان من تجنى أعـدائهم عليهم • ؟ وقد انتهى الى أن هؤلاء لم يتجاوزوا مبـادىء الفكر الاسـلامى ، ولم يبعدوا عنها الا فى الأقل النادر •

ولقد اهتم الفاطميون بتسليح جيشهم ، وخصصوا لهذا الغرض مبلغا وصل الى ثمانين ألف دنيار ، ووفروا له مختلف الأسـلحة ، وأعدوا الخزائن لحفظها ، وبذلوا كل جهد فى سـبيل الحصول على أحدث ما انتهى اليه فن التسليح فى عصرهم •

ولكى تتضـح أمامنا مكانة الجيش الفاطمى ـ وسط غيره من الجيوش ـ نلقى نظرة على الجيوش التى سبقته فى مصر والشام ، ونتحدث كذلك عن تأثير نظمه فى النظم العسكرية لدى الدول المستقلة التى حكمت مصر بعـد الفاطميين وأخيرا نحاول ـ قدر الطاقة ـ التعرف على الجيش البيزنطى المعاصر للفاطميين •

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى : يمكننا أن نقول ان الجيش فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وفى عهد الخلفاء الراشدين

والأمويين ، كان يتألف من العنصر العربى ، ولكن الفرس أصبح لهم دور بارز من حيث الاعتماد عليهم كعنصر رئيسى فى عهد الدولة العباسية ، ولما تولى الخليفة المعتصم العباسى الخلافة (٢١٨/٢٢٧ هـ = ٨٣٣/٨٤٢ م) اعتمد على الأتراك وفضلهم على الفرس والعرب ، وزاد فمحا اسم العرب من ديوان العطاء ، وقد طغى هذا العنصر وتحكم حتى فى الخلفاء أنفسهم ، وبمرور الوقت اندمج فى الجيش العباسى عناصر من غير الترك كلهم مرتزقة لا هم لهم الا جمع المال ، وكان الجيش فى عهد الخليفة المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ / ٨٦٢/٨٦٦ م) يتألف من الأتراك ، والمغاربة (المصريين) والفراغنة (أى أهل بلاد ما وراء النهر) .

أما عن تنظيم الجيش العباسى ، فقد كان يتألف من فرق نظامية وأخرى تطوعية وتتألف هذه الفرق ، من المنشأة : وسلاحهم الرماح والسيوف والحراب والتروس ، ومن الرماة وسلاحهم السيف والقوس والترس والنشاب ، ويلبسون الخوذات والدروع ، ومن النشابين وهم الذين يرمون بالنشاب ومن الدبابين ، ومن العيارين وهم الذين يرمون الحجارة من المقاليع ، ومن المنجنيقيين والنفاطين وهم الذين يقذفون النفط ، ويرتدون زيا خاصا يحميهم من النيران ، ومن الأطباء والمبياطرة والمهندسين ، وكل ذلك أخذه العرب عن الفرس .

وكان على كل عشرة آلاف جندى أمير ، وعلى كل ألف قائد ، وعلى كل مائة نقيب ، وعلى كل عشرة عريف ، ويختلف زى الجند بحسب فرقهم وأسلحتهم(١) .

ومصر والشام لم تكن كلتاهما الا اقليما خاضعا للخلافة العباسية الى أن استطاع « أحمد بن طولون » (٢٥٤ هـ/٢٧٠ = ٨٦٨/٨٨٣ م)

---

(١) انظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٢٨١ وما بعدها القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

الاستقلال عن الخلافة العباسية ، واتخذ لنفسه جيشاً من السودان والنوبيين والروم دربه وفق أحدث نظام ، وبلغ مائة ألف فى عهده وكان هـذا الجيش من الأسباب التى ساعدته على نزع مصر والشام من حكم العباسيين[٢] ، ويتبين مبلغ اهتمام الطولونيين بالجيش من وصف مركب خمارويه (٢٧٠/٢٨٢ هـ = ٨٨٣/٨٩٥ م) عند خروجه للصيد أو التنزه أو الاحتفال ، فقد كان موكبه رائعاً يسير فيه أولاد الحرف وشناترة الضياع ، وكانوا من قطاع الطرق ، ضخام الأجسام معروفين بالقوة والشجاعة ، فمنع خمارويه أذاهم عن الناس واتخذهم حرصاً له ، وكانت تسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان[٣] ، بل انه ليقال ان الجيش الذى نظمه أبو الجيش خمارويه لم يتفق مثله لأعظم الفاتحين ، وكان مؤلفا من صقالبة أى من أهل صقلية والروم وغيرهم من العناصر[٤] .

أما فى عهد الأخشيد محمد بن طفج (٣٢٣ هـ / ٣٣٤ = ٩٣٥ / ٩٤٦ م) فقد عاشت مصر مطمئنة بفضل جيش بلغ ٤٠٠ ألف مقاتل عدا الحرس الخاص والعبيد والمماليك الذين زخر بهم القصر ، ووصلوا الى ثمانية آلاف رجل ، وكان « الأخشيد » من القوة بحيث استطاع أن يولى ابنه (أونو جور) (٣٣٤/٣٤٩ هـ = ٩٤٦/٩٦٠ م) من بعده ، وأن يحصر حكم مصر من بعد فى أسرته ، وقد اتضح لنا كيف استطاعت قوة هـذا الجيش على عهد الأخشيد أن ترد الحملة الفاطمية الثالثة على مصر (٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م) ، وقد انضم الى هذا الجيش كثير من السودان بعد أن تولى « كافور » (٣٥٥/٣٥٧ هـ = ٩٦٦ / ٩٦٧ م) زمام مصر وما يلها من البلاد[٥] .

---

(٢) انظر : محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ١٦ دمشق سنة ١٩٢٧ م .

(٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٤) محمد كرد على : المرجع السابق ج ٦ ص ١٦ .

(٥) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ص ٢٨٧ .

فاذا انتقلنا الى الجيوش فى الدولة الأيوبية التى استقلت بحكم مصر بعد الفاطميين فسنجد أن الجيوش على عهد صلاح الدين كانت تتألف من عرب وأكراد وأتراك وكان الجيش ينقسم الى نوعين :

النوع الأول : الأمراء وهم أربع طبقات :

(أ) أمراء المئين مقدمو الألوف ، وعند كل منهم مائة فارس ، أى كل واحد من هؤلاء يكون فى خدمته ١٠٠ مملوك (فارس) ، وفى أثناء الحرب يقود ألف جندى من أجناد الحلقة وهـذه الطبقة أعلى مراتب الأمراء •

(ب) أمراء الطبلخاناه وعدة كل منهم أربعون فارساً وقد تصل الى ثمانين •

(جـ) أمراء العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فوارس •

(د) الطبقة الرابعة أمراء الخمسات وهم قليل وأكثرهم أولاد الأمراء المتوفين وكانوا يصلون الى هـذه الرتبة رعاية لحق سلفهم •

النوع الثانى وهم الأطباء ، وكانوا ثلاث طبقات :

(أ) المماليك السلطانية وهم أرفع قدرا ، ثم هم عبارة عن أجناد السلطان وأجلابه وما يتبقى عنده من مماليك من سبقه فى السلطنة ، وهؤلاء يتولى السلطان العناية بهم وتربيتهم منذ صغرهم ، ويكونون حرسـه الخاص •

(ب) أجناد الحلقة ، وهم عدد كبير ، ولكل أربعين منهم مقدم « ليس له عليهم حكم الا اذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه وترتيبهم فى موقفهم اليه » وهم عبارة عن محترفى الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهم أقرب الفئات الى نظام الجيش الثابت فى العصر الحديث •

(جـ) مماليك الأمراء ، وهم يشبهون المماليك السلطانية ، غير أنهم يتبعون أمراءهم مباشرة ، ومنهم تتكون الوحدات الحربية التى يذهب بها الأمراء مع السلطان فى حربه[٦] .

وهناك من الأجناد فوق ما سبق طائفة يقال لها البرية ، يقول « القلقشندى » أنهم كانوا يبيتون بالقلعة ، وأن أول من رباهم ورتبهم وسماهم بهذا الاسم الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل (٦٣٦/٦٤٧ هـ / ١٢٤٠/١٢٤٩ م) .

والشبه كبير بين مقدمى الألوف فى النوع الأول هنا ، وبين مرتبة الأمراء المطوقين فى التنظيم الفاطمى للجيش ، كما أنه كذلك بين أمراء الطبلخاناه هنـــا وبين أمراء القضب هنـــاك ، وبين أمراء العشرات والخمسات هنا وبين أدوان الأمراء هنـــاك . كما أن الشبه كبير كذلك بين أجناد السلطان فى التنظيم الأيوبى صبيان الحجر والخاص فى العصر الفاطمى ، ومماليك الأمراء هنا لا يختلفون عن الفرق التى كان يشكلها الوزراء والأمراء ، كالوزيرية ، نسبة الى الوزير يعقوب بن كلس ، واليانسية نسبة الى يانس الصقلى فى العهد الفاطمى .

واذا كانت الأجنـــاد قد انقسمت الى طوائف أيام الفاطميين ، ونسبت كل طائفة الى وزير أو خليفة أو أمير ، فقد انقسم الجيش الأيوبى كذلك الى طوائف أخذت كل طائفة اسم قائدها مثل النورية نسبة الى « نور الدين محمود » والصلاحية نسبة الى « صلاح الدين » والأسدية نسبه الى « أسد الدين شـــيركوه » ، وكان كل مقدم يقود خمسين مملوكا ، وكل مملوك يقود ٤٠ جنديا[٧] .

---

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٤ وما بعدها ، تعليق (الدكتور) محمد مصطفى زيادة على السلوك للمقريزى جـ ١ قسم أول ص ١٢٢ ، ص ١٣٩ .

(٧) احسان هندى : الحياة العسكرية عند العرب ص ١٩٧ .

وهذا التشابه الكبير بين نظم الجيشين لا يمكن أن يفسر بالمصادفة ، وانما هو — فيما نظن — تأثير الدولة الفاطمية فى الدولة التى قامت على أنقاضها فاستفادت بنظمها وطبقتها بعد تعديل ، ولم يقف حد التأثير عند الأيوبين بل تعداه الى عصر المماليك الذين حكموا بعد الأيوبين •

واذا عقدنا مقارنة بسيطة — فى نهاية الأمر — بين النظام البيزنطى والنظام العربى ، فسنجد أن الشبه بينهما كبير ، فقد كان البطريق عندهم يقود عشرة آلاف جندى ، يقسمون الى قسمين ، يقود كل قسم منهما « طومارخان » أى أن « الطومارخان » يقود خمسة آلاف ، وتحت امرته خمسة « درنجاريه » ، وللدرنجارى يقود ألف جندى ، وتحت امرته خمسة قوامس ، والقومس يقود مائة جندى ، ثم الدمراخ وتحت امرته عشرة جنود •

وفى الجيوش البيزنطية ، الفرسان ، والرجالة ، والفرسان ينقسمون الى أربعة أقسام :

١ — الاسخلارية ، وعدتهم أربعة آلاف •

٢ — الخشف وهم كذلك أربعة آلاف فارس •

٣ — أوحوس وعدتهم أربعة آلاف وهم مخصوصون للحرس وصاحبهم طرنجار •

٤ — قندارطين وهم يخرجون مع الملك اذا خرج فى سفر ، وعدتهم أربعة آلاف •

أما الرجالة فينقسمون قسمين : الأول منهما يسمى « ابلنمسا » وعدتهم أربعة آلاف رجل والباقون يسمون « مويرة » وعدتهم أربعة آلاف رجل ، هذا ما يكون فى القسطنطينية ومجموعهم ستة عشر

ألفا من الفرســـان ، وثمانية آلاف من الرجالة ، أما مجموع جيوش الامبراطورية فعدته سبعون ألفا(٨) .

ونقدم فى الصفحة التالية مقارنة بين الجيوش وقوادها ووحداتها فى العصر الحديث ، وبينها فى العصور السابقة :

أمير العســكر :

واسم وحدته فى القديم « الجيش » وكان يقود من خمسة عشر ألفا الى خمسة وعشرين ألفا وهو المشير فى تعبيرنا الحديث .

رئيس الخميس :

واسم وحدته فى القديم « الفرقة » وكان يقود من أربعة آلاف الى ٢٥ ألفا وهو الفريق أو اللواء فى التعبير الحديث .

رئيس الجيش :

واسم وحدته فى القديم « اللواء » وكان يقود من ألف الى أربعة آلاف وهو العميد أو اللواء فى اصطلاحنا الحديث .

رئيس الكردوس :

واسم وحدته فى القديم « الكتيبة » وكان يقود من ٥٠ الى ألف وهو عقيد أو مقدم فى المصطلحات الحديثة .

رئيس السرية :

واسم وحدته فى القديم « السرية » وكان يقود من ٥٠ الى ٤٠٠ ورتبته حديثا هى الرائد أو النقيب .

---

(٨) قدامة بن جعفـر الكاتب : نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتـابة ، ص ٢٥٥ وهـو مطبـوع ملحقـا لكتـاب المسالك والممـالك لابن خرداذبه ، تصوير بغداد عن طبعة دى غويه ـ بريل سنه ١٨٨٩ م .

رئيس الفصيلة :

واسم وحدته فى القديم « الفصيلة » وكان يقود من ٣٠ ــ ٤٠ تقريبا • واسم رتبته حديثا الملازم أول أو الملازم •

رئيس العريف :

واسم وحدته القديم « الجمــاعة » وكان يقود حوالى عشرة ويناظره حديثاً « الرقيب » •

رئيس العريف :

واسم وحدته فى القديم « الطاقم » وكان يقود من خمسة الى عشرة جنود ويناظره فى الجيش المعاصر « عريف »[1] •

والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسـلم •

انظر : احسان هندى : الحياة العسكرية عند العرب ص ٢٣٧ .

اهـم المصـادر والمراجـع

● **أولا : الكتب المطبوعة :**

(رتبت المراجع حسب الأسـماء الأخيرة للمؤلفين مع اهمال « ال »
و « ابن » ... الخ) .

ابن ابى دينـار : (ابو عبد الله محمد بن أبى القاسـم) :

١ ـ كتاب المونس فى اخبار افريقية وتونس ـ تونس سنة ١٢٨٦ هـ
ابن ابى زرع : (ابو الحسن على بن محمد) :

٢ ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغـرب وتاريخ مدينة فاس ـ جـ ١ ـ نشر محمد الهاشـمى الفيلالى ـ الرباط سـنة ١٩٣٦ م (وتوجد منه نسخة كاملة مطبوعة بالمغرب طبع حجر بدونتاريـخ) .

ابن ابى الضياف (احمد) :

٣ ـ اتحاف اهـل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهـد الأمان ـ تونس سـنة ١٩٦٣ م .

ابن الأثير (ابو الحسن على بن أبى الكـرم) :

٤ ـ تاريـخ الكامل (على هامشـه تاريخ ابن الشحنة المسـمى « روضـة المناظر فى اخبار الأوائل والأواخـر ») أجزاء ـ طبـع بولاق بدون تاريـخ .

الادريسى (محمد بن عبد العزيز الشريف الفـاوى) :

٥ ـ صفة المغرب وأرض السـودان ومصر والأندلس قطعة مأخوذة من كتاب « نزهة المشـتاق فى اختراق الآفاق ») لندن سنة ١٨٦٣ م ٠

الاصطخرى (ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى) :

٦ ـ المسـالك والممالك ـ تحقيق محمد جابر الحينى ـ القاهرة سـنة ١٩٦١ م ٠

امارى (ميشـيل) :

٧ ـ المكتبة الصقلية ـ جزءان ـ ليبزج سـنة ١٨٨١ م ٠

الانصـارى (احمد النائب) :

٨ ـ المنهل العزب فى تاريخ طرابلس الغـرب ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ـ سـنة ١٩٦٠ م ٠

الانطاكى (يحيى بن سـعيد) :

٩ ـ تاريخ يحيى بن سعيد (تكملة تاريخ « سعيد بن البطريق » المسـمى « التاريخ المجمـوع على التحقيق والتصـديق ») بيروت سـنة ١٩٠٩ م م

ابن اياس (محمد بن احمـد) :

١٠ ـ كتـاب تاريخ مصر المشـهور « ببدائع الزهـور فى وقائع الدهور » اجـزاء بولاق سـنة ١٣١١ هـ ٠

بروكلمان (كارل) :

١١ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ٠ اجزاء ٠ ترجمة نبيه فارسى ومنير بعلبكى ٠ بيروت سنة ١٩٤٩ م ٠

ابن البطريق (سعيد المكنى باوتيخا) :

١٢ ـ التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . بيروت سنة ١٩٠٩م.

البكرى (ابو عبيد الله بن عبد العزيز) :

١٣ ـ المغرب فى ذكرى بلاد افريقية والمغرب (وهو جزء من المسالك والممالك) تحقيق دى سلان . باريس سنة ١٩٠٩ م .

ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحسن الأتابكى) :

١٤ ـ النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة . أجزاء . طبعة وزارة الثقافة المصورة عن طبعة دار الكتب . القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

الجوذرى (ابو على المنصورى) :

١٥ ـ سيرة الأستاذ جوذر . نشر الاستاذين الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد عبد الهادى شعيرة . القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

ابن الجوزى (ابو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد) :

١٦ ـ المنتظم (المطبوع منه من جـ ٥ الى جـ ١٠) طبع دائرة المعارف العثمانية . حيدر اباد . الدكن سنة ١٣٥٨ هـ .

حتى (الدكتور فيليب وآخرون) :

١٧ ـ تاريخ العرب . مطول . اجزاء . الطبعة الثانية . بيروت ١٩٥٣ م .

حسن (الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم) :

١٨ ـ تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى . أجزاء . ط ٧ القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

١٩ ـ تاريخ الدولة الفاطمية (وهو الطبعة الثانية من كتاب « الفاطميون بمصر ») القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

٢٠ ـ عبيد الله المهدى (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور طه شرف) القاهرة سنة ١٩٤٧ م ٠

٢١ ـ الفاطميون بمصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ٠ القاهرة سنة ١٩٣٢ م ٠

٢٢ ـ مصر الاسلامية من الفتح العربى الى الفتح العثمانى (وهو قسم من كتاب « المجمل فى التاريخ المصرى » لعدة مؤلفين) القاهرة ١٩٤٢ م ٠

٢٣ ـ المعز لدين الله الفاطمى (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور طه شرف) الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٦٤ م ٠

حسن (الأستاذ الدكتور زكى محمد) :

٢٤ ـ فى مصر الاسلامية (بالاشتراك مع آخرين) ٠ القاهرة سنة ١٩٢٣ م ٠

٢٥ ـ كنوز الفاطميين ٠ القاهرة سنة ١٩٣٧ م ٠

حسن (الدكتور على ابراهيم) :

٢٦ ـ تاريخ مصر فى العصور الوسطى ٠ القاهرة سنة ١٩٤٧ م ٠

٢٧ ـ جوهر الصقلى ٠ القاهرة سنة ١٩٣٣ م ٠

ابن حماد (ابو عبد الله بن محمد بن على) :

٢٨ ـ أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ٠ الجزائر ١٣٤٦ هـ

ابن حوقل (ابو القاسم النصيبى) :

٢٩ ـ صورة الأرض (المسالك والممالك والمفاوز والمهالك) بيروت ١٩٦٤ م ٠

خسرو (ناصر) :

٣٠ ـ سفرنامة (الرحلة) ٠ ترجمة عن الفارسية الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة سنة ١٩٤٥ م

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

٣١ - العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن ناصرهم من ذوى السلطان الأكبر . القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .

٣٢ - مقدمة ابن خلدون . تحقيق الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى . القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابى بكر) :

٣٣ - وفيات الأعيان وانباء الزمان . اجزاء . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

دبوز (محمد على) :

٣٤ - تاريخ المغرب الكبير . اجزاء . القاهرة سنة ١٩٦٣،١٩٦٤ م.

ابن دقمان (ابراهيم بن محمد العلائى) :

٣٥ - الانتصار لواسطة عقد الأمصار (طبع منه جـ ٤ ، ٥) بولاق ١٣٠٩ هـ .

ابن الراهب (ابو شاكر بطرس بن ابى الكرم) :

٣٦ - تاريخ ابن الراهب . نشر لويس شيخو اليسوعى سنة ١٩٠٣ م .

الريس (الأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين) :

٣٧ - الخراج او النظم المالية للدولة الاسلامية . الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

٣٨ - النظريات السياسية الاسلامية . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٦٧ .

ابن زيدان (عبد الرحمن) :

٣٩ - اتحاف انباء الناس بجمال حاضرة مكناس . أجزاء . الرباط ، سنة ١٣٤٧ هـ .

سرور (الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين) :

٤٠ ـ مصر فى عصر الدولة الفاطمية · القاهرة سنة ١٩٦٠ م ·

٤١ ـ النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ط ٣ القاهرة سنة ١٩٦٤ م ·

ابن سعد (عريب القرطبى) :

٤٢ ـ صلة تاريخ الطبرى « الجزء ١٢ من تاريخ الطبرى » المطبعة الحسينية بالقاهرة بدون تاريخ ·

السلاوى (احمد بن خالد الناصرى) :

٤٣ ـ الاستقصا لتاريخ دول المغرب الأقصى · جزءان فى مجلد · طبع المغرب سنة ١٣١٢ هـ ·

سيدنو (ل · م) :

٤٤ ـ تاريخ العرب العام · ترجمه الى العربية عادل زعيتر · القاهرة سنة ١٩٤٨ م ·

السيوطى (جلال الدين) :

٤٥ ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة · القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ ·

الشيال (الأستاذ الدكتور جمال الدين محمد) :

٤٦ ـ تاريخ مصر الاسلامية · جزءان · القاهرة سنة ١٩٦٧ م ·

٤٧ ـ مجموعة الوثائق الفاطمية · القاهرة سنة ١٩٥٨ م ·

الصيرفى (امير الدين تاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب) :

٤٨ ـ الاشارة الى من نال الوزارة · تحقيق عبد الله مخلص · القاهرة ١٩٢٤ م ·

الطبرى (ابو جعفر محمد بن جرير) :

٤٩ ـ تاريخ الأمم والملوك • أجزاء • المطبعة الحسينية بالقاهرة بدون تاريخ •

عبد الحميد (الأستاذ الدكتور سعد زغلول) :

٥٠ ـ تاريخ المغرب العربى • القاهرة سنة ١٩٦٥ م •

عبد الوهاب (حسن حسنى) :

٥١ ـ خلاصة تاريخ تونس ط ٣ • تونس سنة ١٣٧٣ هـ •

العدوى (الأستاذ الدكتور ابراهيم احمد) :

٥٢ ـ الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط • القاهرة ١٩٥٧م

٥٣ ـ المسلمون والجرمان • القاهرة سنة ١٩٦٠ •

ابن عساكر (ابو القاسم على بن الحسن بن هبة الله) :

٥٤ ـ التاريخ الكبير • أجزاء • طبع روض الشام سنة ١٣٣٥ هـ •

عنان (محمد عبد الله) :

٥٥ ـ الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية • ط ٢ • القاهرة ، سنة ١٩٥٩ م •

٥٦ ـ مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية • القاهرة سنة ١٩٣١ م •

بو الفداء (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماة) :

٥٧ ـ المختصر فى اخبار البشر • اربعة أجزاء • طبع القسطنطينية نة ١٢٨٦ هـ •

بن القلانسى (ابو يعلى حمزة) :

٥٨ ـ تاريخ ابن القلانس المعروف بذيل تاريخ دمشق • بيروت نة ١٩٠٨ م •

القلقشندى (ابو العباس احمد بن على) :

٥٩ ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، مصورة وزارة الثقافة عن طبعة المطبعة الأميرية ، القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

٦٠ ـ ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ، القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

كاشف (الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل) :

٦١ ـ مصر فى عصر الاخشيديين ، القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

ابن كثير (عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر) :

٦٢ ـ البداية والنهاية ، اجزاء ، القاهرة سنة ١٩٣٢ م .

الكعاك (عثمان) :

٦٣ ـ موجز التاريخ العام للجزائر ، تونس سنة ١٣٤٤ هـ .

الكندى (ابو عمر محمد بن يوسف) :

٦٤ ـ كتاب الولاة والقضاة ، تصحيح رفن كست ، بيروت سنة ١٩٠٨ م .

ماجد (الأستاذ الدكتور عبد المنعم) :

٦٥ ـ الامام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة سنة ١٩٦١ م .

٦٦ ـ الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، القاهرة سنة ١٩٥٩م.

٦٧ ـ نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، جزءان ، القاهرة سنة ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ م .

الماوردى (ابو الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى) :

٦٨ ـ الأحكام السلطانية ، القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

مبـارك (على) :

٦٩ ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة • اجزاء بولاق سنة ١٣٠٦ هـ •

المراكشى (ابن عذارى) :

٧٠ ـ البيان المغرب فى اخبار المغرب (وقد اختلطت به قطع من تاريخ عريب بن سعد) تحقيق دوزى • ليدن سنة ١٨٤٨ م •

وطبع طبعة أخرى تحقيق ليفى بروفنسال بعنوان « المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب » ، ليدن سنة ١٩٤٨ م •

مشرفة (الدكتور عطية مصطفى) :

٧١ ـ نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين • القاهرة سنة ١٩٤٨م•

المقريزى (تقى الدين احمد بن على) :

٧٢ ـ اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا • نشر الاستاذ الدكتور جمال الدين الشيال الجزء الأول ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م •

اما الجزءان الثانى والثالث فقد حققهما الأستاذ الدكتور محمد حلمى محمد احمد ، ونشرا بالقاهرة سنة ١٩٦٩ ، ١٩٧١ م •

٧٣ ـ اغاثة الأمة بكشف الغمة نشر الأستاذين الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال • القاهرة سنة ١٩٤٠ م •

٧٤ ـ الخطط المقريزية المسماة « المواعظ والاعتبر بذكر الخطط والآثار » ثلاثة مجلدات فى كل مجلد ثلاثة اجزاء • مطبعة الساحل الجنوبى • لبنان سنة ١٩٥٩ م •

٧٥ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك • نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة • اجزاء • القاهرة سنة ١٩٣٤ م •

ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف بن جاب) :

٧٦ ـ اخبار مصر • نشر هنرى ماسيس • القاهرة سنة ١٩١٩ م •

الميلى (مبارك بن محمد الهلالى) :

٧٧ ــ تاريخ الجزائر فى القديم والحديث • جزءان • طبع قسنطينية بالجزائر سنة ١٣٥٠ هـ •

ياقوت (شهاب الدين ابو عبد الله) :

٧٨ ــ كتاب معجم البلدان • اجزاء • القاهرة سنة ١٩٠٦ م •

اليعقوبى (احمد بن ابى يعقوب بن واضح) :

٧٩ ــ صفة المغرب (ماخوذة من كتاب البلدان له) طبع اوربا بدون تاريخ •

اليمنى (أبو الحسن نجم الدين عمارة) :

٨٠ ــ النكت العصرية فى اخبار الوزارة المصرية • اجزاء • نشر درينرج شالون سنة ١٨٩٧ م •

مجهــــول :

٨١ ــ كتاب الاستبصار لمجهول يبدو انه من رجال القرن السادس الهجرى ، نشر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد • اسكندرية سنة ١٩٥٨ م•

مجهــــول :

٨٢ ــ نبذة تاريخية جامعة فى اخبار البربر فى القرون الوسطى ، انتخبها ونشرها من الكتاب المسمى (بكتاب مفاخر البربر) ليفى بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٤ م •

● ثانيا : الكتب المخطوطة :

ابن ايبك (ابو بكر عبد الله بن ايبك المعروف والده بالدواه دارى) :

١ ــ درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان • دار الكتب بالقــاهرة برقم ٤٤٠٩ تاريخ •

٢ ـ كنز الدرر وجامع الغـرر ، اجزاء ، دار الكتب بالقـاهرة برقم ٨٨٤٥ ح ٠

ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو الحسن الاتابكى) :

٣ ـ مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة ٠ دار الكتب برقم ١٣٥٦ خ تاريخ ٠

الحلوانى (يوسف الحلوانى) :

٤ ـ كتاب تحفـة الأحباب فيمن ملك مصر من الملوك والنواب ٠ دار الكتب برقم ٥٦٢٣ تاريخ ٠

الدوادار (ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار) :

٥ ـ زيدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ٠ حـ ٥ ، ٦ ٠ مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٦ ، ٢٤٠٢٧ ٠

الذهبى (الحافظ شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد الذهبى) :

٦ ـ تاريخ الاسلام ٠ دار الكتب ٠ برقم ٣٩٦ ، ٤٢ تاريخ ٠

٧ ـ دول الاسـلام ٠ دار الكتب برقم ٢٢٩٩ تاريخ ٠

سبط بن الجوزى (ابو المظفر يوسف بن قيروغلى) :

٨ ـ مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ٠ دار الكتب برقم ٩٢٧٦ ح ٠

ابن سعيد (على بن موسى المغربى) :

٩ ـ المغرب فى حلى المغرب ، مجلد ٣ ، كتاب النجوم الزاهرة فى حلى القاهرة ٠ دار الكتب المصرية برقم ٢٧١٢ تاريخ ٠

وقد نشر الجزء الأول من القسم الخاص بمصر الدكتور زكى محمد حسن وآخرون القاهرة ١٩٥٨ م ٠

ابن ظافر (جمال الدين ابو الحسن على) :

١٠ ـ اخبار الدول المنقطعة . دار الكتب ٧٣٥٥ ح .

ابن الظهيرة :

١١ ـ الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة . دار الكتب برقم ١٤٦٠ تاريخ .

العمرى (شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله) :

١٢ ـ مسالك الابصار فى ممالك الأمصار . دار الكتب مصور برقم ٢٥٦٨ تاريخ ، ٥٥٩ معارف عامة .

العينى (نور الدين ابو محمد بن احمد بن موسى) :

١٣ ـ عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان . اجزاء . دار الكتب برقم ٨٢٠٣ ح .

القضاعى (ابو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن محمد بن على) :

١٤ ـ عين المعارف وفنون اخبار الخلايف . دار الكتب برقم ١٧٧٩ تاريخ .

الكندى (ابو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب) :

١٥ ـ فضائل مصر . دار الكتب برقم ٧٥٣ مجاميع .

المقريزى (تقى الدين احمد بن على) :

١٦ ـ المقفى الكبير ، اجزاء . مصورة دار الكتب برقم ٥٣٧٢ تاريخ .

النعمان (ابو حنيفة بن محمد المغربى) :

١٧ ـ المجالس والمسايرات . اجزاء . مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٦٠٦٠ .

النويرى (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب) :

١٨ – نهاية الأرب ٠ اجزاء ٠ مصورة دار الكتب تحت رقم ٥٤٩ معارف عامـة ٠

مجهـــول :

١٩ – اخبار المعز لدين الله الفاطمى ، مصورة دار الكتب برقم ١٢١١١ ح وهو نفسه « شرح لمعة من اخبار المعز لدين الله » المصور بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٢

مجهـــول :

٢٠ – الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، دار الكتب برقم ١٥٢٢ ، ١٥٨٧ تاريخ ٠

مجهـــول :

٢١ – مختصر فى تاريخ مصر ٠ دار الكتب برقـم ٣٥١ مجاميع ٠

ثالثا : المراجع الأوروبيـة

Ivanow (valdimir)

1 — Rise of the Fatimids. Calcutta, 1942.

Lane Poole

2 — A history of Egypt in the middle ages. London 1914.

3 — The story of Cairo. London 1959.

ترجمه الى العربية بعنوان « سيرة القاهرة » حسـن ابراهيم وآخرون القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

4 — The Mohammadan dynasties. Westminster 1925.

Lewis Bernard.

5 — The Origins of Ismailism. Cambridge 1940.

ترجم للعربية بعنوان « أصول الاسماعيلية » .

Nicholson (John).

6 — An account of the establishment of the Fatimits Dynasty in Africa. Tubingen, 1848.

Nichalson (reynold A).

7 — A literary history of the fatimids Cambridge 1930.

O, lery delacy .

8 — A short history of the Oatimids Khaliphato. London 1924.

9 — Cambridge Meidieaval history . Cambridge 1913.

10 — The encyclabeadia of Islam.

11 — Encyclobeadia Britancia .

فهرس

الصفحة	
الاهــــــداء	٣
المقــــــدمة	٣
الفصل الأول ــ الوطن والقبائل	٩
الحالة السياسية ببلاد المغرب قبيل قيام الدولة الفاطمية	٢٦
الاغالبـــــة	٢٦
دولة الرستميين فى تيهرت	٣٠
دولة بنى واسول بسجلماسة	٣٢
العلاقات بين الدول السابقة	٣٥
الدعوة الشيعية منذ البداية وحتى قيام الدولة الفاطمية ..	٣٨
الفصل الثانى ــ الجيش الفاطمى فى افريقية	٥٤
دور الجيش الفاطمى فى اخماد الثورات	٥٥
دلالات الحركات الثورية ضد الفاطميين	٧٥
دور الجيش الفاطمى فى توسيع رقعة الدولة	٨٥
الفصل الثالث ــ الجيش الفاطمى ومحاولات فتح مصر	٩١
أهمية مصر للفاطميين	٩٣
حالة مصر عند مجىء الغزوات الفاطمية	٩٥
حملة الجيش الفاطمى الأولى لفتح مصر	١٠٣
حملة الجيش الفاطمى الثانية لفتح مصر	١٠٩
اسباب فشل الفاطميين فى المحاولة السابقة	١١٤
حملة الجيش الفاطمى الثالثة على مصر	١١٦
محاولة سلمية تجـاه مصر	١١٨
حملة الجيش الفاطمى الرابعة والأخيرة على مصر	١٢٠
اسباب نجـاح الحملة الفاطمية الأخيرة على مصر	١٣٠
الفصل الرابع ــ الجيش الفاطمى فى الشام	١٤٢
الجيش الفاطمى يحارب القرامطة	١٤٤
الجيش الفاطمى يحارب « الفتكين » التركى	١٥١
الجيش الفاطمى يحارب أباركوه التركى	١٥٦

الصفحة

الفصل الخامس ـ الجيش الفاطمى وصقلية والروم ١٦٤
أهمية صقلية للفاطميين ١٦٥
الجيش الفاطمى فى صقلية ١٦٦
نشاط الجيش الفاطمى من صقلية ١٧٣
فتح طبرمين ١٧٥
فتح رمطة ١٧٦
واقعة المجاز ١٧٨
الأسطول الفاطمى يغزو الأندلس ١٧٨
الجيش الفاطمى يحارب الروم البيزنطيين ١٨٠

الفصل السادس : عناصر الجيش الفاطمى ومعسكراته ١٨٥
عناصر الجيش الفاطمى ١٨٥
القاهرة معسكرا للجيش الفاطمى ١٩٥
حارات القاهرة والفرق التى سكنتها ١٩٧

الفصل السابع ـ النظم والأسلحة فى الجيش الفاطمى ٢١٥
مراتب رجال الجيش فى الدولة الفاطمية ٢١٧
ألقاب القواد فى الجيش الفاطمى ٢٢٢
مناصب عسكرية فى الجيش الفاطمى ٢٢٥
مجال الترقى وصاحب الحق فيه ٢٣٠
التدريب فى الجيش الفاطمى ٢٣١
طريقة التجنيد ٢٣٣
ديوان الجيش ٢٣٥
كيفية ترتيب العسكر فى الديوان ٢٣٦
أسس تقدير مرتبات العسكر ٢٣٧
مرتبات الأجناد فى الدولة الفاطمية ٢٤١
ديوان الاقطاع ٢٤٥
الامارة على الجهاد ، أحكامها وشروطها وموقف الفاطميين
من ذلك ٢٤٧
ما يجوز للقائد فعله أثناء الحصار ٢٥٢
تعبئة الفاطميين لجيشهم أثناء المعركة ٢٥٤
ملابس الجنود ٢٥٦
موسيقى الجيش الفاطمى ٢٥٦

الصفحة

مسئولية عسكرية لولاة الاقاليم ٢٥٧
التسليح والأسلحة فى جيش الفاطميين ٢٥٨
خزائن السلاح ٢٥٨
أنواع السلاح فى العهد الفاطمى ٢٦٢
مواكب واحتفالات الخلفاء الفاطميين ودور الجيش فيها .. ٢٦٧

خاتمة تتناول أهم نتائج البحث مع المقارنة بين الجيش الفاطمى وغيره من الجيوش السابقة عليه واللاحقة به فى مصر والشام ٢٧٥

أهم المصادر والمراجع ٢٨٩
أهم المصادر والمراجع العربية ٢٨٩
أهم المصادر والمراجع الأوروبية ٣٠٣
فهرس الموضوعات ٣٠٤

رقم الايداع ٨٧١٦ / ٩٠

دار التوفيق النموذجية للطباعة
ت: ٩٢٥٣٠٤
الأزهر ، ٣ ميدان أم الغلام - بجوار جامع الدعاء

7

1